رواية

العروس

أحمد الغندور

اسم الكتاب: العروس

اسم الكاتب: احمد الغندور

رقم الإيداع: ٢٠٢٤/٣٦٦٨

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٧٣٤٤-٤-٧

كافة الحقوق محفوظة للناشر والمؤلف

لا يُسمح بإعادة طبع أو توزيع أي جزء بأي طريقة، بما يشمل ذلك التصوير أو الطباعة أو التسجيل الصوتي أو أي وسيلة أخرى إلكترونية أو غير إلكترونية، دون إذن كتابي مسبق من الناشر، ويسمح فقط في حال الاستعانة ببعض الفقرات لغرض النقد والدراسة، طبقًا لما تحدده قوانين واتفاقات حقوق الملكية الفكرية.

رواية

العروس

مؤسسة الكاتب العربي
The Writer Operation

إهداء إلى

- روحك يا أبي، سأحكي لك الكثير عندما نتقابل عند بوابات الجنة بإذن الله.
- تلك الأميرة التي وهبتني أجمل أيام عمرها حتى أستمتع بالحياة، أمي.
- ذلك المُنقذ الذي لم يبخل عليّ بالمساعدة كلما لجأت إليه، أخي.
- جعلتني أعشق القراءة ودوما تبارك بيتنا بوجودِك، جدي.
- منحتاني الدعم والمحبة بلا مقابل فأنا حقا ممتن لكما، خالتيّ.

المقدمة

بالرغم من اختلاف المصادر إلا أن هناك تطابق واضح خلال وصف ما قد حدث بالفعل، اكتشافات كتابية ومخطوطات وأوراق مدونة من قِبل مؤرخين أعزاء.. تغيرات الأزمنة الماضية عن الواقع الحالي بإمكانها شرح نفسها، وبإمكانها أيضا إيقاع القارىء في مصيدة التحير.. حقائق تم اختصارها، وحقائق لم يتم ذكرها.. نظرا لقلة أهميتها، ولإبعاد الذهن عن أي تشتيتات غير متوقعة.. للسلطان أكثر من زوجة، وأيضا يتبعه أينما ذهب العديد من الأمراء والقادة.. ففي عهده الكثير من المناصب الفعالة ظهرت على الساحة السياسية والاقتصادية بشكلٍ ملحوظ، ولكن وجب نُطق اختصاصات بعينها دونا عن الأخرى لخدمة مساعيها لسياق المفاجئات.

عدة جوانب تم توضيحها، وعدة جوانب عصرية كانت غامضة.. لا غرض للتضليل أو لستر المصائب التي حدثت على أرض الواقع بالفعل، وما ذُكر أهل الكتاب بسوء.. فكم من شاهدٍ على ضوء التاريخ فسر مرارا سوء المغزى القلبي الذي اتكأ عليه قادة حملات الفرنجة، طموح تخفى بعباءة طاهرة نُقش على أطرافها رمز الصليب.. لم يعلموا يوما أنهم قد أهانوا كيانه بجشعهم دون وضع قدسية معناه في عين الاعتبار، لذا كان السعي نحو الجهاد هو الحل لإنهاء ذاك النزاع.. العامة فضّلوا أن يكون دورهم الأبرز، فقد بُعث الشرف في نفس كل من يسمع صوت الهيبة يتعالى حينما تتلامس ضربات السيوف.. هناك بعض الشخصيات التي تم اختلاقها إبان هذه الحقيقة المطروحة، فمنها العربي والقبرصي أيضا.. والهدف من عرض تفاصيلهم الجسمانية والحياتية معا، يتلخص في إيضاح الوجه العام أو السائد خلال هذه الفترة العصيبة التي مرت بها المنطقة أثناء القرن الرابع عشر والخامس عشر الميلادي.

أحيانا يتطلب الأمر التريث المؤقت حتى يكون رد الفعل أفضل من المرغوب فيه مهما كانت حدة استخفاف الطرف الآخر، ولكن في شهر ذي الحجة عام (٧٦٧ هجريا) كانت حالة الاستنزاف دموية وبشعة.. لذلك أمن الجميع حينها بأن الحق لا مانع لحصد أمجاده ما دامت النفوس مُهيئة لاستكمال ما قد برعت في إنجازه أصول دمائهم، الجموع احتشدت والقلوب ترابطت لتُجبر المجد على المُضي معها نحو تخليد ذكرى لم ينساها العدو قبل الحبيب.

الغرض الأساسي كان إثبات مدى قدرة المماليك على حفظ عزيمتهم حينما تهل عليهم الغارات والمجازر بلا سابق إنذار، العديد من الشعراء والعلماء رغم اختلاف أجناسهم لم يفقدوا الثقة يوما في أن النصر آتي لا محالة حتى ولو انتظروا لعقودٍ وعقود.. ومن هنا سُطرت واحدة من أعظم الحروب التي هاجمت فيها أفواج مصر البشرية -رفقة جنود منطقة الشام- على غريم لا يكُف عن إحداث المذابح والسرقات، فالتعبئة العامة وعون القادة من مختلف البلدان علاوة على فطنة ولي الأمر بأرض المعركة يُعتبروا أهم الأسباب التي أضائت الطريق أمام أعين المغيرين على كنوز قبرص.

بسم الله الرحمن الرحيم

(٧٦٧هـ - ١٣٦٥م)

(لحظات الغدر)

الفصل الأول

للطبيعة رونق، رونق يجذب المحبين والعشاق.. فهنا، شفافية المياه تعطي شعورا خاصا لكل من يتأمل نقائها.. رائحتها كعطرٍ مجفف على الأنف، لا يُحرم المار على حافتها من التمتع باستنشاقها.. فامتداد رقعة المياه يعطي منظرًا خلابًا وكأنها قطعة من الجنة أخذها آدم معه قبل أن يتركها هو وحبيبته، بحر مملوء بحفاوة الدفء.. كل أنواع الدفء، فقد قسمها الحكماء لأبوابٍ متفاوتة.. دفء الأحبة، دفء الأمومة، دفء السلامة، دفء الروح.. لهذا البحر أهل، يمنحهم المودة وقتما أرادوا.. وإن زاره ضيف أكرمه ومنحه الأمان النفسي الذي يبحث عنه في بلاد السلام ولا يجده، فتيقن الأُناس مُسَلَّمين من أعماق قلوبهم بأن البحر وطن والوطن بحر.

ولهذه الأسباب، قرر **(بكير)** أن يصطحب تلك الفتاة التي سرقت قلبه إلى شاطئه المفضل عند جزيرة مدينته الأشهر.. **(آمنة)** العنيدة، فوجهها مُلفت بسماره القمحي.. وبالرغم من ثبات اللفاعة الموضوعة فوق رأسها، إلا أن خصلات شعرها الثقيلة تتساقط أحيانا.. وزن حبيبها أضعاف ثقل جسدها النحيف، فهو قوي، ذكي، مرح ومرن.. عشقته يوم أن رأته ينظر إليها بين بوابات السوق، لمحته ببؤبؤ عينيها البنيتين وهي تمر بين الرجال والنساء.. حاول أن يستعطفها حتى يتقابلا سويا أمام بيتهما الدائم، أمام البحر.. ظل يترجاها شهورًا ولكنها كانت ترفض حتى لا يظن شيطانها أنها تتخلى عن تلك القيم التي نشأت على أُسُسها، منطق وعلى المحب أن يُقدره وألا يُبدي أي اعتراضات عليه.. وحينما تقدم لخطبتها أمام أعين الجميع ليصبح الأمر مُعلنا لكل من هو غريب، وافقت على الفور بالاتجاه معه نحو حافة الشاطىء دون تردد كي تستمع لكلماته فوق الرمال بلا صخب.

وقت الغروب له تأثير خاص بالنفس، وآمنة حاذقة.. اختارت أن تجلس مع حبيبها في ذلك الموعد العاطفي بعد أن أقنعت والدتها بتوجب الذهاب إلى تاجر الأقمشة اليوم قبل أن تنفد بضاعته الجديدة التي يحصل عليها من قِبل بعض المُصدرين، حُجة مقنعة إلى حدٍ ما.. فاستآذنتها كي تسمح لها بالخروج حتى تعود إليها مجددا قبل ابتداء فترة الليل المظلمة، أي وقتما يحين موعد ظهور القمر مزحزحا أشعة الشمس اللافحة.

– طلتكِ بهية كما اعتدت أن أراكِ، لكن أخبريني أولا.. أين عبائتِك المزخرفة بالبقع القرمزية؟

أبعدت آمنة وجهها في خجل:

– عبائتي القرمزية!!! أنا لم أرتديها أو حتى أذكرها أمامك قط، كيف عرفت أنني أمتلكها؟

فرد بكير ضاحكا:

- رأيتكِ وأنتِ تشترينها مع أمكِ من السوق الكامن بوسط المدينة، بالتأكيد قُمتِ باختيارها كي يزداد إعجابي بكِ.. وجهكِ سيتلألأ حينما تضعين تلك القماشة على جسدِك

التفتت له غاضبة:

- هذه نبرة تهكمية، إنني أختار ما يروق لي أنا فقط
- لا يا حبيبت..

قاطعته مسرعة:

- ولا تظن أنني أتهافت عليك مثلما تفعل الفتيات اللاتي يفقدن حيائهن
- ولكن..

قاطعته مرة ثانية:

- إذا كنت تظن أنني لن أتمكن من حفظ نفسي، فأتركني وارحل وحدك

فانفجر صارخا:

- استمعي إليَّ يا آمنة، أنا فقط أمزح معكِ
- لا تداعبني بمثل هذه الطريقة، ولا تفعل ذلك مجددا.. ما زال هناك حاجز بيني وبينك لم نكسره بعد لأننا لم نتزوج
- أُقسم أنني أحبكِ، أُقسم أنني أحبكِ ومتشوق لاحتضانكِ يوم زواجنا يا آمنة المخبولة

ضحكت ساخرة:

- وأنت أبله يا بكير، أبله لأنك أحيانا لا تعرف ما يدور حقا بداخلي

– أستعين أحيانا بنثر العشاق من كُتيب جدي القديم قبل غفلتي لأتذكركِ

– هل بإمكانك إطلاعي على ما قد كان يدونه جدك؟

انعطف بمرونته نحوها:

– ولمَ لا نتزوج اليوم؟!

– احضر نصف المهر الذي طلبه منك أبي وحينها..

سكتت لوهلة، ثم أبعدت رأسها للجهة الأخرى بعد أن ارتعشت شفتيها واحمرت وجنتيها.. فأمسك بكير بأطراف أصابعه وجهها وقال متحمسا:

– أرجوكِ أكملي، وحينها ماذا؟

نظرت في عينيه وأردفت:

– سنبقى معا، سنبقى فوق مرقدٍ غطائه مصنوع من الحرير الناعم

ابتسم وكأن شعور المرح يخترق صدره للمرة الأولى بعمره، إحساس داخلي جعله يحاول الاقتراب من جسدها حتى يُقبلها.. وجعله أيضا يتشبث بيدها حتى لا تهرب منه، لحظة انتظرها كثيرا حتى يتأكد من عشقها إليه.. وها هي نفخة الهوى أكرمه **الله** بها، لكن ذلك الشرود الروحاني قاطعه منظر عجيب لمحه بطرف عينه.. فالتفت ليتفقد ما قد جذب انتباهه رغم قيمة هذا الموقف الذي لن يُعوَض لاحقا، هنيهة ولاحظ ما لم يكن يخطُر على باله ولا على بال قائده مُطلقا.

العديد من المراكب الحربية تتناثر في البحر على مرمى عينيه، ترتيبها يشبه تنظيم طوابير النمل التي تصطف عند الثقوب الأرضية.. تحركها المفاجيء نحو الشاطيء مخيف لحدٍ يُرعب الفرسان، وأولئك الشجعان لا يحاربون بين الأمواج.. بكير مقاتل يحمل بين صدره ضراوة عَهَد أصحاب الأساطير على تملكها، وبالرغم من حميته لخوض النزاع دون خوف.. إلا أن الرعشة انتابته وبثت في قلبه رهبة جعلته يدفع عزيزته للتقدم أمامه، كي يُعيدها لبيتها في القريب العاجل.

فقالت آمنة باندهاش كامل:

– ماذا حدث، لمَ تركض هكذا وتجذبني معك؟!

رد بكير مفزوعا:

– أتمنى أن تبدأ نبوءات يوم القيامة في التحقق الآن، ولا يحدث ما أتوقعه

– لم أتفهم شيئا!!!

– جهزي أغراضِك الأولية لإعانتِك وأبلغي والديكِ أنه يجب عليكم جميعا الهرب قبل موعد طلوع الفجر

صار على حين غرة يجوب الصخور لتنحرف آمنة معه يمينا ويسارا، يحاول بقدر المستطاع تفادي السقوط.. حتى توقفت الجميلة لتشتم حفيف الهواء:

– ما الغرض وراء كل هذا يا بكير؟ لماذا تُبلغُني بهذه النصائح الدخيلة الآن؟!

أردف أثيرها:

– يبدو أنه الغزو يا آمنة، أتمنى ألا يكون هكذا يا جميلتي

– وما سبب توقعك لذلك الظن البغيض؟

– سيطول تفسيري وسيصعب عليكِ فهمه، نفذي ما أخبرتكِ إياه.. فهم قربوا على الوصول لبرنا خلال ساعات قليلة

وما أن أوصلها لمسكنها، دخلت بيتها دون أن تودعه ثم فر هو مسرعا إزاء بيت قائده.. فالفجعة تُرهب، أحيانا تُشتت الذهن.. ولكن يبقى حس المحارب ما يدفعه للقلق، ما سبب وصول تلك السفن في هذه الساعة دون سابق إنذار أو حتى دون تأهب رجال البحارة بالميناء لاستقبالهم؟ بالطبع قضية حضورهم تتعلق بالضلع الحربي، فإن تمكن مروج تلك الحملة من استعمار مجرى العيش في البقاع السكانية بهذه المدينة لبضعة أيام.. سيستطيع أن يستنفذ كل نعمةٍ حفظها **الرب** لمُلاكها، فموعد الحبيبان قطعه هذا الحدث الغامض ليتحول اللقاء فيما بعد لفردٍ يواجه غريما وسط حلقة الموت.

الفصل الثاني

ملامحه البيضاء تنوه أن الشاب وُلد بداخل هذه المدينة، وتهيج نفسه بالمرونة ينوه أيضا أن عروقه البارزة من خشونة جلده اعتلت بسبب مشقة الترويض للتفنن في أصول المناجزة بالسيف فوق الرمال.. دق بكير بيديه وبباطن قدمه الباب المُقلد بالطبق النجمي –أي طبق على شكل نجمة محفور على انسدادته أقوال نبوية شريفة كُتبت بالخط العربي الريحانى- حتى خرج إليه **(الحجاج)** مفزوعا وهو نصف عاري، ذاك القائد صاحب البنية الجسدية المتينة وملامح الوجه الغليظة.. يداه أقوى من سلاحه أحيانا، أما قلبه الصافي وعقله المتزن.. ما كانا يُميزانه عن بقية الأمراء، فقد أُنعم عليه برتبة أمير طبلخاناه لجدارته.. منصب سمح له بتولي قيادة أربعين فارس علاوة على اعتباره قائد من الدرجة الثانية، وبسبب هذه القيمة اللامعة ارتبط الأول بمرافقته دوما كي يستنبط منه تقنية الشجاعة النادرة مقارنة بمجهودات من هم بنفس مرتبته.. التقيا فيما يقرب من شهور وأحس صاحب الخبرة أن هذا التلميذ يُشبهه وقتما كان شابا مثله، فاحتضنه كأنه مربيه وألحقه بغاياته.

– ماذا حدث يا بكير؟! ما الذي أتى بك أمامي متعجلا؟!

– لقد وصلوا، إنهم على أعتاب مدينتنا من جهة الساحل يا سيدي

انحنى حاجبان القائد غضبا ليتلعثم لسانه من فرط الغيظ قائلا:

– الفرنجة، الفرنجة مرة أخرى

– يبدو أن انقضاضهم سيطول لأيام

طقطق على رأسه بكفيه:

– الآن علمت سبب نزوح المئات من التجار الأجانب عن بيوتهم المُباعة خلال تلك الأيام السابقة

ثم التفت لبكير وأردف:

– هل يوجد أحد من القادة على علم بوصولهم؟

صدر الشاب قد أُنهك ولكنه أكمل:

– بالطبع، العامة قد لاحظوا.. والجماعات الدفاعية تمركزت بين كل منطقة

فأمسك الحجاج بيد ملازمه وردد:

– إذا، سأذهب لأُخبر والي مدينتنا.. عسى أن يعطي الأوامر للفرسان بالتحرك، أما أنت يا بكير.. فعليك أن تذهب لتُخبر بقية العساكر بعمق المدينة للإسراع في التزود بدروعهم للصمود أثناء المواجهة، لن يمنحنا الوقت الكثير مما في جعبته

– حسنا، على الفور سأُنفذ

***

تحرك كل منهما لوجهته، عينا الحجاج تفيضان بالدموع.. الأحداث القادمة متوقعة، يحاول أن يُحجم تهيج أعصابه قبل أن يصل لسيده صاحب تدبر السلطة ولكنه يعرف قدر البلاء الذي حل على بلدته الحبيبة.. ربما هو يعلم أن تحركاته متأخرة وبلا فائدة، وبالرغم من هذا عليه أن يسعى حتى ولو فقد بصره كما حتمت عليه عقيدته منذ ولادته.. وصل وراح يسير فوق سجاد مبسوط على طول البلاط كله، وكذلك تحف الحضارات متناثرة على مصراعي كل باب ذات ارتفاع يصعب قياسه.. فالدقائق تمر ودقات القلوب تزداد، واقتحامه لمقر والي مدينته **(الأمير صلاح الدين خليل بن عرام)** كان عنيفا.. ولأن أفراد الحَفَرَ ومُعاوني المذكور جميعهم يعرفون أن الحجاج لا يتحدث ولا يأتي إلا لمناقشة الأمور الخطرة، تركوه يخترق صفوف الحراسة بالموقع دون أن يوقفوه.

– أين الحاكم؟ أين بن عرام؟ دعوني أُحدثه الآن

وقف الأمير **(جنغار)** –نائب حاكم الإسكندرية- في ذعر، ثم اتجه نحو الثائر ليربت صدره حتى يهدأ:

– تريث يا حجاج، أنسيت أن الوالي يؤدي فريضة الحج؟!

أكمل الزائر وهو ينهج:

– يجب أن نجد حلا إذا أيها الأمير جنغار، سيُداهموننا

حاول جنغار إظهار عدم توتره:

– صراخك كالثعالب الهائجة لن يُسعفنا أيها القائد

تحرك الحجاج نحو النافذة ثم نظر تجاه مياه البحر وقال:

– اقتربوا من سواحلنا منذ قليل، وسيهجمون علينا خلال ساعات

تسارعت أنفاس النائب بعد أن أفلتت علامات الذهول من وجهه:

– علينا أن نتحرك نحو الأسوار، أبلغوا كل رجل يستطيع النزال في مدينتنا بضرورة انضمامه إلينا

صرخ الحجاج فجأة ناهيا:

– لا، لا تأتي أنت.. فقط أعطي العساكر الأسلحة اللازمة وأرسل من يستطيع الذهاب مسرعا لقائد الجيش الأعلى الأتابك يلبغا حتى يبعث إلينا بجيش متكامل

عاد جنغار مرة أخرى لكرسيه:

– اقتراحك شاذ عن توقعي، لمَ لا تريدني أن أشارك؟!!!

– أنت المسؤول الأول هنا أمام الجميع، يجب ألا يُقبض عليك حتى تحفظ المدينة وتُصدر الأوامر بعدما تصلك المُستجدات

– ولكنني يجب أن أعاون البقية حتي يصل إلينا الدعم

ثم مط عظام ظهره مرددا:

– سيعتقد الجميع أنني تركتهم يواجهون فزع الموت وحدهم، وأنا أجلس هنا مُنعَم فوق هذا الكرسي الثقيل

فالتفت أحد مساعدي الأمير للحجاج باشمئزاز:

– السيد جنغار هو نائب البلدة بأكملها، لذا عليه أن يساند أهلها بوجوده

لحظات وتتابعت جملة الحارس الخاص:

– حضوره بجانبهم سيمنح الرجال الثقة لمواجهة هؤلاء الحثالة

أكمل مساعد آخر الحديث ناظرا لجنغار في بلاهة:

– سيدي، نحن جميعا نثق أنك تسعى دائما لحمايتنا.. لذا، عليك أن تظل مع البقية هناك حتى تتضح الصورة كاملة أمامك إن أردت أن تخطط لشيءٍ

تملك الغضب جحاج، فاقترب من الحمقى:

– يجب عليه أن يبقى هنا حتى يستطيع التصرف إن تم تدمير الأسوار المحصنة

فوقف النائب متجها لوسط القاعة حتى يقول ما يفصل الجدال بينهما:

– لم يعد لهذه الآراء فائدة، لقد اتخذت قراري.. سأخرج بسلاحي لأساعد أهل الإسكندرية

صاح القائد مسرعا:

– لا تخرج من هنا لتتجه إليهم، صدقني.. سنندم جميعا في النهاية

قاطعه جنغار:

– انتهى جدالنا، نفذ أوامري واجمع عساكرك نحو شاطيء جزيرة فاروس الغربي

مرت لحظات من الذهول والشك، ثم غادر الجميع القاعة خلف خطوات جنغار إلا الحجاج.. فالدموع عادت تتناثر من عينيه لعلمه بمدى حماقة تصرف ذاك المسؤول المؤقت عن هذه المدينة الجميلة، أمير لا يملك من الخبرة ما يكفي لاتخاذ تلك القرارات العسكرية المصيرية.. يتعثر اللسان أحيانا عن التصرف، ليصبح العنف هو الوسيلة الفعالة إن كان العناد ما يسود فكر الماثل أمام المُحق.. يُطلق عليه اللخمة، من خسر رهان رعيته عندما أُسندت إليه مهمة تحمل اللطمة.. واللطمة بالفعل أتت، ليتحملها الدهماء.

الفصل الثالث

ما زالت أضواء الشموع لم تخفُت بداخل البيوت الماثلة بجانب سوق التجار المتعددين، فيضج نهارا بهتافات البائعين وأقدام المشترين وليلا بجعجعة الريح الصافية إن كان البدر مكتملا.. يشعر أهل هذا الحي بالدفء وقت سماع صافرات الطيور حينما تجتمع الخيول عند بوابات المنطقة، ولكن في هذه الليلة وبعد أن تفقه أحد أفراد الصيادين بما حدث.. جمع ذلك الرجل مقتنياته وأغراض زوجته التي لم تلد بعد، وركض معها برشاقةٍ نحو بيت أخيه في هلع.. تحركاته توحي بخوفه المثير، ربما هي خطوات الهروب قبل حدوث الكارثة.. الجنين أغلى من عمره، لذلك حرص على عدم وضعه بمأزقِ العيش بلا مأمن!!! فتصبح الورطة قائمة ولا سبيل للمفر منها إن مات الأب وبقت الزوجة وحدها، ولكن هذا أفضل من أن يُقتلا سويا.. لذلك، اقتحم **(حارث)** بيت أخيه الشيخ كي يُقنعه بضرورة التحرك والهروب دون تماطل سالكين معا الطرق الوعرة.

– احضر زوجتك وابنتك من الداخل، علينا أن نرحل سويا في الحال

اقترب منه الشيخ **(رابح)** قائلا:

– أحدث مكروه لأحد أفراد عائلتنا؟!

أجلس حارث زوجته كي تستريح ثم أردف:

– لا وقت للشرح الآن، هيا يا رابح

رد الأخ باقتضاب:

– لن أفعل شيئا إلا بعد أن أتفهم مُجمل الأمر يا حارث، ماذا حدث يا أخي؟!

لحظات واقتربت منهم آمنة ابنة رابح وخلفها والدتها:

– نعم يا أبي، عمي محق.. لا وقت للشرح

فقالت **(ضحى)** زوجة الزائر بعد أن أنهكها السباق:

– لم أعد أتحمل الصمود، أشعر أنني سأفقد وعيي

لترد زوجة صاحب المنزل **(عائشة)** وهي ترتعد:

– قلق أخاك أصابني بالرعب، وآمنة لم تُخبرني حتى بحجم المصيبة المستورة عن أعيننا

فالتفت رابح لابنته وقال:

– كيف عرفتي يا آمنة أن الخطر يداهمنا؟!

جاوبته في توترٍ بَيِّن:

– سمعت الرجال يتحدثون عند طرقات الحي الضيقة عن أنباء مرعبة المغزى، فعُدت على الفور لإبلاغكم

ومن هنا صرخت ضحى خوفا على رضيعها الذي لم يولد بعد:

– أي أمر تخشون الهلاك بسببه؟

فاقترب منها رابح وأعطاها قلة الماء كي تُهدِء من روعها:

– لا تُرهقي بدنكِ، لن نتحرك من هنا.. أرى أن الوضع لا يستدعي ذلك

ليخرج حارث عن صمته:

– سرب من المراكب اقترب من الشاطىء

ابتسم رابح قائلا:

– ربما هذه مراكب التجارة القادمة من دول أوروبا

– لا، لو كانت هي.. ما أتت في هذا الموعد من شهرنا الحالي

– أظن أنها شائعات العامة الساذجة يا حارث، فلا تكن مغفلا مثلهم

ارتمى الصياد على الأريكة وقال:

– لا يا أخي، هناك بعض الصيادين الذين لمحوا المعدات الحربية والأسلحة على متن كل السفن

فأكملت آمنة:

– هيا بنا إذا، ماذا تنتظرون الآن؟

اتجهت عائشة للداخل:

– تريثوا حتى أجلب إليكم بعض من الأطعمة المتبقية هنا

تبعتها آمنة:

– خير صواب ولكن أسرعي

نظر الشيخ لحارث ثم تساءل:

– وماذا عن تجارتنا؟ إن رحلنا سنخسر كل شيء

فرد الأخ ساخرا:

– فترة وصولهم إلينا قليلة، وفترة هروبنا منهم محدودة.. إن بقينا سنخسر أرواحنا دون أن نتمكن من النطق بالشهادة أو حتى التفكير فيها

قاطعته ضحى الضعيفة في يأس:

– ومع الأسف، إن رحلنا.. ستتبعنا بقية العائلات

المسؤول الأول عن مدينتهم الساحلية سيحضر بنفسه بين الجموع وهو يظن أنه يملك القدرة على تأخير حدوث الخطر المنتظر على أرض الواقع، وبالرغم من قلة منفعته.. إلا أن أرباب العائلات سيصتفون خلفه تيمنا بقوته التي لم تظهر بعد، وربما لن تظهر أبدا.. بين الفينة والفينة شعور التوهم يبُث الطمأنينة بنفس الطرف الأضعف، فيوم الحساب قد قرب.. يوم القيامة له علامات مُسبقة، والآن ما يُصار من جلبةٍ يُشبه

تنبؤات علماء الدين المُفزعة لما يمكن أن يحدث.. تكالبت خطواتهم لتفادي التصادم مع من قرروا البقاء، والشوارع تكدست بأعداد الأهالي وراحت تتضارب همهمات دعواتهم المُنجية إن تم قُبولها في السماء.

الفصل الرابع

بكير جمع زملائه واحتشدوا معا خلف أسوار الشاطىء الضعيفة بجزيرة فاروس التي ذاع صيتها عبر الزمان منتظرين وصول الحجاج ورجاله أو بلفظٍ أدق، منتظرين لحظة الاشتباك حتى إن لم يصل أي من القادة.. لم يواجهوا ذاك البلاء وحدهم، فقد كان بجانبهم البائعين والسريحة والصيادين وكثير من أهل العلم وبعض العربان القادمين من الصحراء.. في المُجمل كان بجانبهم أهل المدينة العُزل، أسلحتهم تُعتبر خردوات نسبة إلى كم المعدات التي تدفقت بها هذه الحملة الحربية المفاجِئة.. دقائق معدودة مرت حتى وفد جنغار رفقة فرسانه، تحمس الجميع ثقة في مهابة حضور سيدهم الآن.. صيغة تشويقية تُحاكي تلك الغزوات النبوية التي حاول المؤمنون خلالها التصدي لتعديات كل كافر لم يعترف برحمة النفس، ولو وُضع السيف فوق عُنُقه.. التصرف أشبه بالدفعة التي ستُجرئ قلوبهم أمام أنياب الكلاب الخائنة، التف الجميع حوله وهم على كامل الاستعداد للانصات لكلماته عسى أن يمنحهم بعض النصائح المُحنكة لتفادي الإصابات المتعددة جراء المنازلة المتوحشة التي سيواجهونها بعد لحظات.

- أعلم أنها ستكون ليلة مزعجة على مدينتنا، ولكنها ستكون أيضا مُسلية.. لا تدعوا الرهبة تتخلل بين صدوركم، نحن الأقوى أيها الرجال.. وهذه المدينة هي بيتنا، فمن يأتي إلينا كضيفٍ أنعمنا عليه من خير هذا البيت.. وإذا جاء كسارقٍ خسيس، نزعنا من قلبه العزة إن كان يملكها.. ولو أني أعرف أن كل من على متن هذا الأسطول المُقترب لشاطئنا، لا يتفهمون المعنى الحرفي لقيمة الشرف إطلاقا.. فأنا آمركم الآن بالوقوف أمام الأسوار وليس خلفها، لن ننتظرهم حتى يتعدوا حصننا المنيع.. لن ندعهم يلمسوا تربة أرضنا الطاهرة، سنواجههم جميعا حتى يصل الجيش الداعم من القاهرة.. هيا، الكل يتجه نحو موقعه دون تردد

إنها عبارات تفاعلية ألقاها جنغار بكل ثقة على آذان الرجال والفرسان الذين تأهبوا لردع هذه الفاجعة، فالأمر يتطلب الصمود لأطول فترة ممكنة من خلال التمركز المناسب للمحاربين وإلا ستنقلب الحماسة الكاذبة للعنة.. وهذا حقا ما سيحدث، فالأسلحة التي حملوها كانت واهنة مقارنة بحجم التجهيزات التي اتكأ عليها عساكر العدو المُقترب.. ولذلك ركض الحجاج نحو الجمع حتى يمنعهم من التصرف كما أبلغهم جنغار، وحده من كان يتوقع جديا ما سيحدث.

فصار القائد حجاج ينبح في وجوههم جميعا:

– لا تقفوا بمقابلة الأسوار، أنتم ماثلون أمامهم بلا حماية.. ولا يوجد معكم ما تستطيعون أن تستخدمونه كي تتصدوا لقذائفهم

وهكذا اقترب بكير في غضب من جنغار رغم محاولة عساكر الأخير لإبعاده:

– ما تفعله هذا هراء، لو تصادفت الكارثة وسقطت الأبدان.. ولم يجد الجنود قائدهم كي يُعطي لهم الأوامر بعدما يُخطط، ستنهار مقاومة المدينة برمتها

فدفع جنغار بكير بكفه ليرد باستياء:

– لا تغفل عن كوني نائب الحاكم، لا أحد يعطي الأمر هنا غيري

رفع الحجاج سيفه دون خوف:

– أنا قائد الفرسان ولي من الخبرة الحربية ما يكفي لإعطاء الأوامر السديدة، افعلوا ما تيقن عقلي منه.. لا أحد يعرف خطورة وضعنا الطارىء مثلي

التفت له جنغار:

– وأنا فقط من يستطيع أن يُرشد فرسان وأهل هذه المدينة

اقترب بكير من حاكم مدينته مجددا وقال متربصا:

– أنت مازلت شابا صغيرا، لا يعرف كيف يتلاعب بسيفه

– أنت بقولك هذا تُهينني، توقف عن الثرثرة وإلا سببتُك

– وإن ظللت تأمر الخلق بتنفيذ فرماناتك المختلة سأضربك على وجهك

تمالك جنغار خلل ثباته ثم نظر لأحد رجاله في سخط:

– اقبضوا على الحجاج القائد وصبيه، لم يعد لدينا متسع للاستماع لحماقتهم.. هيا، نفذوا

وفجأة، صاح فردٌ منهم بحماسةٍ:

– كتفوهما من الأذرعة والساقين

ثم أكمل رجل آخر:

– ابعدوهما عن هذا الموقع الآن، سيُشتتوننا بعباراتهم

تبعهما عسكري يقف بمقدمة الجمع:

– فلنتحرك سريعا كي نرسلهما نحو السجن قبل أن تبدأ عملية دفاعنا

في تلك اللحظات، حاول الحجاج أن يدفع البقية عن جسده محاولا الإفلات من قبضتهم اللعينة ولكنه فشل.. أما بكير فانهارت عزيمته، لم يعد بإمكانه مقاومة الأيدي المكبوتة فوق صدره والتي دفعته للبكاء كصبيٍ صغير نهره والده بسبب صوته المُزعج.. قيد الرجال بكير والحجاج ببعض الأحبال المتينة، وأهانوهما بالسُباب حتى أوصلاهما إلى إحدى السجون التي يُلقون فيها اللصوص السفهاء.. فالغريب بهذا الوضع أن الحراس قد أطلقوا سراح بعض من السارقين والمذنبين كي يخرجوا لمساعدة الأهالي في المواجهة المحسومة، وحبسوا الشجاعين وهم في أَمَسِّ الحاجة إليهما.

وقبل أن يُغلق أحد الحراس الزنزانة، نظر للحجاج وقال باكيا:

– لم يكن باستطاعتي مساعدتك يا سيدي، رجائي الذاتي إليك وقت خروجك.. أن تسامحني

ثم تركه وأغلق الباب الحديدي بإحكام، فصرخ بكير في صخبٍ مُربك لحدٍ جعل الحارس يتوقف للحظات بعدما شعر أن تلك الأبواب الحديدية تتأرجح نتيجة لقوة النباح النابع من فؤادٍ لم يعد بإمكانه تحمل ما حدث أو ما سيحدث.. أما رغبة حجاج المُقننة كانت في تحطيم االحائط الذي ارتمى بظهره عليه كي يستند، وإن فشلت جائحته سيأكل القوام الحديدي المانع لخروجهم بأسنانه.. قُطعت أيديهما وأرجلهما ولم يعد يستطيع أي منهما الزحف للهروب من ذلك المأزق، فهكذا استسلما لحكمةٍ إلهيةٍ لا مُعرقل لإتمامها.

الفصل الخامس

صار الأهالي يُلقون بالأحجار على المراكب كلما اقتربت، والفرسان تجهزوا حول النائب أمام الأسوار حتى يبدأ موعد الالتحام.. هتافات متوعدة لهؤلاء الحمقى القادمون، ولكن ما قد ظهر أوضح أن الحمقى هم أصحاب المدينة رفقة فرسانهم ونائبهم.. هجوم هذا الأسطول الحربي يشبه الأمواج الجبلية وقتما يشتد غضب البحر، فيضان من الغدر والعنف لم يستطع الشجعان تحمله.. جنود **(بطرس الأول لوزينيان)** وصلوا للبر دون أي إعاقة تمنعهم من النزول، راحوا يذبحون الرؤوس ويغرزون سيوفهم بين أحشاء المرء قبل أن يهم بالتقدم نحوهم.. بطرس الأكبر، حاكم قبرص الطموح.. لكن اللقب الأنسب إليه، هو الحاكم الدنس الذي أراد أن يحفر كيان دولة القبارصة بين مزبلة التاريخ.

استغلال مدروس وتدابير مُحكمة جعلته يعرف قدر جزيرته وما حولها، لذا التفت لهذه المدينة الساحلية كي يُعرقل حركة التجارة المستدامة فيها بالرغم من وجود عدة عائلات أوروبية تسكن بالعروس لكي تتابع تتطورات أعمالها كلما ازداد الربح قبل أن تصل إليهم بعض المعلومات السرية والتي على إثرها عادوا لبلدانهم من جديد قبل هذا الغزو.. ذاك البطرس لم يكترث إلا بهدفين أساسيين، وهما الانتهاك والسرقة.. وإن أمكن البقاء لشهورٍ لو كانت الفرصة سانحة، فلا مانع من تحقيق حلم الاستيطان ما دامت المقاومة أشبه بمحاربة القطة لنمرٍ جائع لم يتشبع بالطعام لعدة أيام.

صياح دفين وصل لسُحب السماء:

{..لعنتك يا ستار، لعنتك عليهم يا غفار..}

{..اثبتوا وقاتلوا، اثبتوا ولا تهربوا..}

{..لا تُخرِجوا النساء من بيوتهن..}

{..أسرعوا واحتموا من سيوفهم..}

حاول الرجال المتمدنين الدفاع عن شوارعهم الطاهرة حاملين في أيديهم الخناجر الصغيرة وبقايا الصخور العملاقة كي يقذفوا بها الجنود فور اقترابهم، قليل منهم فقط من كانوا يحملون السيوف.. فرد أو فردان بالأحرى بكل شارع، وحتى إن كان ذلك الشخص بارع في استخدامه.. فلم يكن بإستطاعته التصدي لهذا الكم من الهمج الذين اجتاحوا المدينة، جميعهم كانوا يتقدمون بعشوائية تامة وفي عُصَب غير منظمة.. هناك بعض الحواري أصحابها كانوا يضعون على جوانب طرقها المؤدية للمنشآت الرئيسية، الباشورة.. وهي ساتر

من التراب يحتمي خلفه الرجال وهم يُصوبون الأحجار والخناجر نحو الرؤوس، فقد أقاموا العديد منها بمختلف الأحياء.. ولكن كل تلك المحاولات باتت بالفشل، فرسان لوزينيان حملوا معهم الدروع الحديدية الثقيلة.

هم على دراية بأن عملية السطو يجب أن تتم في أسرع وقت حتى يتجنبوا مواجهة جيش هذا الوطن الذي انتُهكت فيه عذرية عروسته، فاخترقوا تلك السواتر الرملية وقتلوا المتربصين خلفها بل وكانوا يمرون فوق جثثهم حتى يستطيعون الدخول للمنازل الركيزة وسلب ما احتوت عليه من نِعم.. وإن اعترضت إحدى المحتشمات خطوات الجنود لتمنعهم عن نهب بيتها المتواضع، وضعوا الجانب الحاد من السيف بين وصلات أمعائها المخاطية كي يتخلصوا من إزعاج صراخها.. لا ظهور اليوم لمبادىء الدين الحامية للضعيف الذي يصعُب عليه مواجهة الوحشية، ولهذا السبب لا الشيوخ ولا المسنين تمكنوا من تفادي الطعنات المتتابعة التي حبست أنفاسهم حتى الموت.

الدماء تناثرت من الرقاب والأذرع انفصلت عن أجسادها، الكل كان يصرخ هربا من الغل الذي ملىء صدور الفرسان الناهبين.. غابت الرحمة تماما، فازداد زحفهم بداخل طرقات المدينة وأزقتها.. بغض بربري ألهمهم بقتل أُناسًا ماتوا أنقياء كما ولدتهم أمهاتهم، مجزرة تابعها الأبرياء خلف نوافذ بيوتهم لتتفادى أجسادهم نغزات الرماح والسيوف.. عيناي بطرس كانت ترى أهل الإسكندرية كحيوانات هشة تسكن هذا المكان الغني بكنوز لم تحتكم أرض بلاده عليها يوما، أوامره كانت تُنفذ على الفور ولا جدال في مضمونها.. ذُبح من اصطدم بقسوة نفوسهم وقتما كان يحاول منعهم عن اغتصاب النساء وتجريدهن من الزي المحتشم الذي ظل يستر عوراتهن منذ ولادتهن، هم لم يعتقوا عفة السيدات، فلكمات اليد المميتة وركلات القدم السريعة أفقدت الشابات والمسنات القدرة على الركض بعيدا عن مواقع ملاجئهن.. الهوادة لم يعُد لها موضع في هذه الساعة على وجه أرض **المنتقم** بأكملها، انتحرت العديد من الفتيات حتى لا تسمحن للكلاب المسعورة بلمسهن.. فالسكين الذي كان يُستعمل لقطع فاكهتهم الطازجة أصبح وسيلتهم الوحيدة للنجاة من نجاسة أيدي عساكر الجزيرة، ظل المعتدون بداخل المدينة لأكثر من يومٍ يتمادون بأريحيةٍ كاملة في ممارسة ما لم يتوقعه ذهن أو يتحمله قلب، فعلوا ذلك بعدما تأكدوا بأن جيش سلطان مصر لن يصل إليهم من العاصمة بسرعةٍ هائلةٍ كما كانوا يظنون.

الفصل السادس

أما عن العائلة، فقد ابتعدت بضعة أميال عن المدينة حتى شعر الأخوان أن الخطر لن يصيبهم أبدا.. عائشة زوجة رابح تحمل غطاءا به ملابسها وآمنة تحمل إناءً به الطعام الذي سينفد بعد أيامٍ قليلة وصندوقا صغيرا به قطع من الفضة والنقود التي اكتنزها والدها من قبل، أما زوجة حارث تحمل في يدها مصحفا صغيرا وقلة من المياه تعطيها لزوجها كلما شعر بالإرهاق لكونها تستند عليه نظرا لثقل وزنها بسبب الحَمل المُجهِد.. تعدوا بوابات المدينة وراحوا يسيرون فوق رمال الصحراء تائهين بين الصخور محاولين تفادي الحفر العميقة، فقد اعتبروا تحركهم هذا مجرد هجرة اضطرارية كما فعل محمد النبي الكريم وصحابته.. كثير من العائلات تصرفوا مثلهم، هجروا جميعا المدينة في جماعات متفرقة.. لم يكن أمامهم خيار يمنحهم الفرصة للتفكير، وللأسف لم يعرفوا بعد إن كان هذا الخيار صحيح أم مصيبة سطرها القدر لهم.

– حارث، دعني أستريح لوهلة

فتوقف حارث في التو لكي يحمل ضحى بيديه قائلا ببشاشة ليخفف عليها حالة الإعياء هذه:

– تشبثي بعنقي يا نفيسة الدهر، قرُبنا على الوصول

أصابتها نوبة من السعال:

– نحن لم نقترب بعد، لا تُرهق بدنك.. ما زال أمامنا الكثير كي نتخطي تلك المسافة الكبيرة، أرجوك.. لنبقى هنا قليلا

فأسرعت نحوها آمنة:

– دعيني آخذ ما في يديكِ من أمتعة

لحظات ووضع رابح كفه على كتف عائشة لينصحها هو الآخر:

– اجلسي يا عائشة، الطريق طويل لحدٍ غير معلوم.. علينا أن نوفر جهدنا

التفتت إليه ثم ابتسمت في هدوءٍ:

– أعرف أن الأمر ليس بهينٍ، لكن علينا المُضي قدما عسانا نجد من يُعطي لنا يد العون

كلمات يتفوهون بها حتى لا يملوا، فإن فقدوا عزيمتهم ضاع المخرج الأوحد والمتاح لهروبهم.. ليبقى الخوف هو العامل المقصور الذي يدفعهم لاستكمال هذه الرحلة المخيفة، ربما يتفادوا العواقب الشرسة والمنتظرة.. آمنة حاولت أن تساعد والدتها على الوقوف، وأمامهما رابح يسير حاملا بذراعيه بقية حاجياتهم.. فقد استهلكوا جزءا كبيرا من المياه، والطعام ذبل ما تبقى منه.. أما حارث ضعف جسده بعدما استغل ساعديه كي يرفع ضحى لعدة كيلومترات بين طرقات الصحراء، الشمس تحرق جسده رغم أنها قرُبت على الغروب والجوع يُنقص من وزن حبيبته التي قرُبت على فقدان جنينها.. جميعهم تيقنوا أن الفرار يُنجي أحيانا، ويصبح هو الحل الذي يتفاداه الشجاع قبل موته وموت عائلته كما حدث مع الكثيرين من أهل العروس.

لكن المعوقات لم تكن في حسبان الصياد ولا في حسبان أخيه الشيخ، المرء عادةً يتوقع حصةً ضئيلةً من الخطر وليس المصيبة بأكملها.. فخلال سيرهم المتباطىء هذا، هاجمهم بعض قاطعي الطرق المُقيمين بداخل أكواخ الجبال وبين المضائق الخفية.. ظهر الكسابة في البر والبحر، لم يكونوا أفراد ولا مجموعة.. بل كان عددهم يُقدر بالعشرات، فالكسابة لفظ يُطلق على السارقين.. لقب يُلقى على وجه من يسطو فوق عاتق السيد وزوجته أو الفتاة وأبيها، لا يعبىء صاحبه بوضع من يمر بجانبه حتى لو كان يرجو مساعدته متوسلا.. كل ما فقط يُداعب ذهنه، ذاك الرزق المادي الذي يحتفظ به أغلب المساكين بصحبة عائلاتهم.

انقض ثلاثة رجال نحو حارث وزوجته ثم دفعوهما، والتف اثنان آخران حول رابح وعائشة وابنته.. حاول الصياد أن يُقاوم اندفاعهم ولكن مع الأسف ضربات الثلاثة حرافيش كانت قوية ومؤذية، فهطل نذيف الدماء من فمه ولم يعد حارث يستطيع حماية جسد ضحى التي راحت تصرخ من فرط الألم الذي أصابها جراء سقوطها فوق الصخور.. وفي الجانب المقابل، لم يجد الشيخ بحوزته ما يستطيع أن يدافع به عن نفسه من عصا أو حتى سكين صغير.. فأمسك بحذائه حتى يضرب قاطعي الطريق اللذان حاصراه، ولكن أطولهما اندفع نحوه وضربه بحجرة مسننة على رأسه عدة مرات حتى فقد رابح وعيه.. فارتمت على جسده عائشة لكي تسد موضع جرحه وهي تبكي، وهنا حاول الجاني الثاني منعها عن حمايته حتى لا يستعيد زوجها مقدرته على المجابهة.

لحظات ثم تحرك الثالث نحو آمنة كي يتلذذ بجسدها وقت انشغال البقية في شجارهم، فركضت البِكر مسرعة لبضعة أمتار قبل أن يُعيقها ذلك القرد المقمل نازعا ردائها عن جسدها الشريف.. الدقائق تمر وهي تحاول إبعاد جثمانه بكل ما استطاعت من قوة، مذق عباءتها الزرقاء التي ارتدتها من أجل خطيبها المُعتقل.. ولكنها

لم تيأس بعد، وكأنها غزالة تفلت من أنياب الأسد المُنقض ليلتهمها أثناء سيرها بين أفراد سربها.. الأخير فقد القدرة على تحجيم مقاومتها فأمسك بصخرةٍ صغيرة مُلقاة بجانبه ليضعها فوق جبهتها حتى تكُف عن الصراخ، وراح يمزق بقية ألياف قماشتها.. ثوانٍ قليلة مرت ولاحظ توقف مفاجيء لجسدها عن التحرك، الآلام النابعة من عضلاتها قد أنهكت حيويتها خاصةً بعدما أصدرت أنينها للمرة الأخيرة.. وحينها، أيقن بقية رفقاء المُغتصب أنها فقدت القدرة على التنفس ولم يعد يتبقى من الوقت ما يمكن أن تستمتع خلاله بأيام شبابها مجددا.

(٨٢٧هـ - ١٤٢٤م)

(المباغتة والانتقام)

الفصل السابع

الوشاح المصنوع يدويا من خامة القطن يعطي لصاحبه هيبة جلية حتى لو كانت بقية ملابسه مُلطخة بتراب الفقر، ففي وسط الزحام وأمام الرؤوس المتعددة التي ملأَت الساحات.. ركض شاب خلف كلبته التي اخطتفت قطعة القماش -الوشاح- خاصته من بيتهما نظرا لأنها تسكن معه أحيانا ولا تفارقه، فأسرعت هاربة بين أرجل العامة بداخل أحد أهم شوارع العاصمة.. حي باب زويلة، أو كما كان يُلقب بباب القاهرة القديمة.. ذلك الموقع الذي سكن فيه عامة الأناس باختلاف مهنهم وأصولهم، زركشة الأحرف المُحكمة تُزين الجدران.. ورقصات القرود التابعة لمروجي بيع الحيوانات الأليفة تُمتع الناظرين، أما عن **(جاسم)**.. فنقاط العرق راحت تتصبب من جمجمته العريضة لتُبلل قميصه باهت الصفار وبنطاله القرطبي، اعتاد أن يقُص شاربه باستمرارٍ كي لا تنبت حبيبات الوجه الخضراء حتى ظن من حوله أنه أَمْلَس.. متوسط الطول، كتفيه عريضين.. وذاك ما اضطره للاصطدام بكل من يمر بجانبه، لكنه لم ييأس.. وظل يتبعها حتى أحكم قبضته على هذه الكلبة السارقة عند بائع البهارات الماثل بنهاية الطريق، ربما تشتت أنفها الصغير برائحة مستخلصات المزروعات النفاذة.

اقترب مالك المتجر من جاسم ثم قال له مداعبا:

– دع الأليفة تتلحس قطع كبش القرنفل حتى تدفع أنت ثمنها

ضحك الشاب والتفت إليه مشاورا على بعض الحبيبات الموضوعة بداخل صندوق خشبي:

– ثمنها أغلى من الرقم المطروح من قِبل منافسيك، كذلك سيتجه الخلق للشراء من تاجرٍ منافس؟

رد البائع في سخرية:

– يشهد **الحفيظ** أنني أبيع بثمنٍ أقل بكثير من جميع منافسيني

فقال الآخر بثقة:

– يوما ما، سأشتري عشرين صندوقا كي أوزع ما بداخلهم على الفقراء فقط

أردف الرجل مداعبا:

– ولمَ لا تشتري قصرا أيضا؟ يمكنني أن أعطيك كيسا من النقود، ولا تردهم إليَّ مستقبلا

أجابه جاسم وهو يبتسم:

– اقتراح رائع!!! سأفعل ذلك حتما، ربما موقع ذلك القصر سيكون بجانب بيت الحاكم

ثم تحرك الشاب بعيدا واضعا الكلبة تحت إبطه كي لا تفر منه مرة ثانية، لحظات ثم توجه تاجر عجوز نحو البائع بعدما تابع الحديث المنقضي متساءلا:

– ماذا كان يعني ببيت الحاكم؟!

ضحك الأول بعد أن شاور جهة الطريق:

– يقصد قصر السلطان

رفع العجوز رأسه في تعجب وقال:

– وما علاقة تاجر كارم مثلك يا جعفر بشابٍ يافع كهذا؟

– هو من حافظ على بضاعتي إبان فترة الزوبعة بين المتشاجرين هنا بالسوق قبل أن ينهبها لصوص الساحات

– أعانك القدر بحضوره، صدفة امتثاله بجانب أغراضِك أنقذتك.. ولكن لا تظن أنك ستجد من يُعينك كلما تُعاد محاولة سرقتك

ضحك **(جعفر):**

– يبدو أنك تعاني من عمليات النهب هذه يا عمار وتخسر الكثير في غيابِك

فأمسك **(عمار)** بما في داخل الصندوق من أعشاب وتشممها، ليقول شاردا:

– لهذا أنصحك الآن ودوما، دعه يحرسها وأعطيه أجرا مناسبا كما أفعل أنا مع الصبية المخصصين لحمل بضاعتي.. فقد لاحظت منذ بضعة أيام أن عدد اللصوص قد ازداد على طول الأحياء

– لن تتضائل أعدادهم، إنهم يوَرثون حرفة السرقة لأبنائهم

– أحيانا أُعطي لهم العذر لأن سبيل الكد الشريف أصبح شاقا الآن عليهم

استطرد الصديق:

– وعلينا أيضا، هناك تقلبات تجارية ستطرأ علينا لاحقا بسبب ما يحدث بين أرباب الكار الجدد والقُدامى.. فلا تتعاطف مع تصرفاتهم مهما حدث

مصطلحات شائعة بين أفراد المجتمع الذي تأثر كثيرا بتلك السلعة، كارم والتوابل.. كلاهما لم يختلفا في المعنى، كُببًا مرصوصة بعناية تتحكم في اهتمام المئات من التجار وتُرغم بعضهم بقناعة تجاهل حرفتهم في بيع وتصدير القمح كما كان يحدث في السنوات السابقة.. فمختلف الأطنان من البهارات المتباينة تأتي سنويا من بلاد الهند والصين نحو الموانىء التجارية في الشام ومصر، فيسعى تجار الفرنج على الفور لحجز مقاعدهم في الأسواق حتى يتمكنوا من شراء حاجاتهم من البضائع للعودة بها مرة أخرى نحو أرضهم.. أثناء تلك العملية يتم دفع رسوم الجمارك للدولة السلطانية، زيادة على الأسعار المتقلبة للأحمال التي يدفعونها لتجار أهل المدينة الساكنين بها.. كي يجدر بهم أخذ الكمية الكافية لحاجتهم في الربح وتسويق العُملة على طول الدول الأوروبية الخاضعة لظروف الحدود المملوكية، نظرا لمواقعها المسيطرة على حركة التجارة الخارجية بين البلدان في عدة أنحاء بالعالم المتأثر بالنقود والحاجيات المتداولة.

لذا كان هذا النوع من التجارة مربح لأصحابه لدرجة هائلة، حتى أطلقوا على من اعتنقوا تلك المهنة من أناس بالكارمية.. حيث أن ثرواتهم كانت طائلة للغاية وكبار رجال الدولة سواء في مصر أو حتى بالشام والحجاز كانوا يلجأون إليهم لأخذ آلاف الدنانير منهم حتى يتمكنوا من سد مديونية حوائجهم أثناء الأزمات الاقتصادية العابرة، هؤلاء التجار كانوا يذهبون للهند بأنفسهم حتى يجلبوا تلك البضائع والتي كان يصل عددها أحيانا لآلاف من الأحمال باهظة الثمن.. صاروا يجنوا الأموال بكثرةٍ حتى فُرض عليهم المشاركة في أعمال البناء العمراني للدولة وأيضا المساعدة في تلك الشؤون الخاصة بالزكاة لأجل الفقراء، وقد نفذوا بنفسٍ راضية دون اعتراض.. والسلاطين خلال دولة المماليك كانوا يُشرفون بأنفسهم على قضايا هذه الفئة عن طريق دار - وزارة- العدل بحضور ناظرها وقضاة المذاهب الأربعة، وهذا لثقل موضعهم وتأثيرهم التجاري على طول البلاد المختلفة إما في أفريقيا أو أسيا أو أوروبا.

الفصل الثامن

بيت الشاب صغير، الجيران اعتداوا على حفاوة استقبال والدته إليهم.. المنزل لا يخلو من الزائرين، علاقة طيبة تربطها بالجميع وكأن الود الصادق بينهم يعوضهما عن غياب بقية أفراد العائلة.. اقترب من الباب الخشبي، وقبل أن يدفعه بمعصمه كي يتسلل في هدوءٍ دون إحداث بلبلة.. فاجئته أمه بانتظارها لكي تستقبله بنفسها، وقد كانت مترصدة له بعد أن فتحت الباب على مصراعيه.. أشارت إليه بالدخول هو والكلبة دون أن تتحدث، فلمح الابن ارتفاع حاجبيها الثقيلين.. لونهما أسود مُزينان وجهها القشدي المليح رغم قصر طولها، جلس على سريره منتظرا كلماتها التعنيفية بعد أن ترك النابحة لتتبعها.. ولكنها أحضرت إليه صينية كبيرة فوقها قطعة من الفطير المخبوز وتفاحة طازجة، ثم وضعتها أمامه.. وريثما استقرت بجانبه، راحت قبل أن يُمسك بالطعام تنظف بعنف جرح ذراعه الذي لم ينتبه إليه إثر تخبطه بالحطب المُلقى على جانبي الطريق.

– حاول أن تحافظ على صحة بقايا أعضاء جسدك، وكُف عن ذلك التهور

قالتها باستياء جلي، فرد عليها ولدها مبتسما:

– أنا لم أرتكب أي جناية شائنة بعد، ثم إنني في أَمَسِّ الحاجة لما أكتسبه بين كَفّي خلال هذه الأيام

فضربته على يده وانتفضت على نحوٍ مفاجئ:

– عملك أهم بكثيرٍ مما تفعله الآن، لا تهدر الوقت كما اعتدت دوما.. كل هذا لن يُعينك على تحقيق ما ترغب فيه

– أي عمل ذاك الذي تتحدثين عنه يا أمي؟!

التفتت إليه العجوز في غضب:

– التجارة، تجارة الأقمشة وحرفة تصنيع الأواني الفخارية التي ساعدتك منذ صغرِك على تعلم فنونها

فرد جاسم وهو يتنهد:

- وأنا أُقدر مجهوداتِك يا أمي، ولكن أرجوكِ دعيني أحاول وأسعى إلى أن أجد الطريقة الأمثل لكسب المال

فابتعدت عنه لتجلس على الأريكة:

- أود أن أراك تاجرا مرموقا، وليس حارسا للآخرين
- أجر حراسة أمتعة الخلق أعلى بكثير من أجر أي مهنة تخطر على ذهنكِ، وتمكنت بالفعل من ادخار بعض مما أتحصل عليه
- أتظن أن بدنك هذا سيتحمل لطمات الأوباش التي سيوجهونها إليك وقتما يرونك وهم يضحكون؟

ضحك واستفحل مستعرضا قوة جسده:

- جميعهم يخافون من قوة إطار بنيتي، يبدو أنكِ لم تطلعي على ما فعلت بالأسبوع الماضي عندما حاول أحد السارقين أخذ جزء من بضاعة صاحب متجر الطيور الذي كان يسكن بجانبنا قديما

لتتهكم على عجرفته فجأة:

- وكم لكمة استقبلتها على وجهك إذا يا ولدي؟!
- يزداد عنادي الموجه إليكِ بسبب سخريتكِ المتواترة هذه
- ولن تتمكن من منعي عن استكمالها يا ابن علي

ابتسم لثوانٍ ثم اقترب منها:

- يا عزيزتي، يا بركة حياتي.. أنا أود أن أعيش حرا

وجهت إليه **(بركة)** نظرها متربصة:

- ماذا تعني بهذه الكلمات؟!
- أنني لن أتزوج الآن كما تُخططين لي

فصرخت الأم:

– إن لم تتزوج تلك الفتاة التي سأختارها لك، سأدعو **المولى** أن يسخطك فرخة يتعظ منها الأبناء

أكمل جاسم ضاحكا:

– حسنا، وأنا على كامل الاستعداد لتحمل ما قد يحدث إليَّ بعد ما قد ذكرتيه الآن

علاقة يحفظها **الجبار** برحمته، فهي عائلة تتكون من فردين.. لو حدث أي مكروه لأحدهما سيموت الآخر حسرة على ونيسه في الحياة، توفي زوجها وهو يلفظ رموز اسمها المبشر بالفردوس.. طالما ذكر هذا المصطلح وقتما كان يُحدثها، بركة عمري.. خرجت صادقة من فمه دون تكلف، وهي ما زالت تشعر بصدى الكلمات يتلاعب خلف أذنيها وقت غفلتها على سريرها المُغطى بعبائته التي وضعها أصدقاؤه على جسده فور موته.. فمنذ صغره احتمى جاسم بحنانها حتى شب واستلقط الهمة والحماس من روح أبيه الذي عاشره لبضع سنوات قليلة، ولكنها كانت كافية لخلق غيرة النجاح المُلتهبة بقلبه.

الفصل التاسع

تتلاشى الروح من جسدها، ولا حيلة للرجل الأقوى في بلدتها كي يُنقذها بعون العشرات من أطبائه.. مهما كان البدن صلبا، تبقى النفس ضعيفة أثناء تلك اللحظات التي خجلت الشجاعة أمامها ولم تتمكن من مواجهتها.. **(فاطمة بنت قجا)،** السيدة الأولى بمصر وبلاد الشام تحتضر.. تصارع الموت من أجل البقاء مع ابنها الرضيع وليس من أجل التمتع بنعيم السلطة الدنيوي، زوجها يقف بجانبها عاجزا عن منع عزرائيل من التقرب إليها.. يود لو يراه لبرهةٍ حتى يتحدث معه، سيترجاه كي يترك رفيقته الشريفة حية على فراشها.. فالمرء ما هو إلا وديعة **القدوس** في أرضه، وما هو أيضا إلا سيرة تتداول على الألسنة.

ابتسمت في خفوت والآلام تتزايد:

- أعتذر لك لأنني سأتركك وحدك، تتلاشى ساعات عمري المتبقية الآن من يداي.. فأنا لم أعد أتحمل بعد

قبل كفيها السلطان ودموعه تنهمر على أصابعها:

- أقسم **بربي الرحيم** أنني عشقت نفسكِ قبل نفسي يا فاطمة، ولكن لا حق لي في الاعتراض على قضائه المُطرد

- توقف عن البكاء حتى لا يلاحظ أي من رجالك موقفك هذا

- لو كان المرض محاربا لذبحته ودفنته تحت قدميكِ

تنهدت واعتدلت فوق وسادتها:

- لا تدع ولدنا بعيدا عن روحِك، لو التف حوله خبثاء حاشيتك.. سيحفرون له قبره وقتما يهم باكتشاف عالمنا الغادر

لاطف بأطراف ذراعه ساقها اليسرى ثم قال:

- سيكون مثلي تماما، بل أفضل.. فخامة المُلك ستُصبح مناسبة لهيئته عندما يصير شابا وأنا أُسانده

- علمه أصول الحق التي يفتقر تعاليمها الكثيرون، علمه ألا يظلم فقيرا ولا يهين ضعيفا حتى يحبه أهل البلدة

- تمسكي بأمل العيش مجددا، ربما تفعلين ذلك بنفسِك خلال الأيام القادمة

تصيبها على حين غرة نوبة من السعال، لتتفوه خلالها:

- ربما أفعل ذلك بقلبي وأنا أسكن في قبري، قبّلهُ يا برسباي.. قبّلهُ كلما رأيته، وأخبره أنني عشقته رغم هذه المدة القصيرة التي قضيناها سويا

لم يمض على إنجابها لابنهما محمد -ولي العهد- بضعة أشهر، فمنذ ولادته اشتدت تقلصات معدتها لأسابيع حتى بدأ نزيف الدماء ينحدر من فمها.. الأعشاب الطبيعية لم تُجدي نفعا في البداية، واستعان الحكماء ببعض المواد الكميائية العتيقة المُستخدمة في هذه المواقف الحرجة كما كان يفعل العلماء سابقا.. ولكن الأمر قد قُضي، خُفضت رموشها وانحدرت يداها منهمرة على طبقة المضجع.. سقطة أحدثت صوتا أصاب العلة في صدر حاملها، وجاء موعد دفنها وسط صيحات البكاء الكاذبة من أتباع السلطان كمجاملة له وقت حزنه.. أخفى همسات بكائه بداخل صدره وهو يسير بأول الصفوف بجانب الشيوخ والقضاة والنُظار، ليودع رحيق سيدة حفظت قلبه وعوضته عن سئم الدنيا وما فيها.

الفصل العاشر

مجلس العلم تباركه الملائكة وهي تستمع مع المتلقين وهم يطلعون على بعض المؤلفات التي ظن الكثيرون أنها اندثرت خلف الزمان، ففي هذا الموقع يتعظم التقاء أهل العلم التاريخي لذلك صار علامة مميزة بمدينة الخانكة.. هناك قد بُني مسجدا باهرا بعناية فائقة بدليل أن لمحات الطراز الإسلامي زُخرفت مسحات فنونه على حوائط المبنى المعماري بأكمله، فقد أُنشئ مربع الشكل.. يتألف من صحنٍ واسع يحيط به أربعة إيوانات – أكبرها إيوان القبلة- تظهر وكأنها التواءات بأكثر من جدار محفور عليه بالخط الكوفي المضفر عبارات من القرآن، إنه مسجد السلطان الظاهر برقوق.. فهناك يجلس دوما الميقات، وهذا لقب يُطلق على الشيخ ليكون شرفا له أن ينال هذا المسمى.. فذلك يعني أنه معلم عجوز تعمق في أدق المفاهيم الدينية والتاريخية، ودوره المهني له ثقل تفقه لأهميته منذ شبابه.. إنه تابع لديوان المحبوسة، أي وزارة الأوقاف.. وقد انقسمت إلى أكثر من شق، منها الحكيمة والأهلية.. فالأولى، المسؤول عنها هو قاضي قضاة الشافعية ويُفرض عليه دوما الاهتمام بشئون الحرمين –بيت **الله** العتيق والمسجد النبوي– وأيضا فداء -إطلاق سراح- أسرى المسلمين مِمَن تم القبض عليهم خلال الحروب بمقابل مادي أو بمقابل عدد مماثل من الأسرى.. والثانية، المسؤول عنها يتم اختياره من قِبل السلطان.. أما الشق الثالث يكون ناظره مسؤولا عن المساجد والزوايا، فطالما كان يُنفق من ريعها على هذه المؤسسات المقدسة والفائض يتم توزيعه كصدقات وعطايا على المحتاجين.

جلس **(الريان)** –ميقات المسجد- في الجانب الأخير من البنيان الروحاني متمعنا في جمال خلق **المبدع** من عقولٍ تكسوها عروق يسير في مجراها سيل من الدماء، فدوما يحب أن يتأمل وجوه طلابه دون ملاحظة أحدهم إطلاقا.. وقار اكتسى به حيثما وُضعت عمته المنقورة بالحمار كي تُغطي خطوط شعيراته الخفيفة ذات اللون الأبيض، بشوش الضحكة وحاد النظر لمتحدثيه.. دائما ساقيه متربعتنان وكأنه ساكن أرجاء الساحة الوحيد، التف حوله عدد صغير من الطلاب المُنصبين على عنقه لجلب الحكمة من ذهنه.. واسم صاحبها أيضا، بالإضافة إلى سبب بزوغها بين أفواه مُلاك الحضارة ومُعاصريها.

رفع الطالب الأول صوته وقال متحمسا:

– عن من سيكون حديثنا اليوم يا شيخنا المبجل؟

التفت إليه الريان ثم رد وهو يضحك:

– سأدعكم تتفكرون فيما يدور بعقلي لبضع لحظات

سكت الجميع قليلا، ليبادر الطالب الثاني بالتوقع:

– عن طوفان نوح وتوابعه الخفية

فقال الثالث:

– ربما عن يأجوج ومأجوج

فابتسم الرابع وأكمل:

– أظن أننا سنتعرف على حضارة اليمن وملوكها الغلاظ

تبسم الريان ثم أسند ظهره للحائط وقال:

– لا، لن نتحدث عن أيٍ منهم

ليرد أولهم:

– إذا، أخبرنا فضيلتك.. هكذا سنتمادى في التخمين بلا نتيجة

تنفس الريان الصعداء ليُتمتم:

– حسنا، سنتحدث في يومنا هذا عن العروس

أظهر الجميع تعجبه، فأردف الثاني:

– أي عروس؟!

أخفى المعلم وجهه لبرهة محاولا السيطرة على حزنه، لتخرج الكلمات متقطعة من فمه:

– موقعة الإسكندرية، تلك الموقعة التي خُدع بسببها العُزل والأبرار.. فدّون كُتّاب التاريخ أحداثها بحذافيرها

تنهد الرابع وهو يتساءل:

– أكانت قاسية تلك الأحداث؟ سمعت أبي يتسامر مع أخي الأكبر عن أضرارها من قبل

جاوبه الميقات متحسرا:

– فعلها بطرس لوزينيان، ملك جزيرة قبرص الذي اعتلى عرشها منذ أكثر من ستين عام

فتساءل الثالث:

– وكيف همّ بفعل ذلك؟!

رد المعلم في سخرية:

– التف حول ملوك أوروبا مثل الكلاب حتي يُقنعهم بضرورة توجيه المساعدات الكاملة إليه ليحقق ذلك الهجوم المُخزي، أرادهم أن يرسلوا معه بعض السفن بمعداتها بجانب أعداد غفيرة من الفرسان.. كنوعٍ من الدعم الحربي المنتظر

فاستفسر الثاني:

– وهل حقا نفذوا رغبته؟

ليُكمل الكبير:

– بالطبع، هجموا بمراكبهم في إحدى الليالي على الطول الساحل الرملي.. أتذكر أعداد السفن التي استطاع العامة حصرها آنذاك، أكثر من خمسةٍ وثلاثين سفينة من مختلف الدول تجمعوا في جزيرة رودس وانطلقوا متجهين إلينا.. وعلمت رؤوس الدولة فيما بعد أن البندقية وفرنسا وجنوة، قد تواطأوا أيضا معه من أجل إتمام خطته

قال الأول مستفسرا:

– وماذا عن الخطوات الخادعة التي اتخذها ذلك البطرس لبدء هجومه؟

تبعه الريان مستخدما أصابعه في تجسيد مُجريات الحدث:

– خطوته الأولى، كانت إضعاف دور مصر التجاري والتأثير على ربح الدولة المملوكية كي يفقدوا الثقة التي توجهها معظم الدول نحوهم.. أما الثانية هي الطمأنة، أي إثبات عدم نيته في التقرب من السواحل المصرية.. فأرسل بأوامره للتجار الأوروبيين الذين يقيمون في الشام، بضرورة قطع أي صلة تجبرهم على البقاء هناك.. والعودة مرة أخرى لبلادهم، فبهذه الطريقة تيقن الولا والسلطان في مصر بأن الهجوم لن يكون موجها إليهم.. لذلك تماطلوا في تجهيز الجيش واتخاذ الحذر من تلك الأخبار الماكرة التي نشرها عمدا

استطرد الرابع وتساءل في تعجب:

– كان عليهم التنبه لسبب هجرة التجار تلك، ولكن ما كان تصرف القادة حينما تم الهجوم على الإسكندرية؟

ضحك المعلم مستهزئا:

– كان سلطان البلاد في ذلك الوقت الأشرف شعبان، ذهب إلى منتزة سرياقوس حتى يستجم بجمال موقعها

فخبط بكف يده الأرض، ليُفزع الطلاب كي يُعيد انتباههم إليه:

– أما عن القائد الأول للجيوش العسكرية في مصر، الأتابك يلبغا.. كان قد اتجه للعباسية لقضاء رحلة اصطياده المعتادة

ثم تنهد لثوانٍ:

– ولكن والي المدينة المنهوبة بأكملها، الأمير صلاح الدين خليل بن عرام.. لم يكن بداخل الدولة، لتقضيته مناسك الحج

الحسرة والخيبة توهجا من عيني الريان وهو يسرد تلك الأحداث التي تداولها الآلاف بعد هروبه من بيته وقتما كان صغيرا، العشق النفسي الذي كان يربطه بمدينته لم ينفصل بعد مرور كل تلك السنوات بالرغم من وجوده كصبيٍ يقف بكامل هيئته مع أرواح الضحايا وقت اندلاع المذابح.. قلبه لم ينسى أحبته الذين واجهوا مأساة القدر في سبيل انتصار عربيد طمع في نعيمهم، فقد خُلق عهد معنوي صادق ومحبب بينه وبين العروس التي اتسمت وما زالت تتسم بقيمة صفائها.. فلن يتجاهل قط أي من تفاصيل الإبداع الأنيق الذي اكتسب أُسُسه هناك، رقي لم يعاصره من لم يرى موج بحرها يتراقص بين الصخور.

الفصل الحادي عشر

يسير بين أجمل زهور حديقة قلعته التي تتبهرج بجمال الطبيعة حولها، من الداخل والخارج يحرصها عدد لا بأس به من الفرسان.. جانوس، انحدر من سلالة بطرس الدامية.. سحنته ناصعة البياض كزغب النعامة، وعبائته تتدلى منها قطع فضية معلقة بحرفية من أجله خصيصا تطمس خفة وزنه اللافتة إن اختلع السُترة.. إصبعه الوهن يتلاعب، فيُهرول خُدامه إليه.. ملك قبرص الأول، ومتولي العرش الصليبي بجزيرته الصغيرة.. تلك البقعة التي مر عليها عدة غُزاة، تاركين خلفهم القبوات الرومانية الواسعة.. والمفردات الهندسية المعمارية صاحبة الأصل اليوناني، زائد التماثيل الحجرية الآشورية وبقايا من الأعمدة الأخمينية المبتكرة من مصادر العمارة الفارسية.. بجانب القبة الشرقية البيزنطية المُشيدة من الخرسان، كل هذا يكتمل مظهره بوجود الهياكل المصرية القديمة المصورة بألوانٍ زاهية والمنحوتات المحفور على إطارها أحرف باللغة الهيروغليفية.. هناك سكنت أفروديت، إلهة الحب الجسدي والشهوة لليونانيين.. وقد ذكروا أنها تكونت في البحر وظهرت على شكل صدفة، ثم وُلدت بعد ذلك على ساحل مدينة بافوس بقبرص.

هنا جانوس يفكر بداخل قصره، يتفادى أحيانا السير فوق الأعشاب الخضراء الصغيرة وهو يتحرك شاردا في بذور تلك الرحلة التي سعى إليها أجداده من قبل.. رحلة النهب التي لا تدُم لأكثر من شهرٍ أو شهرين، ويعود بعد انتهائها الجنود حاملين على متن مراكبهم خيرات لا جهد في زرعها غير زهق الأرواح.. فكرة تراوده دوما وقرار يتوقف على توقيت مناسب انتظره منذ عدة سنوات، كما نفذ أحد ملوك أرضه سابقا بلا خوف.

— أين أنت بذاهب وحدك أيها الأب الكبير ؟!

التفت جانوس ضاحكا ليرد على من يُحدثه:

— أسرق الأوراق الزهرية الملونة حتى أُقدمها كهدية لكِ يا عزيزتي

فصعدت فتاته الصغيرة على صدره بعد أن تشبثت بساقه:

— وماذا ستجلب إليَّ إذا ؟

قبَّلها بحنانٍ وقال:

— ابنتي يجب أن تتجمل بتاجٍ مطرز بأرقى قطع الذهب الخالص

ردت **(آن)** صاحبة الصوت الملائكي:

– الذهب ثقيل، لا أظن أنني سأتمكن من ارتدائه

أكمل السير معها:

– حين أضعه على جسدِك ستشعرين أنكِ ملكة بحق

تفكرت قليلا ثم أكملت:

– ولكن أظن أن أمي هي الملكة!!!

فنظر في عينيها كي يتمادى نقاشها عن هذا الأمر:

– وأنتِ ستصبحين أفضل منها فيما بعد، آن.. تذكري كلماتي جيدا

لتكمل الابنة مسرعة:

– هيا بنا إذا، الجوع سيُميتُني.. علينا أن نعود لمائدة الطعام

حملها جانوس بكل همة:

– حسنا يا أميرتي، سأُنفذ أمركِ بلا كلل

فركض بها للداخل مبتهجا، يفكر في مخاطر القرار الذي سيتفوه به لرجاله.. يتمنى في قرارة نفسه أن يحمل الجنود الغنائم كما يحمل هو ابنته، بعد أشهر من التفكير استقر على تحقيق ما صبر على إتمامه.. ربما هجومه سيكون الرد الأمثل على تحكمات برسباي التجارية التي أغضبت جيرانه وبائعيهم، وستكون هي المحاولة الناجحة لحصاد نعم **الرب** من بين أيادي أُناس يسخر من أصولهم الشريفة.. فهو يملك نزعة من اليقين بأنهم حقا رعاع، يستولون على خيرات متعددة منحهم إياها الحظ وقت غفلة من سبقوه في الحكم.

***

الطعام شهي، خاصةً وإن كانت البهارات تُستطعم بنكهة الخطط المدروسة والحيل المدسوسة بعقول أصحابها.. أنهى جانوس ابتلاع علفه في عجلةٍ ثم قبّل ابنته بعد دخول إحدى الخادمات عليهما، والتي راحت تتصنع الاهتمام بتنظيف المائدة التي يجلسا حولها.. فتلك المرأة قد زينت رقبتها بعُقدٍ نادرٍ مقصب من الألماظ، أعطاها الملك إياه حينما تطورت العلاقة بينهما في الخفاء.. خاصةً بعد وفاة زوجته الملكة شارلوت منذ عامين، إثر إصابتها بوباءٍ حادٍ لم تتمكن من تحمل مضاعفاته.. ولكنها قبل أن ترحل عن الحياة أنجبت إليه ابن وابنة، لم يصلا حتى لسن البلوغ وهو لن يُعيرهما اهتمامه مطلقا مثلما كانت تفعل هي.. أما عن **(ماريا)** هذه المحظية الفاتنة، فهي تعلم أنها لن تحل بموقع من سبقتها من حيث القدر والاعتلاء.. رغم هذا كانت تحاول أن تلتقي نظراتهما قبل أن يهم بالتحرك، ثوانٍ ودخلت عليهم أيضا مربية الابنة الصغيرة.. وعلى الفور شاور جانوس إليها كي تأخذ آن تجاه غرفتها، وظل هو متكأً على الطاولة الكبرى إلى أن خرجا وبقيت عشيقته معه.

– تقومين بإتمام مهامكِ ببطىء، وأنا لا أظن أن الأمر يستدعي تصرفكِ هذا

تنهدت ماريا وقالت في توتر:

– من الجيد أيها الملك المهيب أنك تنبهت لرغبتي

– ما الذي تريدين قوله يا ماريا ؟!

– عدة أشياء في غاية الأهمية، تتعلق بي وبك

التقط أنفاسه وقال بفتور وهو يهم بالابتعاد بعدما وقف:

– ثرثرة النساء هذه لم تعُد تُلفت انتباهي

أخذت كوبا من المياه يوجد فوق المنضدة دون أن تستأذن ملكها، ثم تجرعته بشراهةٍ كي تسيطر على خوفها وقالت:

– أنا أصبحت حامل، انقطع الطمث عن بدني لعدة أسابيع.. وطبيبك الخاص الذي يأتي إليك كل حين هنا بالقصر أكد لي مخاوفي

– هل علم أحد بذلك؟

– كبيرة الخدم تراقبني طوال الوقت، بالتأكيد تفقهت للأمر

عاد إليها مجددا ثم وضع يده اليمنى على كتفها وأمسك بيده اليسرى ذراعها الأيمن:

– لماذا تشعرين بالتوتر؟ أنا لا أكترث برأيها، وهي حتى لن تُحدثني عنكِ خوفا مني

بدأت ساقيّ ماريا ترتعشان قليلا:

– ليست هي فقط من تتربص بي، بل وبعض القادة والأمراء الذين يُقابلونك بالقصر أيضا يتنبهون لتحركاتي أحيانا

– تجاهلي وجودهم دائما، لن يجرُأ أي منهم على محاسبتِك ما دُمتِ بجانبي

تنفَست للحظات، وأكملت:

– وولدك الصغير، أعتقد أنه تفهم سر العلاقة التي تجمعني بك

فقبل وجنتها اليُمنى وقال:

– حتما سيتقبل الأمر لاحقا، ما زال صبيا لم يبلغ ذهنه السعة الكافية لاستيعاب ما يحدث حوله

ابتسم بعجرفةٍ وهو يقول أخر كلماته، غطرسته حقا تبُث الثقة بنفس كل من ينظر إليه.. لم تتوقع الفتاة أنها ستعيش هذه اللحظة من قبل، هي لم تعُد فتاة بعد.. أصبحت سيدة، عليها أن تتحمل نتيجة خطيئتها.. وهي أيضا ما زالت خادمة وستبقى هكذا، حتى وإن أنجبت له طفلا يُشبهُ.. والمولود المنتظر لن يصبح ولي العهد أبدا لأن جانوس قد أنجب من قبل چون المدلل، ذاك الابن الشرعي الذي يعرفه الجميع ويبجلونه.

***

تحرك الملك نحو غرفة الزمام، سنواتها عديدة ولكن محتوياتها ثمينة.. حواف حائطها مزخرفة بالذهب والفضة وأيضا يُزينها بالعمق صليب ضخم يدوي الصنع، المنضدة الكبرى تحمل فوقها عدة خرائط.. والخريطة الأهم من بينهم، مكشوفة للأعين دون حظرٍ لعلها تكون هي النظرة الأخيرة لمتابعيها قبل أن ينهبوا البقعة الماثلة أمامهم..

من يُقدم على هذا الفعل لا يخشى العواقب، أو أنه لا يعرفها.. الأمر متعلق بصاحب الأمر، وهنا صاحب الأمر له طموح لو استطاع أن يقتنصه في الموعد الأصح سيحقق ما عجز عن فعله عظماء ملته.

– يوچين، أتيت متأخرا اليوم.. أطلعني على السبب ولا تتحجج بأي مُهاترات؟!

(يوچين)، الأكثر قربا لجانوس.. كان هو القصاب الأول لقواته العسكرية، ولكن الأخير فضّل أن يُبقيه بجانبه في القصر كحارسه الوفي ويضع أخاه **(هنري)** بدلا منه في مخفر القيادة.. ذكي وورع بأمور الحرب، خبرته ألهمت الملك بالكثير من قبل.. يوچين لا يهاب السيف ولكنه يهاب الحكمة والثبات، فإن لاحظ وجود هاتين الصفتين على رأس عدوه.. قرار قتله سيكون حينها هو الخيار الأوقع للتخلص مما يمكن أن يُحدثه من مصائب.

ابتسم لثوانٍ ثم انحنى لملكه:

– المعلومات كثيرة وقيّمة يا مولاي، وكان عليَّ التقاطها بدقةٍ من بين الألسنة

ضحك جانوس ثم قال ساخرا:

– وماذا علمت عنهم إذا؟! هل عرفت كم يملكون من بقرٍ ومواشٍ في بلادهم؟!

تنهد يوچين:

– لا يا صاحب الجلالة، عرفت عدد العشاريات المتجهة نحو السلطان العثماني

عبارة تُعرف عن نوعٍ من المراكب التي تُجَر بواسطة عشرين مجدافا، فيُحمل عليه أغلب الأمراء رفقة أمتعتهم الثمينة.. وفور سماع هنري لتلك الكلمة، اشتم بمنخاره الطنان نصف هواء الغرفة.. ثم بثق من بين لثة فمه لعاب النبيذ على البساط، تصرفاته مُتبجحة وغروره ما جعله يشتهر بين الجنود كونه محارب بارع وقليل من القادة من يمتلكون هذه الصفة.. أغلبهم يُخططون فقط، هو كان عكسهم تماما.. تحركاته بساحة القتال تُبهر الأعين لأنه دوما يستغل بنيته الجسمانية المرنة، والآن هو يجلس مع أخيه الملك ليُحددوا ما سيحدث لاحقا.. فاقترب هنري من يوچين الحارس متساءلا:

– حقا، كيف؟!

فرد يوچين:

– لنا أعين وآذان تبحث بين مسؤوليهم

بجانب الشرفة وقف قائد القوات البحرية ينظر بتمعنٍ لنقرات الحمام على حواف قطع العيش المفتت منتظرا بفارغ الصبر برهة إعطاء ملكه الأمر له بالتوجه نحو الساحل المملوكي، ليتمتم متفاجئا **(سيمون)** هذا:

– الخبر مُبشر والوقت في تقديري أظنه مناسبا للتحرك

السعادة غمرت صدر جانوس فجلس على الكرسي الملكي المنمق وقال:

– حسنا، جهزوا السفن في التو واللحظة.. عليكم أن تُبلغوا رجالنا بالتجهز للإبحار خلال الأيام القادمة، أخبروهم أنهم سيُنفذوا هذا الهجوم بالقرب من ساحلهم وليس بالقرب من ساحلنا نحن

فجأة دخل **(هيو)** في عجلةٍ على ذاك الجمع الصغير ليُشاطرهم مقترحاته، أسقف العاصمة نيقوسيا والأخ الثالث لهنري وملكها.. بدين للغاية، معدته ممتلئة بترسبات الشحم المتضخمة.. ولحيته عدد شعيراتها حصيلتها جَمّة، تكاد تصل لصدره.. يسير في بطىء بسبب إصابة أوتار ظهره بآلام متكررة أدت لتصلب مفاصله الخلفية، لهذا لم يكن يتحرك برشاقة.. اقترب من طاولة النقاشات مقاطعا حديثهم:

– فكروا جيدا قبل اتخاذ هذه الخطوة

ضحك هنري بتهكمٍ:

– أنت لست بمقدامٍ نحو القرارات الناجحة مطلقا يا هيو

استكمل جانوس ناظرا لهنري:

– دعه، دعه يا هنري.. أنا أعرف لما يفكر هكذا

تدخل سيمون في الحديث بعد أن التفت لهيو:

– نحن هنا كي نخطط ونتناقش سويا، يمكنك أنت تشرح لنا وجهة نظرك

جلس هيو في ثقة:

– عدد جنودهم كبير، كبير للغاية.. أنسيتم أن بلاد الأشرف تتضمن مصر والشام وجزءا كبيرا من أراضي الجزيرة العربية؟!

ربت هنري كتف أخيه:

– نحن لن نحتلهم الآن، إنها فقط عملية سطو

ضحك جانوس ثم وقف متجها للخارج:

– بل إنذار، فموعد خلع مرؤوس عرشهم لم يأتي بعد

تحرك هيو خطوات بسيطة كي يُوقف جانوس فيستمع إليه:

– السلطان برسباي أراد أن يقوم بتسوية جميع الخلافات التي تدور بيننا وبينه، هل تناسيت اجتماعه الذي دار بينه وبين قنصل جزيرة جنوة وأيضا قنصل البندقية كي يساعدانه على إتمام هذا الاتفاق؟

تنهد ورد الملك باستفزازٍ:

– لقد أسرنا أكثر من ألف وخمسمائة شخص، لم يكن بإمكاننا إعادتهم لبلادهم مجددا.. بما أنهم مُكلفون بزراعة قصب السكر بأرضنا

راح البقية يُتابعون ما يُقال بفتور، رغم هذا أكمل الأسقف بعدما ارتجفت وجنتيه حنقا:

– ذاك هو الرد الذي تفوهت به لمستشار ومبعوث أرض الكتلان بعدما وافق وحده على إعانة السلطان، وجميع من بهذه القاعة يعلمون جيدا أنه بإمكانك إطلاق صراحهم.. ويعلمون أيضا أن برسباي يعرف أننا نشتري البضائع من القراصنة، ونستغل تلك المقتنيات التي تخرُج مُحملة على السفن سواء من سواحل مصر أو سواحل الشام ونبيعها لأمراء أوروبا في مختلف البلدان

فأوقف جانوس ثرثرة أخيه وقال بنبرةٍ قاطعة كي لا يشتد الخلاف:

– لو كان قويا كما تظن، لما فكر في تقديم اقتراح ذاك الصلح.. هو فقط يرغب في تجنب غاراتنا المستدامة عليه، يود أن يلتقط أنفاسه كي يستعيد قدراته ويُعوض خسائره

فرصة يجب استغلالها، هذا ما كان البقية يفكرون فيه دونا عن هيو.. لم يخطر على بال أي من القادة على ضفتي النيل أن هذا سيحدث، ومن يظن أن مركب لا يوجد بها عسكري بسيفه ليحرصها نظرا لأنها ليست مخصصة لأي أعمال حربية سيتم الهجوم عليها وسرقة ما بحوزتها.. إنها الوسيلة التي يتخذها كل رجلٍ آمن بضرورة غزو مُلك من كان يجاوره أو حتى يبعُد عنه بأميالٍ، تلك الوسيلة تُدعى النهب.. وهي التي تبُث الرعب في قلب المسروق حتى يتجنب أذى خصيمه إن أراد أن يقتلع خيره دون ثمن، الانحناء يكون حينها مديونية يجب على الضعيف دفعها طالما خوفه منعه عن المثابرة ومواجهة المصائب التي تُدمر كل ما قد شيده أحبابه من حضارة أو حتى رباط عرقي ستذكره الأفواه فيما بعد.

الفصل الثاني عشر

عينا جاسم أصابهما الإرهاق، فقد سار بين الأجساد محاولا إقناع أصحاب العقول بقيمة ذاك الطعام الذي يبيعه.. يحمل سبتا فوق كتفه به عدة أنواع من الخضروات، فتلك هي وسيلة أمه الوحيدة لعرضها على الخلق بدلا من البقاء في مكانٍ مخصصٍ بالسوق كي لا يتم فرض تلك الرسوم الضريبية المعتادة عليهما.. لذلك قررَت من قبل أن تُعطي جزءا من بضاعتها للفقراء، والجزء الآخر تستغل قبضته حتى تبيعه وقتما تجد فائضا لم تعد هي أو ابنها بحاجة إليه.. ولأن جاسم لم يستعين به أي من التجار لحمل بضائعهم وحراستها في الآونة الأخيرة، قرر أن يتولى هذه المهمة بنفسه اليوم ليدع بركة تستريح وحدها.. ساعات تتوالى والشمس تشتد حرارتها إلى أن أوقف جسده عن التحرك محاولا التقاط أنفاسه المتسارعة، لحظات وسمع ارتفاع صوت نداء أحد الرجال كلما اقترب من جهته.. وبعد أن أصبح على مرمى عينه، لاحظ أنه لم يكن مناديا.. بل معلنا عن هبةٍ طالما انتظرها لسنواتٍ وسنوات، فأيقن أنها اللحظة المناسبة التي هيأها له **الرزّاق** لتحقيق حُلمه.

– السلاح يناديكم، تطوعوا لنصرة خالقكم.. الجهاد دائم والجنة خالدة، تطوعوا

تلك هي كلمات رجل عجوز انتظرها جاسم كثيرا منذ أن كان صبيا، طالما شاهد أولئك الرجال أصحاب الزي العسكري يمرون بجانبه وقتما كانت تسعى أمه بين الحارات والشوارع العمومية.. هالة صلبة تُحيط بأجسادهم، ثبات وحظوة يُجملان مظهرهم.. هناك أسوار كانوا يتدربون خلفها ظل الصغير يقف على بواباتها الشاهقة محاولا الإطلاع على ما قد يفعلونه بالداخل، لكن بالطبع لم يُسمح له أو لغيره بالدخول.. لذا راح يتعلم بعض الأساليب القتالية المحدودة مع أصدقائه أثناء لعبهم في الممر الجانبي لبيته مستخدمين قطع من الأخشاب المسننة بدلا من السيوف الثقيلة، لم يكن يتعلم الأساسيات بشكلٍ كامل رغم عشقه لهذه التحركات التي ينكب من خلالها المحارب على عدوه.. فقط طفل صغير يطمح في التزين بهذا الثوب الاستثنائي، وبسبب التزامه بمهام حراسة المتاجر.. تعلم من الشبان -الذين سبقوه في هذه المهنة- كيف يُمسك بالسكين ويستخدمه إن انقض عليه اللصوص ليلا، راح يتعلم ويُجازف لليالٍ وليال.. إلى أن ألح عليهم وجعلهم يُطلعونه على كيفية حمل السيف الحديدي والتلاعب به، فتشبث بتلك الحرفة حتى فاقت قدراته أساليبهم.. وعندما شب وتعدى سن الرشد ظن أن كل ما تعلمه ستتطاير قيمته هبائا، ولكن ها هي الفرصة قد حانت على عكس توقعه.

اتبع جاسم مالك ذاك الصوت على الفور راكضا حتى أوقفه:

– يا سيدي، أرجوك أطلعني.. ماذا عليَّ أن أفعل الآن كي أنضم لهذه الفئة التابعة لقوات الجيش كما ذكرت بلسانك؟!

ابتسم المُنادي وقال:

– هل نويت يا ولدي؟

أكمل الشاب متلهفا:

– نويت منذ صغري، ولكني لم أجد الفرصة بعد

فأمسك هذا الشخص بمعصمه في رفق ثم أردف:

– إذا، اذهب لأقرب حصن يوجد بهذه الساحة وهناك ستجد من يحتويك

ثم تركه المُعلن وأكمل سرد إشعاره على بقية من في السوق، لم يلبس الشاب في موضعه كثيرا.. فتحرك نحو هدفه الذي لم يصادفه من قبل، وفور وصوله رأي على بُعد أمتار عسكري يجلس وأمامه منضدة صغيرة عليها عدة أوراق يدوّن عليها أسماء المتطوعين الجدد لفيلق المحاربين بالقرب من ذاك الحصن الذي يتدرب فيه الجنود والفرسان دائمًا.. فاتجه نحوه بهمةٍ حتى يُقيد أحرف لقبه، ولكن قبل أن يصل جاسم للمنضدة ويتحدث بشغفه المتوهج أوقفه شخص غليظ النبرة.. ملمس بنيته متين، ولهجته العربية مخارجها قوية رغم أن قصاصة جبهته توحي بأنه ليس بمصريٍ ولا بعربيٍ من الأساس.. يرتدي زيا عسكريا مرموقا، ومراسم قوته تتجمل بانسياب شعره الذهبي.

– أنت أيها الغلام، ماذا تفعل هنا؟!

رد جاسم في دهشة:

– أسعى بين المحاربين كي أساعدهم

أردف الرجل ساخرا:

– أتود أن تساعدهم بجسدك هذا؟

ضحك الشاب وقال:

– لا، سأساعدهم بروحي العنيدة

رد الآخر في غضب:

– روحك العنيدة!!! الأرواح لا تحارب أيها الفتى

قاطعه جاسم:

– بلى، تفعل

نظر له الرجل متربصا:

– كم يبلغ عمرك ؟

– ثلاثة وعشرون عاما

– لن تستطيع الالتحاق معنا، فأنت ما زلت صغيرا

بادر العسكري بالتحدث فأكمل:

– لا يا سيدي، فكما أمرتني.. نحن نقبل من هم تتراوح أعمارهم ما بين الثامنة عشر حتى السابعة والأربعين أو أكثر

التفت إليه القائد بنظرته المروعة للصنم إن كان يشعر، كاد أن يُعنفه بسبب مخالفته لما قاله الآن ولكنه تركهما فور رؤيته لفتاةٍ كانت تقف في زاوية مُقربة إليهم لتحتمي بظل إحدى الشجيرات من حدة الشمس.. فأعاد جاسم نظره للعسكري متعجبا:

– أطلعني، من هذا الرجل ؟!

رد الجندي وهو يرتعد:

– كيف لك أن تتحدث معه بمثل هذه الطريقة؟

– لمَ تخاف منه هكذا أيها الشاب؟

– لأنه السيد تيمور بن نارك، وهو أمير مئة ومُقدم الألف محارب.. وفي بعض الأحيان يُشرف بنفسه على هؤلاء المتقدمين للانضمام للجيش بجميع المساجد

(تيمور) قائد في المرتبة الثانية بالحركة المسلحة العمومية، أما المنصب الحربي المذكور -أمير مئتين- يكون دوما صاحبه تحت تحكمه ألف جندي مُلحق بما يقرب من مئة أمير أو فارس من هم أقل درجة في الرتبة.. لذلك ثوبه المعهود يتلخص في بنطالٍ رمادي الوصمة ودراعة صوفية القماشة، وحيازة شريط ذراعي وقائي من النحاس.. فمن ثمَ هنالك شاور جاسم نحو القائد، ليتساءل مرة أخرى:

– ومن هذه الفتاة العرافة بالجمال التي تقف معه؟

جاوبه الأخير في استياءٍ غير مبالٍ باستفسار الأخير:

– لا أعرف ولكنه حتما سيعاقبني على ما تفوهت به إليك، كان عليَّ أن أصمت ولا أقاطعه

ظل جاسم يتابع بعينه الثاقبة تحركات تيمور خلال نقاشه مع هذه الفتاة التي يوجه عباراته إليها بعنفٍ استفزازي، ملامحها تضح إليه كلما حاول الاقتراب منهما دون ملاحظتهما.. حدقة عينيها شديدة السواد ووجهها ناصع البياض كلبن ماعز والدته، يداها الخفيفتان تتحركان وقت حديثها كريشتين ناعمتين تابعتين لحمامة رقيقة.. فأيقن الشاب المُرهَق بعد أن تعرفت عيناه على هذا اللون اللامع من البشر لأول مرة بعمره، أنها فعليا يجب أن تكون زوجته المستحقة لقلبه.. اعتزم هذه الرغبة وكأنها دافع داخلي لن يغيره عقله أبدا، رغم أن جاسم لم يعهد إلى عضو فؤاده من قبل لأخذ القرارات.

الفصل الثالث عشر

تتجلى النفس البشرية الضعيفة بمباركة صانعها، الشرفة واسعة وهو يقف بمنتصفها ناظرا للسماء.. عيناه أُرهقت بعدما تهاطلت دموعه، فالعجب كل العجب.. سلطان يبكي وهو سيد العرش!!! ليس ضعفا، وإنما ليتخلى عن ذاك الضغط الذهني الذي يُحاصره.. لا ريب في حقيقة الواقع، يعرف أن عرش الدنيا سيفنى مثلما سيحدث لجسده يوما ما.. يناجي دون كلل، يعلم أن صوته سيخترق السحب.. جملة نبيلة ستتدرج بين النجوم وعدد السماوات السبع، هنا.. لحيته مصفوفة بإحكام، هيبة تتمادى من نظرة عينيه فتجذب كل من يخطو بمقابلته.. عريض المنكبين، ملابسه الناعمة لم تُبهم استقامة جسده بعد.. فقد اتخذ القمجون كلباسٍ دائم كما فعل السلطان الناصر بن قلاون ماضيا، وهو قميص قصير الأكمام صُنع من الجوخ الخالي من البطانة الحنطية.. تداول الخلق تقليد أكمامه بينهم حتى أن ذاعت حداثته في أوروبا وصاروا يستخدمونه إحقاقا للنمط الدارج في البلاد العربية، كل هذا بجانب الأخفاف السوداء المُستبدلة أحيانا باللون البني.. كفه الأول يتخبط بكفه الثاني إبان تأمله، فتترنم طبقات صوتية تُشبه إذاعة البوق لهتاف جلي.. لا يعرف أحد ما يدور بداخله، يود أن يقف فوق أسوار القلعة ويتنفس هواء الليل دون أن يشعر بأي ضغوطات تُعرقل انعزاله الطفيف.. علم منذ حضوره لأرض بابيلون، مصر.. أن روحه سترتبط بهذا المكان إلى أن يموت رغم اختلاف موضع مولده، دولة أخرى بحاكمٍ آخر بشعبٍ تختلف صفاتهم بعض الشيء عن أهل هذه الأمة التي يقودها الآن.

تمتم برسباي بصوتٍ خافت:

– كيف تراني؟ كيف أنا إليك؟ وكيف أنا للخلق؟ إنك **المعز** وأنا العبد، منحتني السلطة ووضعتها بين يدي.. كيف لحاكمٍ ألا يُذنب؟ كيف له أن يحكم بالعدل ولا يدع الجشع يسوقه؟!

لحظات من السكون مرت حتى ظهرت بين ثوانيها زوجة السلطان **(جلدان)**، والتي عقد القران عليها بعد أسابيع من وفاة حبيبته السابقة نظرا لفرضية إنجاب الأطفال المُتبعة كي يحفظ مُلك عرشه من أيدي الدساسين.. أتت من بلاد الجاركس، فقد حظي هو بالفرصة ليشتريها -رفقة بعض من أفراد عائلتها كما كان يحدث مع الكثير من البشر عبر البلدان المملوكية- حتى لا تصبح خادمة في تابعة لغيره وأيضا في سبيل اشتماله على جماعة من مناصريه يبقون بجانبه دوما.. منزلة بشرتها تقربت من أولى درجات اللمعان الصدفي، وجسدها متناسق كرمح أمهر الحدادين.. دخلت صوبه وهو شارد في أمنياته التي لم تعد شخصية بعد، كل

شيءٍ صارت تعرفه لكونها مثال لمأوى القلب الباحث عن من يحتضنه.. عشقته وقت ضعف نفسه، فعلم حينها أنها تستحق منه تاج المحبة لتُزين روحها به.

حاولت ألا تُفزعه بخطوات قدمها المُغطاة بحذاءٍ صُنع من الجلد الناعم، فقالت بهدوء تام:

– هل لي بالتحدث مع جلالتك قليلا، أراك مهموما ولا تجد مخرجا مما يتكالب على عاتقك

التفت إليها متلهفا:

– أتظنين **أنه** حقا سيتقبل مناجاتي **لشرفه** إن دعوته؟!

ابتسمت قائلة:

– طالما تلفظت باسمه **الكريم** وقتما يُحاصر الخراب نفسك، سيُناجيك وقت غفلتك حتى يُفاجئك برده المرضي

ضحك برسباي في تهكم:

– لا أعرف إن كنت أستحق الاطمئنان برده أم لا

تبعته مسرعة:

– لن يعينك ما دامت الشكوك تنزع من نفسك الثقة في أفعاله

فتحرك السلطان للداخل ليرد باقتضاب:

– أنا لا أشك في مقدرته على تدبير شؤون الدنيا، إنه الآمر والناهي.. فقط أشك في أحقيتي في التوسل إليه

اتجهت نحوه:

– إن ظللت تعاتب نفسك مرارا هكذا، لن يكف عقلك أبدا عن التشتت

أكمل الزوج شاردا:

– السلطة تُجبر متوليها على أن يتصرف أحيانا كما لو أنه أسد مسعور، لا يعطي للرحمة حيزا بنفسه

تنهدت بعدما استوعبت ما يشعر به:

– حتى وإن لم تقتنع بقرارك، إن تحتم عليك تنفيذه.. فافعل، من أجل أن تحفظ التوازن السياسي بداخل هذا القصر وخارجه

إنهما الآن يقفان بالردهة الخالية، تتوسطها فسقية رخامية وحوائطها مُعلق عليها صنجات ذهبية بخلاف استهواء العين لوجود الصدور المقرنصة بالأسقف المهيبة.. يستقبل فيها السلطان الزائرين والأمراء، وجلدان أحيانا تقرر أن تتّبعه بداخلها لتهون عليه مشقة التفكر المُهلِك لذهنه المُنهك.. لكن حديثهما لم يطل، فقد طرق أحد ما الباب الشاهق ثلاثة مرات متتالية بيدٍ واقع تلامسها مع الأخشاب أصدر صوتا خافتا صدى في أرجاء المكان.. فتأكد برسباي حينها أن عزيزه يقف بالخارج وينتظر السماح له بالدخول أدبا منه، وكان من الغريب خلال هذه الآونة السماح لشخصٍ ما الدخول لغرفة الحاكم دون الرجوع لذاك الفرد المسؤول عن حماية برسباي وأسرته داخل القلعة.

– تفضل أيها السيد الشريف

ثوانٍ ثم دخل **(بدر الدين)** عليهما في استحياء، وكالعادة.. فقيه الطلة، ملبسه الأسود أثابه بأناقة ويحبس بين خلايا بصيرته عادات شريفة يورثها لمن حوله دائما.. كبير السن ولكن ظهره لم ينحن بعد، وأصابعه تتلاعب برُقي حينما يسترسل في الشرح من خلالهما وقتما ينخرط في تفسير الملتبس لمن يلجأ إليه متعجلا.. ابتدأ عباراته مبتسما:

– أستسمح عطفكما، بتقبل مقاطعتي لحديثكما الخيّر

ضحكت جلدان وقالت:

– أنت من أصبت زوجي بالحكمة اللائقة، بإمكانِك القدوم في أي وقت أيها السيد الفاضل

رد الخلوق:

– وأنا أتشرف بدعوة زوجة السلطان المتكررة لي دوما

اقترب منه السلطان بلذاذة رائقة:

– أنتظر مقابلتك بين كل حين لأنك تُطلعني على المزيد من العجائب التي لم ولن أتوقعها عادةً يا معلمي العزيز

– ولكن هذه المرة الأمر سيكون غريبا بالنسبة إليك بعض الشيء

التفتت إليهما الزوجة وهي تتأهب للرحيل:

– اسمحوا لي بالذهاب لمتابعة شؤون الخادمات

فتبعها بدر الدين:

– سعدت برؤيتكِ في بادىء النهار يا سيدة البلدان

ثم خرجت من ذاك الموقع على استحياءٍ، ليخلفها برسباي قائلا:

– يبدو أن الأمر مُقلق بالفعل وليس بغريب كما ذكرت

تنفس الشيخ في خفوت ثم أكمل:

– أسعار السلع الغذائية من المتوقع أن تتزايد الفترة القادمة، حركة التجارة في البلاد راكدة بعض الشيء بسبب بطش العديد من الأعيان خلال السنوات الماضية.. استغلوا فقر الأُناس في الشوارع واستولوا على الكثير من البضائع والآن يبيعونها بثمنٍ أغلى من الطبيعي لحين يأتي موسم الحصاد، وكذلك يستحوذون على العديد من الأراضي الزراعية الشاسعة والتي يهتم بها المصريون مقابل أجور قليلة للغاية

فتساءل برسباي متعجبا:

– ولمَ لم يتواصل معي أي من المسؤولين في البلاد؟

ضحك بدر الدين وقال بتهكم:

- يخشى أغلبهم أن يُطلعوك على ما يدور، فتتخذ قرارا بعزلهم عن مناصبهم

وهنا دخل عليهما الأمير **(جرباش الكريمي قاشوق)**، حاجب الحجوبية -أي المكلف بحفظ الأمن الداخلي للسلطان وإدخال من يود مقابلته أو إطلاعه على حاجته إليه، وقد تطورت تلك المهام حتى شملت بعض الشؤون المدنية والقضائية والحربية والدينية فيما بعد- هو قصير القامة ولكنه قوي وذكي، قدراته مبهرة ولا يصدق من لم يراه من قبل أنه يمتلك مهارة في تطوير تحركاته القتالية مبتكرا أسهل الطرق لإصابة من يحاول أن يعيقه.

أردف الحاجب:

- عذرا عن مقاطعتك يا سلطاني الفريد، ولكن السيد بدر الدين طلب مني أن أجلب بعض الرسوم الورقية المتعلقة بالنهج الصناعي والتجاري في البلاد لكي أُطلعك عليها

أمسك برسباي بتلك الورقيات المعروضة عليه لكي يقرأها بتمعنٍ، لكنه لم يستطع أن يكتم غيظه كثيرا.. فصرخ في غضب:

- يجب أن تتم متابعة الأملاك الخاصة بهؤلاء الأشخاص المذكور أسمائهم في تلك القائمة، يظنون أنني سأتجاهل أفعالهم لانشغالي بالشؤون العسكرية المُتقلبة

التفت بدر الدين بجسده نحو الأخير:

- نوهت لك منذ قليل على وجوب التضلع بالفكر الدخيل إبان متابعة هذه المعضلة

ليُكمل جرباش:

- الغريب في تصرفاتهم أنهم لا يُعيرون أي انتباه لشكوى الجميع من أفعالهم، هم يتجاهلون رد فعلنا.. إنها جرائم علنية، يبدو أنهم توغلوا وسيطروا على خيرات البلاد دون أن يُعيقهم أحد

فعزم السلطان على أخذ قرار مصيري بعدما وقف على قدميه:

- منذ تلك اللحظة التي تجمعنا الآن، أود أن أطلع على أسعار جميع السلع المنتشرة في السوق.. وأود أيضا أن أطلع على أدق التفاصيل المتعلقة بهؤلاء الذين يقومون بتخزينها

ليتساءل حارسه متعجبا:

- وماذا عن من هم مستولون على الفدادين الخضراء؟
- أنت هنا في بيت مسؤول العدل بتلك الدولة، سيتم مراجعة قيمة حيازاتهم الكاملة بأسلوبٍ مفصل وحينها سيتم إرسال دعوة إليهم للمثول أمامي لكي أتفقه لحقيقة وضعهم بعدما أُحاسبهم

وهنا أنهى بدر الدين النقاش بسلاسة:

- كان عليَّ أن أُبلغكم بمثل هذه الطريقة المفاجئة، إن الوضع يزداد سوءا.. ويوما ما سينفد صبر الجميع، وستنهار الحركة الشرائية في الدولة بأكملها

إنه العيني، بدر الدين العيني.. سوري الأصل، فالنعيم الذي تربى بين حافته قد دفعه نحوه أبوه.. لذلك كان محظوظا لأقصى حد، تلقى القراءات السبع للقرآن وتعلمها منذ صغره.. سنوات أخرى ولازمه التفكر الثقافي الذي حثه على تفهم بعض من كتب الفقه الحنفي بجانب تعرفه على أهم أساسيات علم الحديث، مسيرته تعددت مواقعها.. ليجمعه المصير مع تلميذه ونديمه -جليسه- برسباي، فالأخير نظرا لكثرة رحلاته عبر البلدان لم يتلق الكم العلمي الكافي المُقنع لذهنه حتى وصل إلى مصر.. وهناك اكتسب الخبرة الثقافية من عقل بدر الدين، والتي يفتقرها كثيرا ممن بدأوا طريقهم معه.. فبسبب مغامراتهما العلمية سويا، استطاع المعلم شرح أهم الأصول الدينية.. بل وأطلعه أيضا على العديد من الأسرار التاريخية بعدما كان يفسرها إليه أحيانا بأسلوبٍ مبسطٍ لأقصى درجة، حتى تمكن السلطان على مر السنوات من التحدث بلغة القرآن دون مشقة كما لم يتوقع من قبل.

وحينما تولى الأشرف برسباي سلطنة مصر، قام بالعديد من التغييرات المتعلقة بمناصب الدولة ورتب الأمراء والقادة.. ومن بينها، تعيين العيني ناظرا لديوان الحسبة.. وهي لجنة كانت سابقا مُختصة ببعض الشؤون الدينية والدنيوية، ألا وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بجانب المحافظة على نظافة الطرق ومتابعة الحيوان رأفة به كي لا يحمل ما لا يطيق.. مصادفة لمنع أي معلم من إصابة الأطفال بالضربات المُبرحة، وأيضا مراقبة حانات الإفرنج نظرا لإقامتهم داخل الدولة أثناء إنهائهم لصفقاتهم التجارية.. ولكن مع

تطور المسؤوليات على الحاكم واتساع بقع العيش والإسكان، تضخمت المدن الإسلامية وامتلأت بأرباب الحرف المتنوعة.. لذلك، اشتمل هذا الديوان فيما بعد على التحكم في بعض الأمور الاقتصادية، ومنها الإشراف على صحة الموازين وضبط حمولة المكاييل بين التجار والعامة والأمراء.

الفصل الرابع عشر

ثلاثة رجال يرفعون سويا صندوقا خشبيا ثقيلا، يتصرفون بحرصٍ شديد ويتحركون بخطواتٍ هادئة تماما.. نظرا لبهظ أثمان ما يكمن بداخله، وبالفعل.. أوصلوه للموقع المرجو على متن السفينة التي تحملهم رفقة المئات من زملائهم والعديد من الصناديق مختلفة الحجم أيضا، فهم على بُعد أميالٍ من ميناء دمياط.. أقلعوا بجانب سفينة ثانية على متنها مقتنيات مماثلة في أهميتها كهذه بل وتحتوي أيضا على مخزون كبير من الأطعمة، فقد أُنهكوا جميعا بسبب إتمام مهامهم الشاقة بلا تقصير.. لذا، استغلوا فرصة انشغال من حولهم وجلس الثلاثة خلف صندوقين كبيرين بالجانب الأيمن الخالي من الركاب.. فأخرج أولهم قطعة من القماش بها أربعة أغرفة وقطعة كبيرة من الجُبن، أما الثاني فأخرج من جيبه قطعة أخرى بها عدة أصابع من التمر والثالث اقترب منهما بعدما أحضر قُلتين من المياه.

لحظات وقبل أن يهمّوا بالتهام طعامهم، تفاجئوا بصوت صريخ بقية زملائهم:

- إنهم سيغيرون علينا، أخبروا القائد على الفور
- أبعِدوا الصناديق الهامة عن أعينهم، ضعوها في القبو
- أحضروا العصيان الخشبية عسى أن نتصدى إليهم

وقد كانت تقترب منهم بضعة سفن اتضح من خلال أشرعتها أن من يقفون على متنها مجموعة إفرنجية من القراصنة، فأسلحتهم مُجهزة وانطلاقاتهم سريعة للغاية.. هم سيعترضون أي سفينة سيجدونها تمر بلا حرس، خاصةً وإن كانت بهذه المواصفات الماثلة بمقابلتهم.. بما أن سفن المماليك الهامة والمُحملة بالأشياء الثمينة منحنياتها تخطف الأنظار وتُشير بأن ما بداخلها غالٍ حتى وإن كانت فارغة، فالاستيلاء عليها في حد ذاته مكسب نادر.

وهنا راح قائد هذه السفينة يصرخ في وجه معاونيه بينما كان يقف عند الدفة حتى يُملي عليهم أوامره:

- حرروا الأشرعة سريعا ولا تتماطلوا، وإن اقتربوا إلينا.. القوا عليهم الأحجار حتى أتمكن من الانحدار بالسفينة، اذهبوا

نَفذوا كل ما قد ذكره إليهم، وهكذا فعل قائد السفينة الثانية مع ركابه.. جميعهم كانوا يُسارعون الزمن كي يعودون للشاطىء من جديد، لعلهم يجدون الدعم الذي سيحفظهم من هذا الهجوم.. ولكن فشلت المحاولة بالطبع، اصطدمت سفن القراصنة بسفينتي البضائع.. حتى فقد الحاضرين توازنهم، وتلعثمت خطواتهم وهم يركضون هلعا.. فانقض السارقون على من بقى ثابتا بموضعه، أهانوهم وقاموا بتكتيفهم جميعا.. ومن قاوم منهم قتلوه بدمٍ بارد، أسروا الكثير منهم والذي قُدر عددهم بالمئات دون أي مقاومة معنية.. وبالطبع أخذوا جميع الصناديق المُحملة بعملات الدنانير الذهبية، وأيضا أقمشة مُطرزة بالذهب وأخرى خامتها من الحرير.. بخلاف بعضٍ من الكراسي المملوكية المتينة والتي وُضع على مسنديها حبيبات من الفضة، والعديد من السيوف النحاسية المنقوش عليها بعض الأحرف العربية.. والسلاسل والخواتم وحلاقات الرسخ المصنوعة على أيدي أحرف النحاتين بجانب عدة أبواب خشبية شاهقة كُتب على واجهتها آيات قرآنية باستخدام الخط الطوماري، وغيرها من المنح النفيسة.. فالغريب في الأمر أن هذا حدث بداخل إقليم دمياط ولم يكن هناك أي حراسة بحرية حول هذه المنطقة، رغم ضخامة السفن التي أقلعت وعظم قدرها عند الحاكم.

الفصل الخامس عشر

رياح هادئة صارت تُأرجح جسدها الثمين، لم يعد هناك الكثير من الساعين بين الممرات بعد عصر اليوم الشاق.. ربما الخلق يُأدون الفريضة ليُكملوا بعدها رحلتهم في البحث عن اللقمة الهنية، ولكن جاسم لم يدعه الشغف وحده.. ركض خلف هذه الجميلة وترك السبت الذي كان يحمله عند بوابة الحصن، لم يعرف ما هوية العلاقة التي تجمعها بتيمور والتي سمحت له بأن يصرخ في وجهها بعد أن اجتاحه الغضب.. على مرمى بصره الآن فتاة حطمت قواعد الجمال وقوانينه، عيناها زرقاوتان وفمها صغير وبشرتها منغولية.. نحيفة بعض الشيء ولكن طلتها البهية جعلته يتبعها فور ابتعادها عن بصره، ولما شعرت الحسناء أنه كيراقبها.. أسرعت بكل عزم حتى تفلت من مناظرته كي لا يستلقط المسار الدال على موقع بيتها، فأسرع جاسم هو الآخر وظل يقترب من جسدها حتى سمع حفوات أنفاسها تتشاحن خوفا منه.

فقرر أن يضع حدا لهذه الملاحقة الغامضة، ثوانٍ ثم وقف أمامها فجأة دون أن يُعرقل قدميها أو حتى يتلمسها.. لتثبت بموضعها وهي ترتعد محاولة الحفاظ على ما تبقى من هدوئها:

— من أنتِ ؟! ولمَ تهربين مني ؟!

ردت عليه في تربص:

— أنا من له الحق في التساؤل اليقظ، لمَ تراقبني ؟ هل استأجرك أبي حتى تتبعني في كل مكان ؟!

ضحك جاسم:

— أقسم أنني لم أُعاشر والدكِ إطلاقا، وعلى كل حال أنتِ لم تُخطئي باستنتاجكِ.. فأنا حقا أتبعكِ

أثارت صراحة عبارته غضبها:

— ولماذا تتحدث معي وتتصرف بلا خجلٍ هكذا ؟!

أردف الشاب مبتسما:

— لأنكِ جميلة، جميلة وبلا شائبة.. لم أرى حواء مثلكِ من قبل

سيطر الحياء على شعورها، وقفت مرتبكة لبرهةٍ ثم قالت في ضيق:

– توقف عن قول هذا الهراء

– إنها حقيقة، حقيقة وليست توافه صباحية

– لو علم أبي بما تفعله الآن لقتلك وحبسني

اقترب منها جاسم قليلا:

– حسنا، سآخُذُكِ معي لنهرب

فقالت ساخرة:

– لن تستطيع، ما دمت تعمل مع والدي

تساءل متحيرا:

– أتقصدين أن هذا الرجل الذي كان يصرخ...

قاطعته بتفاخرٍ:

– تيمور، الأمير تيمور التركي.. إنه أبي، أحد أهم قادة الجيش الميداني

أصابته الدهشة للحظات ليُكمل:

– الأمير تيمور هو والدكِ، يا **الله**.. كيف لم يخطر على ذهني هذا؟

فابتسمت وقالت:

– أرى حس الرهبة ينبعث من صدركِ الآن

– لا، أنا لا أكترث بتهديدكِ هذا

– حسنا، سأرحل حتى تتوقف عن الكذب

استدارت الفتاة واتخذت عدة خطوات، فتساءل جاسم مرة أخرى في لهفة:

– أطلعيني على اسمكِ أيتها الساحرة

التفتت إليه فجأة قائلة:

– ياقوت، اسمي ياقوت أيها المنحط

أخفت ابتسامتها حتى لا تُشعره بانتصاره على بهائها، فمن بتلك المدينة بأكملها يجرؤ على الإحاطة بكيانها وهو يعلم أنها ابنة تيمور؟! حديثها كان حُلمًا يسعى لتحقيقه كل من تقرب لوالدها، يشعر هذا المتهور أن الحجر يتلألأ حينما تمر ياقوت بجانبه.. نجحت في بث سحرها بنفسه دون بذل أي مجهود، ولكن العقبة ما زالت قائمة.. ثابتة كوتد الجبال، وهي وجود أبيها دوما حولها.. تيمور حاد الطباع وأيضا فياض المشاعر تجاه أهل بيته بالرغم من الغلظة التي يُظهرها للجميع أغلب الأوقات، من المتوقع أن الأيام لن تغيره ولن تجبره على تقبل جاسم إن أراد التقرب منه كي يُناسبه.. فقط أفعال المُحب الباسلة في ميدان الحرب ستمنحه حسنة ربما تُجبر الوالد على تقبل رغبته، المستحيلة.

الفصل السادس عشر

بالطبع التواضع يمنح عليا القوم محبة الفقراء رغم ثقل الفاجعة فوق جروحهم، لذا حرص العديد من المسؤولين -بعضهم وليس جميعهم- وأقاربهم طوال أعوام التاريخ المتتالية على السير بين أفراد العامة والانخراط في الحديث مع أهالي المناطق التي تفيض بروح الدعابة وعشق البساطة.. وهذا ما كانت تحاول أن تفعله جلدان أحيانا بصُحبة حراس القصر الملكي لحمايتها أثناء تفقدها لأحوال هؤلاء من يحكمهم زوجها، يُتابع ذهنها جمل أعداد من يتحدثون إليها لترى إن كانوا يتفوهون بها مجاملة أم عن حق.. تحاول أحيانا أن تمنح الضعيف منهم بعض الأموال التي اكتنزتها من أجل أمثاله، عسى أن يُدرَج هذا التصرف تحت اسم الصدقة التي تعلمت أن تُخصصها لزويهم كلما استطاعت منذ أن تفطنت لمشقة الحياة الدائمة طيلة حياتها الغاشمة قبل زواجها من السلطان.

قاطع سيرها صوت سيدة في منتصف الخمسينيات من عمرها تبكي هي وابنتها راكضتين نحوها بسرعة هائلة –من يتابع المشهد لا يصدق أن هذه الأم تستطيع أن تتصرف هكذا لشدة ضعف جسدها المنحني- حتى ارتمت الكبيرة أمامها:

– أرجوكِ ساعديني

ثم تبعتها الفتاة الصغيرة قائلة:

– أرجوكِ استمعي إلينا

حاول حارس جلدان بعزم قوته منعهما من الاقتراب إليها:

– انتظرا، يجب أن يكون غرضكما لبدء النقاش ذو قيمة غنية بالملاحظة للسماح لكما بالتحدث إليها

فصرخت السيدة في وجهه وأبعدته مُتجهة صوب زوجة السلطان:

– لن أنتظر أكثر مما سبق من ظلمات ليلية متعاقبة تُخفي الريبة، فوالد ابنتي كان على متن السفينة التي نُهبت ولم يعد حتى الآن

أكملت الابنة وهي ترتعش:

– لم نستطع أن نجد من يُيسر علينا معرفة ما قد جد، فلجأنا إليكِ.. أعيدي أبي إلينا إن كنتِ تملكين القوة الكافية

تلعثمت الجمل قبل أن تخرج من فم جلدان، لا تعرف ما قد حدث بعد.. يبدو أن الأخبار انتشرت بأحياء المدينة وهي ليست على علمٍ بها، عليها ألا تُظهر عدم مبالاتها بما تستمع إليه حتى لا تفقد هذه المتوسلة الثقة فيما تتمنى حدوثه.. فقالت مرتبكة:

– لا تقلقا، هو في عون **الكريم** منذ أن ترك بيته المتشح بالنقاء لوجودكما.. تريثا، تريثا ولا تفقدا الأمل بعد

ردت السيدة باكية:

– أخاف أن تتلاشى الدعوات ويُدفن تحت أمواج البحار الهائلة

أردفت الصغيرة بسذاجةٍ:

– السلطان عليه أن يُرسل أقوى حراس يحمون عرشه لكي يحفظوا روح والدي المخطوف

قاطعتها الأم:

– وألا يتخاذل عن حقه وحق رفقائه الذين أبحروا معه أيضا

محاولة الزوجة لطمئنتهما ستكون فاشلة، فهي لا تعرف شيئا عن مصير هؤلاء الصيادون العُزل.. فردت وهي تدمع عسى أن يتيقن قلبها بصدقِ ما تقول:

– سنصبر رافعين أيدينا للسماء لعل الطيور تُبلغهم بصلابة إيماننا

التفت الحارس لسيدته باقتضاب:

– علينا أن نرحل فورا يا أميرة البلاد

فأعادت النظر إليه جلدان وأمرته بحزمٍ:

- أرسل معهما رجلا ممن يحفظون المؤن بقصرنا، وآمره بجلب صندوق خشبي كبير ليملئه بكل ما ينقص بيتهما من طعامٍ.. تفقده جيدا ولا تدعهما يأخذانه خاليا، بل وقم بإيصالهما لموضع إقامتهم بنفسك

فربتت رأس الفتاة، ثم وضعت يدها على معصم الأم مباشرة:

- سيعود قريبا، وسآتي بنفسي رفقة السلطان لنُهنئكم معا بسلامة حضوره

الكأمر يصعب استيعابه، نظرة جلدان للسيدة وابنتها تحمل في جوفها معاني عدة.. بمضمونها وعد روحي للمظلومين بالسعي المتعجل خلف قدوم أحبابهم إلى ديارهم قبل انبعاث تشققات شمس الضحى إن أمكن، أما في الحقيقة زوجة السلطان تعوقها الحيرة نحو معرفة احتمالية نجاح الجنود في مهمة استرجاع الصيادين والتجار البرآة أم لا.. صعقة تُخدر عصب تفكير أي من كان المتحكم في هذا الموقف ولو امتلك القدرة على إنقاذ البقية، فهي محاولة على طرف خطوط الفشل التي سبق وسار على خُطاها العديد ممن تفاجئوا ببَليّة كهذه من قبل.

الفصل السابع عشر

دقة طابع الحبر الأسود على الأوراق تُنهي طول مدة الانتظار التعسفي، فلا يوجد رمز طقوسي آخر يُعَوض فقدانه كي يتم التوثيق على البدء في أي من المهمات أو إعلاء كلمة يجب أن تُنصر لإصلاح شأن صعُب إتمامه من قِبل القادة بعد.. ليكون ختم السلطان بمثابة المزمار الرسمي للإعلان عن شرعية تقبل ما قد طُرح، فأحيانا يشعر برسباي أن كل من يحاصر كرسيه المفخم ليساعده يحلم بإزاحته حتى يجلس بدلا منه ولو لبضع دقائق.. البشر يخطئون ولكنهم أيضا يطمحون، من سيرفض تلك الفرصة التي ستجعل اسمه يُذكر في أعظم صفحات التاريخ المسجلة في أخطر بقاع المنطقة؟! منطقة الولع بالحروب، بها يسعى رواد الحضارات نحو تملك هذه الأرض بخيراتها.. ومن لم يُحكم قبضته على شؤون قومه هنا، لن ينعم بثقل نفوذ مكانته لأيام كثيرة.

دخل عليه جرباش الكريمي في عجلةٍ وهو ينهج:

- سيدي، بيبغا المظفري أتابك الديار ينتظر سيادتك في قاعة التسامر المجهزة للتشاور حول تلك الملابسات الحالكة التي طرأت علينا

انعطف إليه برسباي مفزوعا:

- ما الذي حدث يا جرباش؟! أخبرني على الفور

فرد عليه بعدما ابتلع ريقه:

- أمير المجلس بإمكانه الإفصاح عن ضرورة هذا اللقاء
- حسنا، دعه يدخل

تحرك جرباش للخارج ثم عاد بعد هنيهة للسلطان مرة أخرى و**(آقبغا التمرازي)** أمير مجلس البلاد -وهو الموكل بتجهيز مراسم مجلس السطان مع بقية القادة بالفئة الحاكمة وقتما يحين موعد التقائهم- يسير خلفه، ليقول هذا المسؤول:

– مولاي السلطان، الأمر تعدى طور الخطورة.. فقد أبلغني سيادة الأتابك بهجومٍ شرس، شنه قراصنة ملك قبرص على مركبتين محملتين بالبضائع في ميناء دمياط.. فأسروا ما يزيد عن مائة رجل، واستمروا في اعتدائهم حتى تمكنوا من الاستيلاء على الهدايا المُرسلة للسلطان العثماني

تلقى برسباي الخبر صارخا:

– متى حدث ذلك يا سيد آقبغا؟

أجابه آقبغا الأمير في ضيقٍ:

– لا أعرف الموعد المحدد الذي طرأت خلاله تلك الغارة يا سيدي، لهذا السبب قد حضر الأتابك ليُبلغ عظمتك بما قد حل علينا

فوقف السلطان وقال للحاجب جرباش قبل أن يتحرك نحو القاعة:

– أبلِغ الأمير قجق العيساوي بهذه الأخبار المشينة، ودعه يأتي إلى مجلس الاجتماع الآن ويترك كل ما يُشغل عقله

أمير السلاح، **(قجق)**.. لا يمكن الاستغناء عنه كونه المشرف الرفيع على السلاح خاناه السلطانية، لفظٍ أناضولي يعني المخازن الخاصة بالمعدات الحربية الحديثة.. والتابعة للسلطان الذي توجب عليه تفهم إخفاقة سطوة جيشه المؤسفة، عليه أن يدرس قراره في وقتٍ قصير لكي يكون الرد لاذعا على ما قد اقترفه قراصنة البحار الجبناء.. هكذا كان يذكرهم برسباي، حتى قبل أن يتولي مركزه الفيصلي.. تحرك برسباي تجاه بقعة التجمع التي سيُملي عليهم فيها قرارته، إنها واسعة بشكلٍ هائل وبإمكانها استدراج العشرات من الحاضرين.. فعلى مدخليها نُصبت بخاريات مرتبة بمساحة نصف متر بين كل واحدة، تكسوها الصبغات الزعفرانية.. وبعمقها كرسي على طرفي مسنديه قطع من الذهب الخالص وبمقابلته على الجانبين، عدة مقاعد متماثلة الحجم إما يمينا أو يسارا كي يجلس عليها القادة لإنهاء نقاشاتهم الهامة والعصيبة.

– لا يوجد تفسير منطقي يبرر عدم تصدي أي من القوات لهذا الاعتداء، لماذا لم يوقفهم أحد؟!

رد قجق على الفور:

- لم يكن يتطلب الأمر وجود أي عساكر للحفاظ على أمن أولئك البحارة والعمال، فقط القليل منهم من كان يملك سلاحه الخاص كي يحرس البقية

تابع كلماته **(بيبغا المظفري)** الأتابك، ساعيا بجهد لتمالك أعصابه:

- جزء كبير من رجالنا لم يعودوا بعد حصر القوات القبرصية لما اقتنصوه، استغلالهم لتلك الموارد البشرية سيُمكنهم من الضغط علينا إن حاولنا التواصل معهم

أردف آقبغا في غيظ:

- هم يتوقعون قدومنا لرد الاعتبار وبالأخص بعدما رفضوا جميع متطلباتنا حينما تفاوضنا معهم منذ شهور، لذا علينا أن نباغتهم بخطةٍ حربية جديدة لم تُتبع من قبل

نظر إليه قجق مستنكرا:

- ولكننا سنجدهم متجهزون لردة فعلنا، يعرفون أننا نرغب في إجبارهم على الخضوع لأوامرنا كي لا تهتز هيبتنا بين البلدان..

فقال الأتابك:

- أخشى أن تنزع تلك الأحداث ثبات عزيمة الجنود، حتى الآن لم نُعلن رسميا عن نيتنا في التقدم نحو القبارصة وإحضار الأسرى من داخل معاقلهم

التفت إليه أمير المجلس في امتعاض:

- هذا حقا ما أخشاه أنا أيضا، فلا مأمن للنفس بعد تلك الواقعة إن لم نقُم بنشر مجموعة من السفن على طول الموانىء لمراقبة أي تعديات قرصانية مُخادعة

قاطعهم برسباي في حزم:

- من الآن أُبلغكم بأن تُصادروا أموال كل التجار الأوروبيين في الإسكندرية ودمياط، دون تماطل.. وحتى من هم يعيشون بالأراضي الشامية، أعيقوهم عن السفر إلى بلادهم حينما يهموا بالعودة

تبسم بيبغا متحفزا:

- خير قرار، حتى يتفهم أتباعهم أننا لن ندع تلك البلية تمر هبائا.. سيتذوقون طعم المرارة بسبب ما حدث، وحينما يُعلنون عن إنزعاجهم لن يلتفت إليهم أحد

فأكمل قجق في شغف:

- خساراتهم للأموال ستُجبرهم على الإفصاح عن بعض المعلومات التي بإمكانها أن تدلنا على معرفة ما نسعى لتفهمه

لحظات ثم دخل عليهم جرباش الحاجب:

- ألتمس المعذرة بسبب مقاطعتي، ولكن السيد سودون بن عبد الرحمن الدوادار ينتظر بالخارج.. فهو يود إطلاع سيادتكم على شيءٍ ما

تبعه برسباي:

- إذا، فليدخل على الفور

الدوادار، اللقب الممنوح لذلك الشخص المسؤول عن تقديم الشكاوي والقصص من الأعيان والدواوين إلى السلطان بنفسه.. دخل **(سودون)** متجها نحو حاكمه علي الفور ثم انحنى وقال:

- آسف لمولاي عما حدث

ثم استدار ليقف كما كان مجددا:

- فعليَّ أن أعرض على حضراتكم جميعا كم الرسائل المبعوثة إليكم من قِبلِ أهل الأسرى والقتلى عن طريق العديد من الأمراء الذين يتواصلون معي دائما

التقط السلطان والنائب والأتابك عدة أوراق وقطع من الجلد منقوش عليها عبارات عديدة، تتضمن:

{..بربكم، أغيثوا أبنائنا..}

{..جائتنا أنباء بأن كل من كان على متن السفينة قُتل، وأنباء أخرى بأنه تم أسرهم..}

{..أسمع صرخات ولدي وأنا في فراشي..}

{..سيادة السلطان الأشرف سيف الدين برسباي المعظم، أستسمحك ألا تتغافل عن إعادة هؤلاء الرجال الضعاف.. فلا حول لهم ول قوة..}

فأردف الأتابك:

- يجب أن ندحض تلك التعديات في أسرع وقت ممكن، الضغوطات لم تأتي من الجزيرة فقط.. بل هي أشد علينا من الأهالي

ليقول قجق متمهلا:

- السرعة والتريث، التوازن بينهما سيفيدنا كثيرا.. علينا أن نختار الموعد المناسب للهجوم وقتما تتجهز كتائب الجيش البحرية

أكمل بجدةٍ برسباي:

- لذلك يتوجب على كل قائد منكم، إخبار الأمراء والجنود بفرضية تجهيز عتادهم مباشرةً.. وسيُجبر قادة الأغربة أيضا على اعتبار السفن مآوهم حتى يُنفذوا الأوامر المنشودة

ثم التفت السلطان لآقبغا:

- استدع ناظر الإنشاء كي يأتي هنا

فوقف الأخير مسرعا:

- حسنا يا سيدي، سأفعل على الفور

ديوان الإنشاء، صاحبه -وزيره- أي ناظره.. مُكلف بتبادل المكاتبات الرسمية الخاصة بالدولة، فالسلاطين في بعض الأحيان يخبرونه بأشياءٍ لا يطلع عليها الوزراء ولا الأمراء ولا حتى الفرد الأقرب إليهم من أبنائهم.. نوع الأوراق والخطوط المستخدمة في تلك المهمة تختلف كثيرا بحسب قيمة الشخص المُرسل إليه، فتطلبت هذه المساحة الشرعية

دوما أن يكون متولي هذا المنصب فصيح الألفاظ وطلق اللسان.. وهذه الصفات توافرت في السيد **(علم الدين بن داود)**، وحده فقط حينها.. فخرج أمير المجلس ومعه الدوادار، والبقية بالداخل يتناقشون حول الإصدارات التي يجب أن تُتخذ على وجه السرعة.. وتطبيقها أيضا يجب أن يكون هكذا، لا مفر لدفع الأذى إلا بالمقاتلة.

وفي أقل من ساعة عاد جرباش رفقة الأمير علم الدين الذي خضع بجسده لبرسباي فور رؤيته إليه بعد أن تخطى الباب ومر بجانب الحاضرين:

– أنا في خدمة تضلعك مولاي السلطان

فتنهد الأشرف وقال:

– أريدك أن تُرسل أوامري السرية التي سأُمليها عليك لنائبي مدينة بيروت وطرابلس، كي يُجهز كل منهما سفينة شاسعة بها مجموعة عددها مُحدد من الجنود والعتاد بالميناء المخصص بداخل كل بلدة.. وهكذا الخطاب برمته لنائبي دمياط والإسكندرية

ثارت شعلة الضراوة في نفس علم الدين ليرد:

– في غضون ساعات قليلة ستكون توجهات عظمتِك قد قُضيت دون تأخير

فلكي ينجح انقضاض المظلوم، عليه أن يتدبر جيدا ليوم المقابلة الشرسة.. فأول خطوة ستُتبع وتعتبر الأقيم بين تلك التحركات، هي المراقبة.. مراقبة التناوبات والتجهيزات وتفهم ما يحاول الغريم تشييده حتى يسهل على نفسه المهمة وقتما يهم بالعودة لسلب قوت غيره مجددا، أما ثاني خطوة فتعتمد كليا على ما غفل عنه برسباي.. وهي تأمين الموانىء وحدودها للتصدي لما يحدث من عملية قرصنة دخيلة كل فترةٍ قصيرةٍ، فإن تم ما ذُكر ستكون الخطوة الأخيرة هي الجديرة بالاكتراث.. لذلك، تحتم توفير الدعم المادي الكافي ليصبح جيش الأشرف صاحب الهجمة المباغتة للمرة الأولى منذ عقود انقضت بمرارة الخسارة الدموية.

الفصل الثامن عشر

– كفى لهَمّ العمر استنادا على ظهري، كفى

قالتها بركة جالسة بمفردها على مسندٍ من القطن المتين ملفوف بقماشةٍ قديمة لتخبز العجين في هذه الساحة المواجهة لغرفتها، موضوع بها محرقة صغيرة الحجم وبجانبها عش لتربية جنس الأَفْرَاخ.. إنها حقا أم مثالية ولكن أحيانا الخوف يمنعها عن المجازفة المشروعة حتى لا تخسر ما حاولت الحفاظ عليه طوال عمرها، كمجازفة السفر لمأوى آخر عسى أن ينفرج باب الثراء أمام كفيها.. فما عاصرته والتحمت بقسوته لا يُنسى، إنها ابنة ضحى.. زوجة حارث الصياد، فقد سعى الرجل دون استهتار وبكل ما أُوتي من قوة كي يهرب برفقة أخيه الشيخ وقت نزول قوات الفرنجة على شاطىء العروس.. كانت هي ذاك الجنين الذي دافع عنه أبيه محاولا حمايته حتى قُتل، قُتل أمام حبيبته الشريفة التي رأت وليدة الشيخ تُغتصب أمامها ولم تكن قادرة أيضا على التوجه نحوها كي تحفظ حُرمتها.

راحت الأم تصارع ألم التصق بأعضائها العاجزة حتى فقدت الوعي كليا، بقيت نائمة على حصوات الصخر والسُحب الهائمة والنجوم المبعثرة.. الفجر طل على جسدها فاستيقظت مفزوعة، لم تجد بجانبها غير عائشة زوجة الشيخ.. والبقية زُهقت أرواحهم هباءا، دفاعا عن شرفٍ كان سيُدفن بين أحجار بيوتهم إذا بقوا.. ولكنه دُفن بين أتربة الصحراء المتناثرة دون علم أي من أحبابهم الذين تثبتوا ولم يرحلوا، ظلت ضحى مع العجوز يتنقلان بين القرى والمدن لعدة أشهر طامحتان في الابتعاد قدر الإمكان عن خطر لم يعرف أحد بعد مدى تطور مصائب نزوحه البائد للأمان.

حتى وصلا سويا لمشارف دمياط، بجانب مجموعة من البيوت المُطلعة على الأراضي الزراعية معلنين عن استسلامهما لروح هذا الموقع الذي قررا أن يبقيا فيه معا مستأمنتين بهدوءه.. عائشة، اعتنت بضحى قبل مجيء بركة لعالمها الجديد.. ظلت الأولى تعمل كخادمة بالنهار ثم تعود في الليل وهي تحمل معها رغيفين من الخبز وبرتقالة وكوب نحاسي مُغطى بقطعةٍ صغيرة من القماش به شربة لبن كي تتغزى عليهم الأخيرة كي تتمكن من الحفاظ على حملها، وأحيانا كانت عائشة تستخدم بعض أساليب النقاش الرزينة التي تعلمتها من زوجها عند محادثة الغريب حتى تتمكن من بيع الجبن والخُضرة في السوق كلما سنحت لها الفرصة لتملكهما.. إلى أن وصلت مؤخرا بركة لتلك الحياة الشاقة التي ستواجهها وحدها فيما بعد، لم يعطي لها القدر الفرصة لشكر السيدة عائشة ولا حتى لرؤيتها.. كونها كانت السبب في إنقاذ والدتها، فقد جاء الموت زائرا ليترك الطفلة مع أمها وحدهما دون سند يحفظهما من هول الدنيا.

حاولت الأم حينها أن تعود من جديد للإسكندرية، ونجحت بالفعل.. ولكن كل شيء قد تغير، العديد من البيوت هُدمت.. ومن بينها بيت ضحى، لأنهم كانوا يعيشون بالقرب من الساحل أثناء الغزو.. فقد استولى على موقعها أُناس آخرون، الوضع أصبح أمامها صعبا للغاية.. حتى أصدقاء زوجها لم تستطع العثور على أغلبهم، ومن توصلت له أعانها حتو وصلا لبيتٍ صغيرٍ ومناسب تسكن فيه مع ابنتها.. فاضطرت ضحى أن تلتحق بإحدى المهن الخدمية كما فعلت عائشة قبل موتها، ظلت هكذا حتى تمكنت من الإنفاق على صغيرتها.. بركة تعلمت الكثير على يد أمها، أي من حصيلة خبرتها خلال طريقهما العويص.. حتى صارت شابة تكد كما لو أنها رجل يكافح بلا تهاون، وحينها تقدم لخطبتها الكثيرون.. صبية موزعي المؤن، عساكر كبار القادة، مساعدي رجال الوزارات.. لكنها كانت ترفض قبول الرغبة الفطرية بكل محبٍ فُتن برونقها، ببساطة لأنها انكبت على مراعاة كيان والدتها الذي هلك من فرط الضجر.. فعندما قرُبت على الوصول لعمر الثلاثين -وبالنسبة للأنثى في هذا الزمان، تأخر زواجها لتلك اللحظة العمرية الفارقة يعني أنها لن تنعم مستقبلا ببيتٍ يحفظه رجل- خشيت ضحى أن يُعاير أحد معارفها ابنتها بسبب عدم التقائها بتوأمها الروحي، ورغم أن متعة الحياة أحيانا توثب بعد مرحلة الزفاف إلا أن عُرف النساء المُتبع حتم عليهم الحفاظ على سُمعة أبنائهن.

ففي غضون طواف بركة صباح أحد الأيام بين أعداد أهل المدينة كي تصل مسرعة لخدمة زوجة شيخ اعتادت أمها على أن تُعينها في مهام بيتها، تفاجئت عند حضورها بوجود رجل آخر بالبيت.. تنهدت عندما دخلت عليهما، فقط كانت متعجبة لسبب جلوسه ملتصقا بهذه السيدة في غياب رب المنزل.. فتجاهلت الأمر ثم توجهت للداخل حتى تبدأ عملية التنظيف المعتادة، حينها لمحت هذا الرجل الدخيل يحدق إليها بشراهة وإمعان.. حاولت أن تتهرب من مراقبته، وظل هو يختلس بعض النظرات دون خجل.. طالت مدة الحديث بينهما، حوار دام لثلاث ساعات متواصلة مليء بالهمهمة المشوقة.. حتى جاء موعد رحيلها بعد آذان العصر، فقبل أن تغادر باب الدار رمقته يُقبل رأس سيدتها ويحتضنها.

الأمر كان غريبا، ويستدعي التفكر فيه.. لكنها وللمرة الثانية تجاهلت وجدانه تماما، فعادت لأمها مجددا وظلت تنظف البيت معها حتى استرقت لحظات من النوم إلى أن نبغ صباح اليوم التالي عليهما.. وريثما تأهبت لاستكمال مسيرة عملها، تفاجئت بحضور شخص ما يطرق باب بيتهما.. ففتحت ضحى على الفور، وهنا شهقت بركة من شدة الفزعة.

– ألا تسمحين لي بالدخول؟!

كانت زوجة الشيخ هي المتحدثة، ولكنها لم تأتي إليها وحدها.. فخلفها كان يقف ذلك الرجل الذي احتضنها بالأمس، فراحت تسأل شابتنا فضولها مرارا عن كينونته وعن سبب تقربه لهذه المرأة رغم زواجها من الشيخ الجليل وعن سبب وجوده الآن عندها من الأساس.

– أعرف أنكما تعيشان هنا وحدكما، لذلك أبلغت علي.. أخي الأكبر، ألا ينضم إلينا وينتظرنا بالخارج

ابتسمت ضحى بشأن حُسن خُلق السيدة وقالت:

– تشرفنا بحضوركما بالطبع، كرم الضيافة يتوجب علينا تقديمه إليكما في عُجالةٍ إذا.. إنها طلتكما الأولى علينا

– لا، أستسمحكِ أن نؤجل هذا التشريف حتى نُنهي حديثنا

– حسنا، فلننتظر قليلا

ثم تنهدت لتُكمل:

– لكن أخبريني أرجوكِ، ما سر عبوركما نحو بيتنا الفقير؟!

ردت السيدة مبتهجة:

– علي، عاد من سفره المتكرر أول أمس.. مغامراته دوما شيقة للسعى خلف مكسب رزقه، فكانت الآن لحظة استقراره الوفي.. بيتكما اغتني بكرم واحتشام بركة يا أختاه، وهاتان الصفتان ما قد أجبرا شقيقي يوم أن رآها على المجيء معي كي يطلب منكِ الموافقة على اقترانه بها

ارتعش قلب بركة وهي تستمع لما قيل منتظرة بالداخل، الرجل كان أخ السيدة.. وذاك الأخ يود أن يصبح زوجًا لزوجة، ومن الزوجة؟! بركة، لهذا اختلج قلبها وكأنه يد تتأرجح أصابعها.. بعد قسوة السنوات على نفسها، كافأها **الله** بمحبة تاجر قرر أن تكون هي عشقه الأبدي.. وبالفعل، تم العُرس.. فعاشا بالإسكندرية لمدة ثماني سنوات، وتأخرت عملية إنجابهما لطفلٍ يُعطي لحياتهما مذاقا، حتى ظنا أنهما لن ينعما بذلك الرزق أبدا.. ولكن تحقق الحُلم بعدما دعى الأب خلال شتاء يومٍ تيقن فيه أن الدعوة ستوصلها الملائكة بينما كان يدمع ساجدا، فأجابه **رب** السماوات وخلق لهما جاسم.. ولكن فرحتهما أصابها قانون الحياة القاطع في الدنيا، الموت.. فهذه المرة كان من نصيب ضحى، المرأة التي إزداد عمرها لحدٍ جعلها تنتظر تلك النتيجة دون

خشية.. الأمر كان مريرا على قلب بركة لقوة الرباط بينهما، لكن الحياة لم تعط لها فرصة للإنهيار.. ونظرا لمتطلبات مهنة **علي**، اضطرت أن ترحل معه للعيش في القاهرة مصطحبة المولود الصغير.

أَخطار الزوج كانت عديدة، وجميعها ناجحة.. صفقات تجارية تتابعت برزقها ألزمته على السفر دوما، فاشترى لها بيتا وجعلها ملكته.. وصارت هي ترمح فيه لُعبا مع جاسم طوال الأسبوع، وفي نهايته يصل إليهما العمود الراكز للبيت كي يستمتع معهما بالنعيم الأُسري.. ثماني سنوات من الرخاء قاطعها حادث مؤسف، حادث أصاب قلب بركة بالرعب.. غرقت المركب المحملة بالبضائع إبان حلقات الفيضان الموسمي للشتاء، نداء الطبيعة لا متحكم في مساره غير المولى.. وهو **الأوحد** الذي لجأت إليه وهي تبكي ساجدة بعد أن وصلتها جثة علي، فمنظر الجثمان الموضوع بالروضة أدهش جاسم أثناء دفن والده من قِبل قرائنه.. لأول مرة صبي يرى مرقد أعز صديق لقلبه بعد موته، كانت الحفرة مسكنا مظلما وضيقا.. ليُصدر شعور يوحي بأن لعنة الموت ستُزعزع ثقته إلى أن يلقى وجه **ربه**، فعزم حينها على أن يُخلد اسم كبيره غير عابىء بتخوفات أمه المستقبلية.. لم يكن على دراية كاملة بحجم المشقة التي كان سيواجهها برفقة والدته لحفظ إقاتهما إلا بعد أن قل مخزون المال المتبقي، وعندما دقت أجراس الفقر.. اجتاح معها الأسواق في عجلةٍ، ساعيين بحثا عن غذاءٍ لا يكبح جوعهما مطلقا.

الفصل التاسع عشر

دائما يكمن بعمق كل نفس عدة صفات عنيدة بإمكانها أن تُثير الدهشة لكل من يلاحظها، فمراقب الدولة في هذه اللحظة حدد هدفه متهورا وأجبر من حوله على اتباع أوامره.. وبالطبع الجنود البلهاء يُنفذون الأوامر بلا نقاش، لكن هنا الإخوة اتفقوا في النسب ولكنهم اختلفوا كثيرا في الأسلوب التفكري الخاص بكلٍ منهم رغم كونهم نشأوا معا.. هيو تربى على التفكر المستمر ودراسة توابع ما سيُقدم على فعله، أما هنري وجانوس تربا سويا على الإنقضاض المفاجيء وعدم التفريط في المنحة التي جلبت إليهما الربح المُرضي.. قراراتهما لم تكن عادلة ولم يكن لهما وجه حق في اتخاذها، لكنها لم تحرمهم الثلاثة من الاحتفال المؤقت.

– هل كنت متيقنًا من قرارِك يا جانوس؟! تصرفك متهور، متهور للغاية.. أسوء مما توقعته في البداية

ضحك جانوس ثم قال مستهزئا:

– أنت تعلم يا هيو أنني أتفنن في اصطياد الفرص لإيذاء عدوي، إنها الطريقة المثالية للتعامل مع أصحاب ذاك العرق خاصةً أنه يسهل علينا مباغتتهم

رد الأسقف وعلامات التوتر الخفية قد ظهرت على وجهه:

– هؤلاء القوم لن يتغافلوا ولو للحظة عن الأخذ بثأرهم، سيرُدون على هذه الضربات الموجعة خلال الأشهر القادمة

قاطعه هنري:

– بالطبع سيحاولون فعل ذلك، ولكن صغار جيشنا سيتصدون إليهم بقوة.. بل وبكل سهولة، هم مندفعون وأسرارهم تُفضح إلينا دون مشقة

ابتسم الملك ثم اقترب من أخيه الخائف:

– إن هاجمونا كما تخشى، سنحرم من يتبقى منهم حيا من العودة لأرضه مرة أخرى

تسلل القلق تدريجيا لقلب هيو فقال:

– هكذا نحن من نندفع، إن ظللنا هكذا لن يبقى الأمان حاميا لصدورنا

تنهد يوچين جالسا على الكرسي الأيسر للطاولة، ثم قال ناظرا للأسقف وهو يقهقه:

– أراك متشائما دوما يا كبير الأساقفة بلا داعي، فكر في العائد ولا تظل متكاسلا.. روح المغامرة تسيطر علينا دوما

أردف جانوس:

– هو يفكر بمضمونية عُرفها التريث وقتما يصيح من حوله، كما تعلم في الصومعة منذ أن كان مراهقا

فالتفت هنري إلى أخيه المتحفِظ ساخرا:

– التريث أم الكسل هو ما يقودك أيها الجبان ؟!

فور انتهاء دعابته دخل عليهم جميعا سيمون وهو يتحرك كالأطفال المبتهجين نحو جانوس، ثم انعطف إليه بعظامه العريضة احتراما لمكانة الأخير.. ثوانٍ وأعاد ظهره لوضعه الطبيعي في ثباتٍ مجددا كي يقول مسرعا:

– جميع الغنائم والتلفيات السلطانية الثمينة قد تم تقسيمها في ساحة القلعة منذ ساعات كما أمرتنا جلالة الملك

ليتساءل هيو في رهبة:

– والخسائر، هل كانت كثيرة ؟!

رد سيمون:

– طفيفة يا سيدي، الغنائم أكثر بمراحل.. حتى أن مقاومتهم كانت ركيكة، لم نتوقع ضعف ثباتهم لهذا الحد

وقف جانوس متجها نحو سيمون:

– بماذا أخبرَك الرجال؟ هل لاحظوا هناك أي سفن عسكرية يتأهب قادتها للإبحار بها تجاه ساحلنا؟!

فقال قائد المراكب الحربية في ثقة:

– أطلعوني أن بعض السفن ضعيفة الهيئة حاولت أن تتبعهم بعد إتمام العملية بساعات، ولكنها كانت كثيرة وبعيدة.. لذلك فضل الرجال العودة لسواحلنا مرة ثانية

ابتسم يوچين قائلا:

– والآن، يجب أن نحتفل بإنجازك المُحكم يا ملكنا

تبعه سيمون على الفور:

– نحتفل حتى قبل أن توزع السرقات على كبار أهل الجزيرة؟

أعاد النظر إليه جانوس في غضب تام ثم اتجه نحوه قائلا:

– لا تقل كلمة سرقات بتاتا أمامي أو أمام أي من الرجال أيها الغبي، هم رعاع.. إنها ملكنا نحن، نحن وحسب

تراجع القائد البحري للخلف عدة خطوات ليقول وهو يرتعد:

– فلتغفر لي حضرة الملك، لم يكن هذا مراد ما وددت قوله.. خطأ عفوي، لم أنتبه لما تفوهت به بسبب سعادتي المُفرطة

اقترب هنري منهما ثم دق بقبضته على كتف سيمون:

– تخاف أن تحمل على ظهرك همّ الخسارة، أليس كذلك؟!

قاطعهم الأخ هيو كي يمنع احتدام النقاش:

– لا داعي للثرثرة، فلتفعلوا كما قال السيد يوچين.. أكملوا احتفالكم

امتعض سيمون من تصرف ملكه، كان يفتخر منذ قليل بنجاح خطته والآن يُهان من أجل ماذا؟! شعارات جانوس وأخيه المتغطرسة، والتي قتلت فرحته بانتصاره المهيب.. انتصار على هيبة ذلك السلطان وقواته الكامنة في سرائرها، فقد تعمقوا بداخل مسار نهرهم ولم يستطع أن يوقفهم أحد.. أصابوهم للمرة الأولى عند البحر المالح ثم استكملوا مهمتهم ليكبدوهم الخسائر عند مجرى الماء العذب بدمياط، يا لعظمة بطشه.. المسؤول الأول عن قيادة القوات البحرية لم يخف وخطط لتنفيذ أوامر ملكه جيدا، بل كان يطمح لما هو أكثر كي يُطفىء نيران الغزو التي تدفع روحه لتحقيق ما عجز عن فعله الآخرون.. إنها لمحات التوغل لنيل النجاح من فم الحفر التي تضعها الدنيا أمام كل مشاكس يود أن يتسلط باسمه على أشرعة السفن، فلماذا صرخ ملكه هكذا في وجهه؟! بالرغم أن أخاه هنري قد ذكر من قبل أنها عملية سطو متعمدة، ولم يجرؤ على إيذائه لفظيا.

الفصل العشرون

ما زالت تُداعب ذهنه، وما زال جنونه يحثه على الذهاب إليها.. في المرة الأخيرة من حديثهما كادت أن تسُبه، هي فعلت ذلك بالفعل.. ولكن الأحرف خرجت من فمها بصوتٍ هادىء، وجهها كان ملائكي أثناء غضبها.. كادت أن تسقط أرضا وهي تتحدث، وعندما كافأه الحظ برؤيتها مجددا بنفس الموقع وقتما جاء -رفقة شبان آخرين- للأمير تيمور كي يختبر قدراتهم البدنية التي ستؤهلهم للالتحاق بكتيبته.. لم يتمكن من التحدث إليها، لمحها تتناقش مع والدها كما فعلت سابقا.. ففي هذه المرة لم يكن يُعنفها، بل قبلها وربت كتفها ثم أشار إليها حتى تبتعد عن هذا المكان نظرا لكثرة الحاضرين فيه.. وقبل أن ترحل انصب نظرها على جاسم، فابتسمت.. وفي غضون ثانية أو أقل أبعدت رأسها كي لا يلاحظ إعجابها الخفي بجراءته، وبالفعل لاحظه.. كاد أن يصرخ من شدة الفرحة، كاد أن يترك ذلك الجمع كالطفل ويكركض نحوها.. لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة وتمسك بغرضه الأول، عسى ألا يفقد تركيزه بسبب تفكره المتكرر نحوها.

مر ذاك الأسبوع، وقرر ألا يتخاذل في حق الوصول إليها.. فاتبع والدها ليلا دون أن يتفقه الأخير لما يفعله،حتى علم بموقع البيت المحدد.. وراح ينتظر خروجها من المنزل في صباح إحدى الأيام حتى يتكالب عليها بعاطفته، يود فقط أن يتناقش معها.. لا يعرف ما الذي سيقوله، ولا يعرف كيف سيقنعها بأنه ليس ذاك الشاب العربيد الذي يلهث خلف الفتيات.. وفجأة خرجت بالفعل باكرا متجهة نحو بيت آخر خاص بجيرانها، فاستنتج أنها اعتادت على الذهاب إليهم دوما.. تراجع وتقدم، انتظر قليلا ثم تحرك.. عليه أن يتخذ القرار بالإقدام في التو واللحظة قبل أن تدق الباب بكفها، لكنه يخشى أن تصرخ في وجهه.. دقيقة تلو دقيقة، إلى أن تسارعت خطواته نحوها.

– أرجوكِ استمعي إليَّ ولا تخافي

أصابها الفزع وظلت صامتة نظرا لهجومه المُرعب هذا:

– أنا لا أملك الجرأة على القيام بما أفعله الآن، ولا أدري كيف أتيت إلى هنا.. لكني أتمنى رؤيتكِ طوال الوقت، أتمنى فقط أن تستمعي لكلماتي.. نعم، أطمع في الاستيلاء على روحكِ.. جمالكِ يتحكم في ذهني، ولن أرضى أبدا بخسارته

بقيا يحدقان في عيون بعضهما لمدة دقيقة كاملة، حتى تسربت بعض الأحرف من فمها:

– من أنت؟ ما هو اسمك؟!

– اسمي جاسم، جاسم الذي يعشق ياقوت.. شاب فقير يتمنى التقرب إليكِ

انقطع شرودهما عندما استمعت أذنيه لاقتراب شخص ما بداخل البيت، على الأرجح كان سيهم بفتح الباب.. فهرول جاسم مسرعا حتى لا يراه أي من الأُناس ويخبر والدها بفعلته هذه، حينها سيُقضى نحبه دون أن يتمكن من الدفاع عن نفسه.. وبالفعل، افتتحت سيدة مُسنة الباب على مصراعيه لكي تستقبل ياقوت.

– سامحيني يا عزيزتي إن لم أدعكِ تدخلين إليَّ منذ قليل، فلم أستمع لدقاتكِ بسبب ضعف سمعي

ردت هذه المندهشة في توترٍ جليّ:

– لا، لا داعي للاعتذار.. لم أقم بقرع الباب حتى

وجدتها العجوز تنظر بعيدا فاقدة تركيزها تماما ثم تُعاود الالتفات إليها مرة أخرى، فحاولت أن تلمح ما يُشغل بصرها:

– ياقوت، هل تنتظرين قدوم أحد؟

ظهر على وجنتيها علامات الدهشة من واقع السؤال البسيط:

– من، لا.. بالتأكيد لا، أنا لا أنتظر أحد

فضحكت العجوز وأمسكت بمعصم ياقوت لكي تدفعها للدخول:

– لا تكذبين عليَّ، فأنا لست والدكِ ولن أعاقبكِ

تفهمت تلك المرأة أن هذه الماثلة أمامها تُخفي شيئا عن الجميع، ولأنها تمتلك من الخبرة عن الحياة الكثير.. شعرت بأن الأمر يتعلق بقلب هذه الصغيرة، لذا احتوت الفتاة المُذبذبة بابتسامة هادئة كي تطمئن إليها وتسرد كل ما قد حدث بلا رهبة.

الفصل الواحد والعشرون

التمهيد على مر الدقائق، فن لا يُتقن تنفيذه غير القليلين.. يعلم أنها سترفض، وستصرخ.. ثم تضربه على وجهه لتُلقي بالغطاء على جسده كاملا حتى ينام ويكُف عن تهوره، فملاحظتها لأفعاله دون أن يغفل جفنها عن رؤيته لن تدع أمامه فرصة للإفلات من ترقبها.. الكذب، يعتبر المنفذ الراسخ لتقبل الأمر.. بل وتدعيمه أيضا، فعليه التحدث بلا خلل أو توتر.. هو ليس بصغيرٍ كي يخشى رد فعلها أو ينحدر تحت أوامرها، ولكنه يعلم أنها تستنفر من تأثير شهوات العمر عليه حتى لا يسرق من سنوات عيشه الكثير.. عادت بركة للبيت حاملة فوق رأسها سبتا يستوعب بقايا ما استطاعت بيعه في السوق، لذا تحرك جاسم نحو أمه ليأخذ السلة منها في عجلةٍ كي تجلس وتتحكم في تتابع أنفاسها المتزايد بسبب إرهاقها الجسماني.

– اليوم كان حارا للغاية، أحضر لي شربة ماء يا ولدي أرجوك.. فليخفي **الله الحفيظ** أبداننا عن لهب جهنم

اتجه نحو النافذة ليُحضر القلة ثم أعطاها إياها:

– يجب عليكِ أن تتوقفي عن مواصلة دفع المشقة والكد مقابل صحتكِ، لم يعد بدنكِ يتحمل رفع هذه القفة مجددا.. ظننت أنني سأجدكِ حينما أعود، لو كنت أعرف أنكِ تتجولين في السوق لذهبت إليكِ

فأنهت فقرة ابتلاعها وقالت ساخرة:

– لو توقفت عن البيع كما تتمنى، للأسف سنعيش معا كالفئران نأكل ملابسنا حتى نشبع

داعبها بعدما تكشرت أنيابه:

– لسنا بفئران، ولا تقذفين كيانكِ بهذا التعبير إطلاقا يا قطتي المُشعرة

ثوانٍ وتبع حواره مستطردا:

– عندما أعود من مهمتي، سيتغير كل شيء.. أعدكِ يا أمي

لم تنتبه لما قاله، ولكنها استوعبت جملته بعد لحظات.. فنظرت إليه متربصة:

- أي مهمة تتحدث عنها يا جاسم؟! وما الذي سيتغير حينما تتم؟!

- أبلغني نفر من أصدقائي بشروعه في إتمام رحلة صيد لبعض الأسماك النادرة الكامنة بين البحر والنهر مع رفقائه، ويحتاج كبيرهم لعددٍ من الرجال

- وماذا تعرف أنت عن ممارسة الصيدِ؟ إنك لم تمارس حرفتها من قبل

التفت إليها بكل ثقة:

- هو أيضا أطلعني على كل المهارات التي يجب أن أستغلُها، وسيظل بجانبي طيلة الرحلة حتى لا أُخطىء كما تتصورين

لم تطمئن لإجابته مرة ثانية، لتتساءل:

- من الذي أطلعك على تلك المهارات؟!

أحس أن الشك قد داعب ذهنها، فتابع مسرعا:

- قلت لكِ صديقي الذي أعلمني بتلك الفرصة، اسمه يحيي.. ويسكن بعيدا عن هنا، قائده كذلك أخبرني ببضعة نصائح لأنه كان يقف معه أثناء إبلاغي

أردفت بركة في خبث:

- ومتى ستسافر إذا؟

- بعد أسابيع قليلة على ما أظن

صمتت لبرهةٍ حتى تتفكر فيما استمعت إليه ثم أكملت بلا اقتناع داخلي:

- تصيبني الرهبة من تلك البعثات الغامضة، ولكن ما دمت تسعى لخير قوتك.. فاذهب ولا تتهاون في حماية روحك، لو حدث لكم جميعا أي مكروه لن يكترث أحد بأمرك.. تذكر هذا جيدا، لن يكترث أحد بأمرك

فانحنى أمامها كي يُقبل رأسها وهي جالسة:

– أنتِ من ستكترثين بأمري، فأنا لكِ حتى في غيابي

تبسم ليُقبلها مرة أخرى:

– أي خادم يستطيع أن ينكر عظمة ملكته؟!!!

خطأ، ما فعله كان خطئًا كبيرا.. ستتضارب مشاعرها إن قُتل، ولن يحفظها أحد في هذه الدنيا غير **ربها**.. البكاء لن يحميها، ولا تأجيل اعتراضها سيصونه.. لقد اتخذ القرار، ونجحت محاولته للانضمام للجيش كجنديٍ أتقن أفضل سُبل الهجوم والدفاع بالسيف والخنجر المسموم.. انغرزت في روحه الحماسة، فعليه أن يصُب تركيزه الكامل نحو التلاعب بأسلحته التي سيتسلمها في الميناء قبل أن يُبحر مع زملائه.. مغامرة ستمنحه الكثير إن عادوا منتصرين، ستكون المكافأة مجزية.. بإمكانه حينها أن يمنح أمه قسطا من الراحة دون مشقة تُهلك صدرها المحاصر بنهج تعقب مؤن الرزق، وسيكون أيضا بإمكانه التقرب من ياقوت التي عزم ألا يحرم جسده من التطهر بوجودها فور لمس أصابعها له.

الفصل الثاني والعشرون

إنه اليوم الذي سيُحمل خلاله راية انطلاق أول مرحلة جديدة في تطور البحرية المملوكية والتخطيط الحربي، أمر برسباي نائب الإسكندرية الأمير **(أسندمر النوروزي)** بعد اجتماعه مع الأتابك وأمير السلاح رفقة ناظر الجيش بالإطلاع على احتياجات الجنود قبل تنفيذ المهمة الإستكشافية الموجب عليهم تنفيذها لمعرفة نقاط القوة التي يستند عليها جانوس وصُحبته.. بإرسال مركبتين حربيتين مسطحتين تدعيان السلنديات تحمل المقاتلة والسلاح إلى ميناء دمياط الذي يشمل بين مجراه نوعا آخر اشتهر في هذه الآونة أُطلق عليه الغراب، فمقدمتها على شكل رأسه وتستطيع إيصال الغزاة بالمجاديف.. لم يلبث الأعزاء كثيرا، فاتجهوا بفئاتهم إلى بيروت.. حيث انضمت إليهم السفينة الرابعة، ومن هناك أبحرت المجموعة بأكملها نحو طرابلس -بسبب موقعها الكوني الاستثنائي حيث أنها الواصل الحيوي بين الجانب المملوكي جهة لبنان والشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، فصارت مركزًا تجاريًا وعسكريا فعالا على مستوى المنطقة- ليلتحق بهم سفينتان أخيرتان كانا من نوع المسطحات والتي تُعتبر أهم داعم للأسطول آنذاك.. وبذلك أصبح عدد المجاهدين حينها ستمائة محارب، وبرفقتهم ثلاثمائة فرس تحركوا في أواخر ٨٢٧هـ/آب **(أغسطس)** ١٤٢٤م نحو ذلك الميناء الذي هبت منه عملية السطو المنقضية.

تيمور يقف عند الدفة يتابع الأمواج وتحركاتها تارة ثم يلتفت يساره بين كل حين ليتابع عيني جاسم متحفزا تارة أخرى، جمعتهما تلك السفينة لتتضح شكوكهما بكل تلقائية.. لقاء متوقع وكان في الحسبان بعدما نجح الشاب في اجتياز اختبارات المبارزة قبل أن ينضم لكتيبة تيمور، لكن الأخير يود أن يفترس الأول بأسئلةٍ تهكمية متراكمة.. أثار عناده بعدما تحدث معه خلال المناسبة السالفة باستخفافٍ لحدته، لم ينساه ولم يتغافل عن تعابير وجهه وبالأخص حينما كان يُقيم قدراته مع رفقائه.. فختم على نفسه بث الخيفة بين ضلوع الشاب الذي كان يتحرك نحو الجنود القُدامى ليتناقش معهم واحدا تلو الثاني والثالث، مكتسبا تلك الموعظة المشتقة من خبراتهم العديدة.. لاحظ جاسم أن قائدهم كان يراقبه، وبدأت تظهر إيماءات الارتباك عليه.. فقرر أن يتجه للجانب الأيمن من السفينة حتى يتفادى هذه النظرات المخيفة، يعرف أن الوالد غفل عن تحاركاته للتقرب من جوهرته وامتلاك قلبها البريء.. فلم يلبس أن وصل حتى تنحى تيمور عن موضعه ليمر من بين أقدام العساكر في ثقة تُرهب من يجادله، ثوانٍ ثم وقف ماثلا خلف المشاكس المرتعد.

– أشعر أنك تخاف مني، نظراتك متواترة.. يبدو أنك تخشى التحدث معي أيضا

التفت جاسم إليه ثم تراجع بخطواته قليلا:

– وما السبب وراء استنتاجك هذا يا سيادة الأمير؟

ابتسم تيمور في خبث:

– عليك أن تخبرني أنت بالإجابة على استفساري

– أظن أن عدم تفهمك للأمر سيُعقد الوضع تماما، فلا داعي لبدء النقاش

– عدم تفهمي لأي شيء؟!

في توترٍ واضح رد جاسم:

– جدارة حفاظ المرء على أغلى ما يملك، وأنت لديك الكثير لتصونه من جشع كل متربص

الشاب كاد أن يذكُر اسم حبيبته أمام والدها، لا يعرف كيف قام بالتلميح نحو كيانها دون أن يحافظ على حرصه وتحفظه أثناء حديثه.. هربت الكلمات من فمه، فأخرج الأمير حبلا سميكا من جيبه متجهزا لربط يدا جاسم.. ثم قال في تربص:

– الأغلى لقلبي هما شيئان فقط، ولا أكترث إلا بهما حتى موتي

تنهد الجندي ليقول في ثقة:

– أعتقد أنني أعرفهما، الشيء الثاني هو سيفك.. أما الأول، فهو...

قطع حديثهما فجأة رياح شديدة أفقدتهما توازنهما بعدما هجمت دون إنذار على جميع من في هذه الحملة، صدفة كونية خدمت الجندي وجعلته يهرب من النقاش مسرعا نحو زملائه لمساعدتهم في الحفاظ على ثبات الأشرعة.. وألهمت القائد بضرورة استعمال قوته للإمساك بالمجاديف الخشبية، ربما يُصدم القلب في هذه الأحيان ولكن على العقل أن يبقى متأهبا لابتكار أساليب النجاة.. العاصفة التي هبت كانت مباغتة على رواج الست سفن، لذلك لم يستطع الرفقاء تثبيت الأقمشة الشاهقة في موقعها.. ففي خلال ساعات، تفرقت المجموعة وردتها الزوبعة مجددا إلى السواحل الشامية.

الفصل الثالث والعشرون

تعطل الزحف لأيام عديدة والأخبار تخترق آذان الملوك والمسؤلين من كل جانب، ويبقى شعور من هم واجهوا الخراب بأنفسهم مختلف تماما عن هؤلاء المتفاجئون الذين يختبئون من هول الطامة تحت غطائهم ليلا.. متخذي القرارات ينامون على فراشهم ومنفذيها ينامون على متن ملائة الموت التي لن تُزدل إلا بعون **الرب** وحده، الجنود مُعلقين بين الأمواج.. وأهاليهم يظنون أن الأمل ما زال قائما على ضفة اليابس خاصتهم بعد أن سالت دماء أقاربهم منذ عدة أشهر وقت هجوم القبارصة، فبالرغم من ذلك إلا أن النتيجة الناهية للصراع الشرفي لم تُحدد بعد.. شرف يهان ضريبة دفن أجساد بريئة لم تكترث يوما بطموحات الطغاة ودناسة جوهرهم، لتبقى العقدة قائمة وعلى من انغمسوا بداخل حفرها إيجاد المهرب الأنسب للعبور منها.

لفظ أحد العساكر على متن السفينة التي يرأسها تيمور:

– لا أحد يعرف ما الذي سيحدث لاحقا، أخشى الموت غرقا دون أن أرفع سيفي نحو رؤوسهم

تبعه الثاني:

– يُعتبر كل ما تجهزنا إليه الشهور السابقة بلا فائدة، بشرى الانتصار كانت كذبة هذه المرة

أكمل الثالث متحمسا:

– علينا أن نترقب، نتيقظ ونترقب.. من المحتمل أن تخترق سفنهم هذه الضباب التي تحجب الرؤية عنا، وينقضوا علينا من خلالها

قاطع حديثهم تيمور على حين غرة عندما استمع لجُملهم، أراد أن يوقف شعور الإحباط عن التحكم في نفوسهم:

– لذلك آمركم الآن ألا تغفلوا عن مراعاة الخيول، حتى لا يُعد هيكلها من الخسائر إن عدنا لساحلنا مرة أخرى

فقال العسكري الرابع بامتعاضٍ:

– أبلغتمونا أيها الأمير أنه قد تم التخطيط لمواجهة كل شيءٍ يعترضنا، هل كانت تلك العاصفة في الحُسبان ؟!

ثم ضحك مستهزئا:

– أم أن المؤثرات الكونية باغتت عقولكم ؟

أردف زميله الخامس في سخرية:

– أظن أننا لم نقصر ولو للحظة في حق مهمتنا، لكن ما حدث لم يخطر على بال من كان يُخطط مطلقا

صرخ القائد في وجوههم على الفور:

– اخرسوا، ما هي قيمتكم في الحياة كي تتباهوا بأرآكم أمام وجهي ؟ التزموا الصمت جميعا

اقترب منه جاسم حتى لا يشتد الحديث:

– تراجع يا سيدي عن الانخراط في نوبة الحنق هذه، لا داعي للخلاف معهم.. الأمير يجب أن يتحلى بالهدوء بجانب رجاله، يكفي ما قد قيل الآن

ثم التفت للبقية حتى يُنبههم، يعرف مدى توابع غضب قائده ويخشى أن يسوء الأمر أثناء موقفهم الحرج:

– فلنتماسك الآن حتى يحل النهار علينا، واعلموا أن الصبر هو فقط مخرجنا

ضحك العسكري السادس وقال مقتربا لجاسم:

– النهار سيحل بالخرائب أيضا، هذا فقط ما يتوقعه الكل خلال لحظتنا الجارية

ألقى تيمور بسلاحه أرضا ثم اتجه نحو هذا الأخير في غضب، ليُمسك برقبته مستخدما أصابعه الغليظة حتى كادت أن تتوقف أنفاس العسكري:

- عهدت عل نفسي ألا أعود لمصر مجددا إلا بعد أن ننتقم من أجل كل أهل بيت بكوا بسبب فقدانهم لأعزائهم، أفهمت من أجل ماذا نشقى ؟!

التف حولهما عدة عساكر على الفور حتى يفكوا أسر صديقهم، وصيحاتهم تتضارب:

- دعه يا سيدي ستقتله، دعه
- إنه معتوه، يفتقر المعرفة لفروض الطاعة
- يتصرف كالطائشين

راح جاسم يصرخ في آذن الصاخب حتى يسمعه:

- إنها همسات شيطانية لا تدعها تتغلب على إيمان قلبك

ثوانٍ ثم ترك تيمور غريمه، ليقول للبقية صائحا:

- سنصل قريبا، وسننتصر.. لن ندع فاجعات الويل تحرمنا من نيل هذا الشرف، دعوا مشاعركم المتأثرة بالخوف هذه تغرق بين الأمواج

الصبر هو الحل، التحكم في ثورة الغيظ التي تسكن في نفوس جميع الفرسان وأولهم تيمور يجب أن يتم الحفاظ على انضباطها.. حتى تنتهي رياح الهم والشقاء، فحدوثها خير من مواجهة أسطول حربي مفاجيء يرسله جانوس إليهم حتى يُعيق تحركهم نحو أرضه.. ولكن ما كان حقا يُرهب الأمير، أن يصبح ذلك الوقت الذي مر هبة أعطاها الحظ لسكان المدينة حتى يستطيعون التمركز بين الأزقة وفوق بيوت الضواحي لكي يحصدوا أفضل فرصة تمكنهم من نيل النصر المرغوب إن اطلعوا على نيتهم وتحركاتهم.. أو ربما مدة يستقبلون خلالها الدعم الأوروبي الحربي، ليصبح هذا التوقع المُسبق السلاح الأجدر في القضاء على تلك الصحوة البحرية المُشتتة.

الفصل الرابع والعشرون

تجمعت الحملة من جديد، ثم أبحرت في أوائل شوال/أيلول **(سبتمبر)** من السنة ذاتها.. تيمور لم يكبح رغبته في مناكفة جاسم مجددا، فانتظر لبضع أيام بعد أن اعتدل الطقس وتحركت السفن صوب مرادها.. وأثناء عملية الزحف، اقترب القائد من الشاب -وهو ينظف الأرض الخشبية مع بعض من زملائه- وخلفه مجموعة من عساكره الموكلين باتباعه دوما.. صدفة قدرية حفظت جاسم من استجواب تيمور سابقا، الأول يخشى الاعتراف بحقيقة ما فعله تجاه ياقوت والثاني لا يعلم ماذا حدث.. ولكنه يود أن يطمس كبرياء ذاك الجندي بأي وسيلة، فقط لأنه تحداه بلسانه.

– أيها الجندي الماثل بعيدا عن زملائه، ما هو اسمك؟!

التفت إليه جاسم وقال:

– جاسم، جاسم بن علي

تلاعب تيمور بأصابعه على صدره وكأنه يدق بابا:

– جاسم!!! وما السر وراء اختيار هذا النعت النادر؟

ليُجيبه الشاب بفصاحةٍ:

– اسم يضبط صفة الرجل العظيم، وبالأخص.. ذو الحظوة فريدة المثيل

باستهزاءٍ ضحك والد ياقوت وشاور نحو رجاله:

– حسنا، ألا تود أن تُجرب بفصاحتِك المنازلة التنافسية التراثية؟ أظن أنك لم تلعب اللبخة من قبل وأنت صغير

ظل جاسم يُحدق في ملامح قائده لثوانٍ، ثم تحرك نحوه متحمسا:

– وأنا قبلت هذا التحدي، لنبدأها أمام الجمع بأكلمه

فوقف بقية الجنود مصطفين في حلقة كي يتابعون هذا اللقاء، اللبخة هي لعبة يقف خلالها الشخص المختار في الوسط ويلتف حوله عشرة من الرجال ليهجموا عليه.. فيمُسك هو بإحكام عصا خشبية حتى يردهم جميعا للخلف، وهذا ما قد حدث مع جاسم.. على حين غرة، بدأ اللقاء الذي لم تخفُت فيه مرونة الشاب عن أعين الجميع ولو للحظة.. فاستطاع أن يُسقط الأول ويدفع الثاني، فانقض عليه الثالث والرابع ثم أفلت منهما.. حاول الخامس والسادس أن يربطا قدميه، إلا أن لكماته كانت سريعة.. تراجع السابع قليلا ولكن الثامن دفعه حتي يستطيعا أن يُكتفا يدا جاسم معا، فأدهشهما ببراعته وقت التفافه بين ذراعيهما ثم أسقط كل منهما على الأرض دون أن يُحدث أي إصابة دموية لهما.. ففي هذه الوهلة استطاع الجندي التاسع أن يُمسك برقبته والعاشر أن يربط الحبل المُعلق في الأخشاب بقدميه، نظرا لصلابة جسديهما وضخامتهما.

فوجه جاسم بصره لتيمور الذي كان يقف مبتسما في سخرية، وكأن هزيمة الشاب في هذه التمثيلية التدريبية كانت غرضه المنتظر.. لتُستنار الغفلة الجدالية هذه بارتفاع صوت أحد العساكر من جهة الدفة قائلا:

– سيدي، هناك سفينة صغيرة تقترب إلينا

فتمركز الجميع في موقعه على الفور حتى اتضح هيكل الغرباء أمامهم، تمهلوا حتى أصبحت المسافة بين السفينتين قليلة للغاية.. لذلك، تأهب الرجال.. وفي ظرف قرادة، أظهر جاسم ورفقاؤه أسلحتهم ثم انقضوا عليهم بكل قوة لا توقفها مثابرة.. لم يستطع أولئك الأفراد المذهولين الصمود أمام كل تلك الضربات التي واجهونها في هذه الساعة، فاستسلموا.. لم يكن لديهم أي وسائل لاتخاذ قرار المقاومة، الاستسلام يعني النجاة.. والرجاء بالرحمة ربما يدفع من هاجموا للشعور بالشفقة والعفو عن من تبقى، إن حدث هذا كرما من راكبي مسطحات برسباي.

فوقتما هدأت الاشتباكات، أمسك جاسم بأحدهم -الأقوى كبنية جسدية- وسأله في شراسة وهو ينطق بعض أحرف لغتِهم اللاتينية.. مما أثار دهشة كل من كان يقف ليتابع هذا النقاش:

– من أنتم ؟! وما الذي دفعكم للتوجه نحونا ؟!

كيف ؟! سؤال دار في ذهن تيمور وبقية العساكر أيضا، كيف تمكن من التحدث معه مستخدما هذه اللغة وبهذه الطلاقة ؟! وهنا رد المأسور عليه في خوف بلهجته الأصلية:

– نحن تجار الجانب الشرقي للميناء، ولا نسعى لتخريب أي من ممتلكاتكم الخاصة أبدا

فصرخ جاسم:

– لا تكذب أمام شفتاي وتحدث إليَّ دون ملاوعة، من الذي أرسلكم إلينا؟!

أجابه الرجل مسرعا:

– أقسم **للرب** أننا فقط تجار عُزل لا نملك أي أسلحة، كان من المفترض أن نسترد بضاعتنا من الجانب الساحلي الآخر ونعود مجددا

– ومن هؤلاء الذين كانوا يحملون الأسلحة لمواجهتنا؟

شاور المرتعد تجاههم:

– حراس مأجورون، نستعين بهم ليحفظوننا من صخب كر القراصنة المتتالي على مبيعاتنا

– حسنا، سنحبس من تبقى منكم معنا لنتأكد مما تقوله الآن.. فنحن لم نعتاد على تصديق ما تتفوهون به

تشبث هذا الضعيف بذراعه:

– أتوسل إليك، دعنا نرحل.. خذوا كل ما بحوزتنا ودعونا نتحرك صوب بيوتنا، لا داعي لإيذائنا يا سادتي الكرام

دفعه الشاب مبتهجا وقال:

– وجودك أنت ورجالك برفقتنا، فرصة لا تُعوض

قاطعه ذاك المتوسل وهو يدمع:

– كن رحيما معنا

– سأُصبح، إن نفذتم ما أطلبه منكم

ثم تركه جاسم واتجه نحو تيمور ليُبلغه:

– يمكننا أن نستغلهم حتى يُطلعوننا على بعض المعلومات الخاصة بمعالم الميناء المنحنية ومخابئه

بدأت شرارة الغيظ تتضح في أعين من حوله، فما فعله سيجعله يتقرب للقائد رغم أنه لم يدُم طويلا معهم في تلك الكتيبة.. قدرات ذهنية جيدة ستمكنه من التواصل مع العدو، وستدفعه أيضا لفرض كيانه على السيد تيمور لأنه حتما سيعتمد عليه.. استمع إليه والد ياقوت وظل صامتا لبضع لحظات مندهشا من قدرة الشاب - الذي حاول إيذائه منذ قليل لمجرد أنه أثار استفزازه- على محادثة القبرصي مستخدما لغته الأم كما فعل بسلاسة لم يعهد إليها من قبل مع أي من جنوده، فوافقه الرأي بتحفظٍ:

– جيد، ربما يوجهوننا لأقصر طريق نستطيع أن نتوغل لمعقلهم من خلاله

ثم اقترب من قمة سفينته ونادى رابطة عساكره قائلا:

– يا رجال حملتنا المُفزعة، استعدوا.. فقد قرُبنا على النزول بأقدامنا على بر أرضهم الساحلية

لينشر بقية الجنود همسة العزم:

– أسرعوا

– نفذوا ما أمرنا به القائد

– علينا أن ندفع المجاديف بقوة

– اربطوا أيدي الأسرى جيدا حتى لا يفروا

علامات النصر جعلت جاسم يشعر بأنه صاحب القرار، استنشق اليود المالح ثم التفت ليجد تيمور ماثلا أمامه مجددا كما كان قبل الهجوم.. فسأله الأخير مستفسرا:

– أين تعلمت هذه اللهجة اللاتينية ؟!

ابتسم الجندي:

- عملت كصبي للعديد من التجار الأجانب الذين كانوا يترددون على السوق منذ طفولتي، فالتقطت من أفواههم الكثير من تلك المصطلحات حتى تعلمت أُسُسها.. وفي الحقيقة أحدهم تولى هذا الأمر لأنه كان عجوزا وأنا من كنت أحرص بضاعته، فصار يُحفظني العبارات بنفسه حتى أطلعني على أهم مفرداتها لكي أتواصل معه بكل سهولة

فاقترب تيمور منه في تربص:

- أنا أحترم من يستغل الفرصة ويتفهم ما يختلف تماما عن طبيعة ثقافته

ثوانٍ ثم أكمل:

- ولكن لا يفلت من قبضتي من يحاول التلاعب بأفكاري

يد جاسم اليسرى كانت ترتعش، بل وقدمه اليمنى أيضا.. عيناه كادت أن تُغلق حتى لا يرى فم تيمور وهو يأكل رأسه، هنالك لم يعُد مقتنعا بضرورة الفرار من المواجهة.. سيقتله، حتما سيقتله إن تفوه بكلمةٍ متعلقة بابنته.. لو علم أنه تحدث إليها بالفعل، سُيلقيه في المياه ليموت غرقا.. ولن يسمح لأحدٍ بالتحرك لإنقاذه، لكن أمرٌ إلهي بداخله بث في نفسه الشجاعة، جعله يتخذ القرار في أقل من ثانية عابرة.. بعدما يتفوه بكلماته سيعرف النتيجة، فلا داعي لتعطيلها.. لذلك قاطعه المُحب متغلبا على جبنه:

- سأتزوجها، أخذت عهدا بيني وبين كبرياء نفسي على ألا أدع أي شخص غيري يتقرب إليها.. وأخذت أيضا عهدا آخر على نفسي بأن أجعلك تؤمن بصدق ما يكمن في قلبي، أنا لست بلصٍ أتى ليخطتف ابنتك.. أنا فقط رجل يتمنى أن يحفظ عمره بطهارة بِكر عفيفة، تعرف عن طيب الخُلُق ما يجهله غيرها

الأب لم تتغير ملامح جبهته، لم يتأثر حسه الافتراضي.. ولكنه شعر بصدق تلك العبارات المتشابهة لأبيات الغزل التي كان يُلقيها العساكر بمختلف البلدان التي حارب فيها من قبل، لأول مرة يسيء الظن بشخصٍ يقف بمقابلته رغم حسه المضطرب.. الأمر بالنسبة إليه يتطرق إلى جانبين، إما أن يقتنع بما قيل أو يرفضه برمته.. والآن هو يقف على قدمٍ واحدة بين الحافتين ولم يحدد رد قلبه على ما قد استمع إليه بعد، فترك من كان يُحدثه دون أن يضربه على وجهه بقبضته أو حتى يأمر بحبسه.. فقط تركه مبتعدا عنه في محاولة منه لتدارُك الأمر، عسى أن يبحث عقله عن ردٍ مناسبٍ على ما قد قيل.

***

حرقوا سفينة التجار واستولوا على ما بحوزتها من بضائع، فكانوا قد وصلوا إلى منطقة رأس إلياق التي تقع بالقرب من ليماسول الساحلية.. ثاني أكبر مدينة بقبرص، حيث أنها توجد بأقصى الجنوب الغربي.. ثم اتجهت الحملة بأكملها صوب هذه البقعة، والتي فوجيء المجاهدون على أطرافها بحضور ثلاثة سفن كانت مجهزة للإغارة على السواحل الإسلامية.. لم يلبث البواسل في موقعهم كثيرا، فاستطاعوا تملك العتاد المحمول عليها والتخلص من هيكلها الكُلي عن طريق إغراقها حينما أسروا من كانوا على متنها قبل هروبهم.

فخرج لهم سيمون كقائدٍ للقوات الصليبية، ملتزما بضرورة وجوده بالقرب من تلك المراكب المجهزة التي لم تتحرك من موقعها قبل وصول آل برسباي.. كان مع البحري سبعين فارس وثلاثمائة رجل، لكن مجموعة تيمور التي ربطت صفوفها بمقدمة الحملة.. استطاعوا أن يردوه قتيلا مع عددٍ كبير من أفراد عسكره، ففي تلك اللحظات الحماسية أظهر جاسم براعة لم يكن يتوقعها والد حبيبته ولا حتى الجنود المقربين إليه.. إنها الرحلة الحربية الأولى بالنسبة إليه، ففرض على نفسه مديونية تُرغمه على أن يُحدث جدلا بين ألسنة المحاربين ريثما يهلل بعد كل طعنة ينجح خلالها في إزهاق روح كل جبانٍ يلاقيه.

– الله شاء، الله شاء

وبعد وصولهم لحصن مدينة ليماسول المجهز، علم الشاب على الفور أن وقت محاصرة المدينة سيطول بسبب ثبات هذا المعقل.. لكونه جدارا منيعا لقواتهم، فخلفه كنيسة القديس چورج التي شهدت الزواج التاريخي لملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد قبل أن يبيع الجزيرة بأكملها للفارس الفرنسي غي دي لوزينيان والذي انحدر من نسله بطرس وجانوس.. متاريس بشرية وحديدية يصعب تحطيمها إبان تلك الهنيهة، فكان جاسم أول الناصحين من مجموعة تيمور بضرورة التراجع رغم الميل الجامح للأخير في استكمال الحملة الناجحة.. أيام قليلة من الانتظار حتى أيقن كبار قادة الحملة بأنه لا مفر من العودة مرة أخرى إلى بلادهم حتى لا تصبح الفرحة خيبة في لحظةٍ غير متوقعة، فاتجهوا عائدين في النهاية بسفنهم نحو ميناء دمياط حاملين على عاتقهم كمية لا بأس بها من الغنائم وعدد من الأسرى تعدد المئات.

الفصل الخامس والعشرون

اللقاء أسبوعي، ولا يمل منه أي من الفتية.. جميعهم يتشوقون لسماع المزيد، يعلمون أن ذلك الرجل قد غاص في بئر الحواديت والحقائق التي لم يصفها التاريخ إلا بتسلسل المعلومات المتداولة على لسان بعض من المؤرخين القدامى.. يعرفون جيدا أن معلمهم على دراية كاملة بالأكاذيب المطروحة، لذا دائما يتشبث بالدلائل في بداية بحثه.. فالمزيد غالي الثمن، وحمله على القلب يُشعر صاحبه بفرضية إتمام مهمته على أكمل وجه.. لكن، من هم المستمعون؟! ربما الفتي الذي ينصت لما سوف يُعلمه لغيره لاحقا، أو الشاب الذي يتفاخر بمعلوماته أمام من تناسوا تاريخهم وصبوا تركيزهم الكامل نحو تجارتهم.. أو الصبي الذي يحاول تفهم المبادىء التي يتحدث عنها مجتمعه دوما، لا ملل ولا كد.. الكبير يعشق مهنة التنوير الدقيق والصغار يعشقون دفعة التدبير والاستفسار المتكرر، أي أنهم على علمٍ تام بقيمة سرد الأفعال الروحانية التي تعمد أن يفعلها الأبطال من مختلف البقاع بمختلف الأزمنة.

- سؤالي هذه المرة عن ذُروة الغرور يا أبنائي، أبلغوني عنها إذا.. لعل آرائكم تضيف إليَّ ما لم أترقبه سابقا

بادر الطالب الأول:

- التباهي بفضلٍ يملكه المرء ويفتقره الآخرون، أي نِعَم نادرة احتفظ بها واكتسبها على غير عادة أقرانه

تبعه الثاني:

- السخرية من هبة **الله** لعباده، هناك الكثير ممن يفعلون ذلك لأنهم لا يكترثون بقيمة النعمة التي يملكونها بما أن قدرها في نظرهم محدود

أردف الثالث:

- محاولة إثبات صاحب تلك الصفة بأنه الأفضل، على ما أظن أن تلك النزعة تنشأ بداخل المرء منذ صغره

فأكمل الأخير:

– هذا أسوء شعور لا يتملكه إلا من استحوذت قدراته على موهبة يفتقر إليها من حوله، فيتعالى عليهم حينما يلجأون له كي يُعينهم

ابتسم الميقات واتكأ على يده اليمنى ثم قال:

– حسنا، سأُطلعكم اليوم على سر سؤالي.. أنصتوا ولا تتجاهلوا التفاصيل البسيطة التي تهرب بين الجمل

قاطعه الطالب الأول:

– اعذرني أيها المعلم، لكن ما هو رأيك فيما أمرتنا بالتحدث عنه؟! نود أن نعرف إن كنا على صواب أم لا

ضحك الريان:

– بعد أن أسرُد الحدث المصيري عليكم، ستعرف يا ولدي.. لا تتعجل لمعرفة زبدة حِكَم نقاشنا

رد الطالب الثاني مسرعا:

– إذا، فالنبدأ على الفور.. نتتوَّق جميعا لمعرفة ما تُخبئه الأحداث التي ستُمليها علينا

فاقترب منهم المعلم وهو ما زال بمجلسه ثم قال في شرودٍ:

– حُنَيْن، غزوة حُنَيْن.. تلك الغزوة التي ظن فيها المسلمون أنهم لن يحتموا بالخوف أبدا حتى موتهم، فقد خرج مالك بن عوف النصري سيد قبيلة هوزان رفقة رجاله وأقنع عدة قبائل أخرى بالذهاب معه لمواجهة نبي **الله** الشريف

رفع أربعة أصابع ليحدد أسمائهم:

– منهم كانت قبيلة جشم وقبيلة مضر وثقيف، وأيضا بعض من أفراد بني هلال

فتساءل الطالب الثالث:

- كيف جرُؤوا على مواجهة سيد الخلق بن عبد **الله** رغم علمهم بثبات نظام جيشه حينها عما سبق؟! وكيف فعل مالك بن عوف ذلك والكل يعلم أنه أحد أفراد الصحابة؟

قال الريان متحمسا:

- فعل كل هذا قبل أن يُعلن إسلامه أيها الفتى، واستغلالا لفرصة انشغال المصطفى بشئون قومه.. إبان هذه الحقبة كان أحبة الإسلام ينشرونه بين البلدان، ويتوسعون في إمداده لأقصى الحدود.. فقرر حينها الرسول أن المواجهة ستكون خارج أرض مكة حتى يتفادى مساعدة بعض ممن لم يعتنقوا الإسلام لمالك بن عوف ومن معه، وقد كان تعداد رجال جيش المسلمين لحماية تراب أم القرى وصل اثنا عشر ألف محارب

ليردف الطالب الرابع:

- ما اطلعت عليه سابقا، أن المسلمين أغلبهم ظن أن الحرب ستنتهي لصالحهم بكل يسر لم يشهدوه من قبل

استكمل المعلم في بؤس:

- بالفعل، بين لحظة وثانية.. بدأ النزال فجأة، وعمت الفوضى بين صفوف الشجعان ليتفرق المحاربون خلف بعضهم ويسقط الشهداء.. لم يبقى مع النبي غير قلة من صحابته، فراح ينادي في البقية مهموما وهو يردد

رفع يديه الريان ليُوضح ما قد قيل ثم أكمل:

- إليَّ عباد **الله**، أنا رسول **الله**.. حتى أجابه عمه العباس من بين ضربات السيوف وعويل الخيول، لهذا استعاد الرسول أمله توا برده والتمس إليه كي يُلبي طلب مساعدته راجيا

احتد صوت الشيخ مفسرا رغبة النبي:

- نادِ عليهم يا عباس، ولكن العم تساءل عما يجب أن يقوله إليهم.. فأجابه (ﷺ) بثقته المعهودة

تنهد كبيرهم في شرود:

- قل يا أصحاب بدر، وبالفعل.. أخذ عباس يدعو الأحبة لاستكمال الحرب والثبات أمام الخصم كي يُخرجهم **الرحمن** من هذا المأزق.. حتى أن محمد ترك فرسه وسار نحو جمع الجيش ليصرخ قائلا، أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب.. أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

استفسر الطالب الأول في حماسةٍ:

- وهل نفذ الصحابة أوامر نبينا الشريف، أم أن انشغالهم بالتصدي لاندفاع أعدائهم حجبت آذانهم عن التنبه لما يُقال؟!

رد الريان وصدره شامخا كي يوضح لهم تأثير الموقف:

- نفذوه دون تردد، وعلى الفور التف حوله المهاجرون والأنصار من جديد.. معجزة **الله (ﷻ)** كانت حاضرة وذكرها لنا في كتابه، فقد أنزل على أصحاب النبي جنوده من الملائكة كي يُعينوهم.. حتى أن النبي أمسك بقبضة من التراب وألقاها نحوهم، فما ترك منهم **الودود** أحدا إلا وأصيب بتلك النفحة حتى تفرقوا جميعا

ابتسم الريان وهو ينظر لأحد طلابه كي يتابع رد فعله:

- ففر سرب القبائل وبقت الغنائم مُلقاة بلا حائز، تاركين بالخلف أعداد نساءهم بلا حماية كي ينجو من الموت

كل هذه الخواطر النبوية وتفاصيلها تُداعب ذهن **(حمزة)**، الطالب الثالث.. صاحب القوام الفارع والشعر المغصن، قضى شهورا يتعلم خلالها حرفة الخياطة بحذقةٍ حتى تحصل على بعض النقود الفضية الكافية التي جعلته يشتري سيفا حديديا تدرب على استخدامه وقت الخلاء بعدما كان يُنهي دروسه بداخل هذا المسجد.. هو يسعى وحده للجهاد رغم رفض الشخص الأعز لنبع قلبه -وهو خاله- هذا المبدأ الشرعي الذي يقتحم صدر كل فتى بعد عبوره من سن البلوغ، لا يعرف لما يمنعه أحيانا من الوصول لمراده بما أنه لم يختار الرذيلة كمنوالٍ يتلذذ بمتاعه أغلب من هم في مثل عمره.. لعل الحرب ليست البلاء المتوقع كما يظن الخال، طالما الحق مراده راسخ بنفسه.

الفصل السادس والعشرون

الجميع يهلل، فقد نجحت الحملة.. لكن تأخر موعد قدوم ولدها من رحلة الصيد، تحاول أن تتفادى توقع هذا الاحتمال.. جاسم لم يكن يصطاد، جاسم كان في المعركة.. تتردد الجملة على ذهنها وبركة تحاول أن تتهرب منها، لكنها على حين غفلةٍ.. وقبل أن تعلو التكبيرات في حيّها، تفهمت الأمر بعدما رأته يسير إليها وهو يحمل في يده السيف.. لقد كان يبحث عن رزقه، ولكن ليس بمثل هذه الطريقة التي ذكرها قبل أن يرحل.. شعرت بخدعته ولا تعرف كيف لم تكتشف أنه يكذب، والغريب في الأمر أنها لم تُعنفه على ما قد أقدم عليه.. ابتسمت حينما شاهدت المباركات تنهال فوق رأسيهما والكل يراه بطلا، فاقتربت منه ثم وضعت ذراعيها على بدنه.. وأمام الجميع احتضنته وكأنها تتلمسه للمرة الأولى بعمرها، لم تتفوه بكلمة.. حاولت أن تنطق لكنها فشلت، فقط صارت تنظر إليه وتقبل وجنتيه بحرارة.

فاضت الدموع من عينيه وقال في خفوت:

– لم أكن حيا بدونكِ يا أمي، دعائكِ فقط ما حفظني خلال تلك الفترة

ستُعاتبه مرارا ولكن بكل هدوء، لن تصيح في وجهه كما تفعل طوال الوقت حينما تهم بنصيحته.. أيقنت بالأخص في هذه اللحظة أنها مهما فعلت ومهما ستفعل، لن تمنعه عن التقدم نحو ما اختاره من اتخاذ طريق مليء بالمخاطر.. فقد نجح بالفعل والكل يشهد على ذلك، أحست أنه سيُصبح له ثقلا وأهميةً بين أقرانه فيما بعد.. وهنا المُعضلة، ماذا سيحدث فيما بعد؟!

***

أما ياقوت فقد كانت متخوفة، تعلم أن أباها سيعود بفضل **الحفيظ**.. تثق في قدرته على تفادي الطعنات، قائد ذو خبرة تُشعرها بالطمأنينة حتى وهو يتنفس بعيدا عنها.. استقبلته بترحاب الإناث الحنون كما اعتادت دوما، احتضنته وقبلت كتفه بحرارة.. وتيمور راح يمسح بيديه على شعرها، لكن في ظل هذه الأجواء الحميمة الصادقة كانت الابنة تخشى أن يكتشف أمر ما حدث بينها وبين جاسم قبل موعد سفرهما.. والدها محارب مُحنك ويستطيع أن يكتشف الخبايا التي يسترها كل من يقف أمامه حتى قبل أن يتسامر معه، لذا فضلَت ألا تُلقي عليه أي كلمات كي تُخفي رهبتها.

فقط رددت:

– ظننت أنك تخلفت عن الموعد الذي اتفقت معي عليه هذه المرة يا عزيز قلبي

رغب في مجاراتها عما بدر من جاسم هناك قبل بدء المعركة، لكنه هو الآخر فضَل أن تبقى متشبثة بعنقه متجاهلا الانخراط في نقاش مطول عن تلك العلاقة الخفية.. فحينما مست قدامه أرض البلدة صار يسأل نفسه ويردد، هل سترحل ياقوت وتتركني؟! كيف سأتحمل العيش بدونها؟! وهل ستختار أن تبتعد عني وتُفضل العيش مع هذا الصعلوك الصادق؟! استفسارات أبوية أراد أن يهرب منها خاصة بعد رؤيتها، لذلك صمت ولم يُعير هذا الأمر أي اهتمام.

الفصل السابع والعشرون

الزخارف المنحوتة على حائط الغرفة رائعة، تخطف الأنظار.. تجعل من سرقت الأفكار راحة ذهنه ينخرط نحو تفاصيل الحفر الخلابة تلقائيا، يتخيل في مجلسه أنه بإمكانه الحبو على الحائط ليتفقد مظهر الدوائر بأصابعه.. إنها ليست هو، بل هي.. ملكة تسترخي على سريرها بمنتصف الليل، تضع رأسها على وسادة لتتشمم رائحة المسك النفاذة التي بعثرها الخدم على حافات وعاء المياه قمري اللون الموضوع بالجانب.. جلدان تفكر مرارا ولا تتوقف عن ذلك، لم تطمئن بعد رغم إخفائها لهذا الشعور.. تخشى أن يفقد عزيزها روحه، فتستيقظ مفزوعة في بعض الأوقات راجية من **الرؤوف** أن يحفظه من هول الطمع نحو الظفر بالنصر.

كان يقف برسباي عند زجاج الشرفة، فاستند عليه بذراعه الأيمن ناظرا إليها بتمعنٍ وكأنه يراها للمرة الأولى في عمره كي يتبارك بوجودها:

– إنكِ أول سيدة غريبة عن بلادنا تدخل هذا القصر وتُعامل من قِبل الخدم والسادة مثل بقية الأميرات اللاتي أَقَمْنَ هنا سابقا

التفتت إليه في شغفٍ صادق ثم وقفت وتحركت نحوه بوجهها الجذاب قائلة:

– قراراتك دوما مفاجئة، فالجميع يصفني بالجارية.. الحقد يدفعهم لكرهي بلا سبب مقنع، تلك نتيجة اختيارك إليَّ

اقترب منها في شغف:

– هم الخدم وأنتِ الملكة، هذه الحقيقة التي يحاولون إنكارها دوما

ابتسمت في خفوت:

– كيف لسلطان أن يقبل بالزواج من إمرأة لم تسكن بمدينته لعامٍ كامل؟! ألم تخشى خيانتي إليك وتحالُفي مع أعدائِك

أمسك بيديها وأردف:

– كنت على يقين تام بأنكِ لن تُصبحي مثلهم، فكل الشرف لقلبي يا عزيزتي.. أنتِ فقط من ستتحكمين فيه من الآن

فاستندت على كتفه:

– وأنت الآمر والناهي لنفسي دوما بعد **ربي**، وما تبحث عنه في دنيتنا من نجاحٍ حتما ستجده.. فلا تقلق

– أنا فقط أبحث عن الثقة في من يلتفوا حولي، أدعو ألا يمتلىء قلبهم بالضغينة نحوي

– وأنا داعمٌ أساسي لن يفارقك، اعتبرني درعك الذي ترتديه حينما تترُك القصر

أعاد برسباي نظره إليها:

– حتى لو اضطررت لخوض الحرب بنفسي وابتعدت عنكِ؟

نظرت في عينيه وتقربت منه قليلا:

– ابتعاد الجسد لا يطابق ابتعاد الروح

– تُخبئين خلف هاتين العينين الكثير

– بل ينبعث منهما نفحات الخوف من كارهينك

فوضع يده حول خصرها ليحتضنها كي لا يوحي لها بأنه يشعر بالقلق:

– خوفكِ جعلني أغامر نحو كيانِك

ربتت على صدره بكفها الأيمن:

– حسنا، عدني بأنك لن تُعرض حياتك للخطر

ضحك برسباي وقال:

- روحي اندثرت تحت الهموم يا جلدان، أخاف على ولدي الصغير وعلى أتباعي المُخلصين أيضا من شبح الموت
- قلت لك مرارا، العمرُ مِلكُ **المولى**.. سيحفظهم بستره ما داموا يسعون في حقول الكد لإرضاءه
- ربما يُصيبهم الخطر، وأنا أجلس هنا بين الحراس وجدران القصر

لمست بأصابعها شعيرات ذقنه:

- هم بين يدي **الله**، روحه الجامعة لكمال الطهارة لن تغفل عنهم بين رحاب السيوف.. أتشك في جند **ربك**؟!

ليقول متلهفا:

- حاشاه إنه **الجبار**

فأوقفته عن الحديث بإشارة من حاجبيها:

- حسنا، كُف عن التلاعب بأفكارك المتناقلة بين الأيام.. ولا تظن أن القدر سيكشف لك عما سيصير لاحقا

تصلبت تعبيرات وجهه وتثبت جسده كما كان يقف، هدأ تتابع الشهيق والزفير من صدره بعد أن كان أشبه بالشجار.. جملة أراد أن يسمعها أثناء لحظات الدلال التي جملتها جلدان بدموعها الأثيرة، حينما كان شابا لم يكترث قط بهفوات الحب المستعار.. ظن أن وابل البكاء النابع من عين عاشقة وقت اعتلاء المحبة قلبها، ضعف.. لكنه آمن حقا أنها ليست زائفة، فهو من بكى.. وهو أيضا من اعتلى الهوى كيانه المحاصر بضربات المخاطر، يتلفظ لسانه أثناء نومه بالرغبة في النزوح كي لا يستكمل الطريق.. راجيا من القدر أن يمنحه الزمن الكافي للبقاء هكذا، هكذا محتضنا زوجته وابنهما -يوسف الأخ الأول لمحمد السلطان الصغير- الساكن تحت صدريهما.

فقد رمقه الكثيرون باستياء، السلطان أرسل لجميع أفراد عائلتها بالحضور إلى كنانة الأمة.. اتفق العشرات من الأمراء ومن مختلف الطبقات على رفضهم لتصرفه، بعدما أنعم على هؤلاء النازحون بالكثير من الإقطاعات والرواتب والوظائف.. لكنهم فيما بعد التفتوا لتصرفاتها المثالية وقتما تحتم عليها إجراء تلك المناقشات المطولة مع

بعض من أفراد العامة أو حتى زائري القصر لإيجاد حلول لأغلب المواقف البسيطة التي تحدث خلالها أي معضلات عابرة، بالنسبة إليهم الأمر عجيب.. كيف لمرأة أن تحظى بكل هذه الاستثناءات الوافرة؟! لمَ بالأخص هي؟! زوجة السلطان يجب أن يكون لها مهمات محددة في وجهة نظرهم، وجلدان كسرت هذه القاعدة.. فقط عدة أشهر، وسقطت كل هذه الادعاءات أمام حب برسباي.. وصار ينحني الجميع إليها فور ظهورها أمامهم في الصباح، ويتباطؤون مضطرين في الليل حتى لا يتم إزعاجها.. أمر قلب ملكهم نفذوه دون جدال، لتصبح فيما بعد كلمتها الصريحة طاعة فوق الرؤوس.

الفصل الثامن والعشرون

وهن فاعلية التصدي هي خير دليل أوضح أن قبرص بلا مقاومة، لم تكن -كما توقع قادة الشرق- تستند على قوة التحالف الصليبي مع الغرب الأوروبي أو مع بقية دول حوض المتوسط.. خطأ يحاول أن يتدراجه بعد فوات الأوان، طقطقة أقدامه على الأدرجة الحجرية المغطاة بذاك السجاد المتين ذو التطريز الفاخر تُذكره بخطوات الفرس حينما يشتد صلبه ويصبح جاهزا للانطلاق نحو حفر الغابات وتشققات الجبال.. لكن جانوس لم يعُد يعتبر نفسه يُشبه الخيول، بل عنده يقين تام بأنه يُشبه الثعبان في كل شيء.. فيبصق سُمه على الجزء العاري من جسد فريسته حتى لو كانت هي الأقوى، ويعرف متى يتخفى بين الرمال حتى لا يُدهس على حين غرة.

خرج إلى الحديقة محاولا التقاط أنفاسه ولو لبضع دقائق لاستيعاب ما قد حدث لمدينته الجنوبية، فجأة لمح صبيا يافعًا تتطابق ملامحه الرغادة معه.. يقف تحت ظل شجرة شاردًا في تفاصيل بعض التماثيل المتناثرة بين أرجاء الحديقة، فاقترب جانوس نحوه بهدوء محاولًا عدم لفت انتباهه.. وبعد ثوانٍ ركض مهرولا كي يحتضنه من الخلف وهو يضحك:

– ها هو ذاك الابن اللعوب الذي يتحدث عنه الجميع، لن يفلت من قبضتي الآن مهما كلفني الأمر

التفت الفتى مسرعا حتى يتمكن من رؤية أبيه، ثم قال:

– افتقدتك كثيرا يا أبي طوال تلك الفترة المنقضية، انشغلت عني حتى ظننت أنك تناسيت وجودي

ضمه الملك إلى صدره وراح يسير معه:

– إنك ولي العهد يا چون، مهمتي الأولى أن أوفر لك كل السُبل كي تُصبح أنت ملك البلاد الأعظم

فتوقف الصبي فجأة ونظر لأبيه في تعجب:

– ما زلت في العاشرة من عمري، ألا تظن أن أمامي الكثير لتعلمه؟ تُحدثني وكأني أصبحت شابا يرافقك دوما

ليبتسم جانوس وهو يُحذره:

– لم أعُد أُتابع بنفسي إن كنت أنت مهتما حقا بدروسِك التثقيفية التي تتلقاها أم لا، هذا بخلاف تعاليم المبارزة التي يتحلى بها أجدادك دائما

تبعه **(چون)**:

– أمي قبل أن تموت منذ عامين كانت تحب القراءة والإطلاع على الأدب الفرنسي لحدٍ أثار الشغف بداخلي تجاهه

– لم تكن تهتم بالشؤون السياسية مثلي، فحاولت أن تُثبت أفكارهم ومبادىء ثقافتهم بعقول من حولها بما أنها كانت تعلم أننا ننحدر من نسل عائلة لوزينيان الفرنسية

– وهل كنت تُحبها حقا؟!

أعاد الأب النظر إليه مندهشا:

– لم يتحمل قلبي رؤية جثتها قبل أن تُدفن، فقد وددت ألا يراني أحد وأنا أبكي عليها

تنهد ولي العهد:

– ولكن ما يُقال، أو...

انقطعت الكلمات من فمه خوفا من والده، فرد الأخير:

– ما الذي ترغب في قوله؟ أكمل

– سمعت بعض الخادمات يذكرن أنك كنت تخشى حضور الجنازة كي لا تُصاب بالعدوى

انفعل جانوس بجنون قائلا:

– من قال ذلك، أي خادمة هذه؟

ثوانٍ ثم آنسهم العم هيو:

– لم نتقابل سويا هكذا منذ عدة أسابيع، افتقدتك كثيرا يا عزيزي

فاقترب چون مسرعا تجاه هيو كي يحتضنه نظرا لشدة العلاقة الحميمة التي جمعتهما سويا من قبل، ليحتمي الصغير به ويقول:

– علمت أنك أتيت الأسبوع الماضي، فبحثت عن فضيلتِك ولكني لم أجدك

ربت هيو ظهر ابن أخيه مقتضبا:

– حتما سنجلس معا لنتحدث عن شتى الأمور، ولكن لاحقا.. فهناك العديد من الشؤون التي يتوجب عليَّ أن أُناقشها مع والدك الآن

حاول جانوس ألا ينظر لأخيه حتى لا يرى لمحات اللوم المتفشية على سحنته، فإطاقة الخسائر يصعُب على الجزيرة بأكملها تحملها.. برهة وتحركا سويا نحو القاعة التي انتظر بها يوچين وهنري كالعادة، ولكن هناك ضيفان جديدان وجب عليهما الحضور.. **(رافاييل)**، قائد القوات البحرية الجديد.. استبدالا للمرشد سيمون الذي قُتل على غُرى من الهجوم الاستكشافي، وعلى اليمين جلس **(أركون)** أمير ليماسول.. وهذا الشخص قد فضحه خوفه لأنه كان يرتعش بلا سبب مناخي مقنع، حتى أن حفوات السقيع لم تهبط عليهم بعد.. فربما هي حفوات الموت.

– هجموا بلا رحمة، الغل ساقهم لنهب السفن الأولية.. حاولنا أن نمنع تقدمهم بعد استغاثة من كانوا على متنها، ولكن الأمر كان مستحيلا.. حقا عجزت إرادتي على المقاومة يا ملكي العفيف

كلمات أركون بائسة، على عكس رافاييل الذي فار الغيظ من صوته قائلا:

– لا وقت أمامنا للتحدث عن تلك المباغتة مجددا، علينا أن نتجهز من جديد حتى نستقدم مسيرة قائدي سيمون.. باركه المسيح في قبره

تدرب على يديه، بل كان بجانبه وقت موته.. لهذا شعر أن الثأر فرض عليه أخذه مهما كانت العوائق، يتحدث وكأنه سيهاجمهم بعض لحظات.. فقط، ينتظر الأمر بالتوجه متعجلا للساحل عاري الصدر ولو افتقر لسلاحه.. فأردف هيو:

– الخسائر عديدة، لنحافظ على ما تبقى من القوام الحربي الذي لا يجب ألا نفقده أبدا خلال فترتنا هذه

فصرخ جانوس فجأة:

– كان علينا جميعا أن نتيقظ لفعلتهم، لمَ تغافلنا مثلما فعلوا هم من قبل؟! لم يكترث أي منكم بخطورة الوضع الراهن

ثم أعطاهم ظهره وتحرك بعيدا:

– كيف لم يخبرنا الجواسيس بموعد تحركهم نحونا؟!

تلعثم أركون وهو يرد:

– أظن أنهم منعوا كل أجنبي يعيش بأراضيهم من العودة إلينا إجبارا، كي لا نطلع على التحضيرات التي تتم بمخازنهم العسكرية

أكمل يوچين مسرعا:

– أن نتأهب لما هو قادم، أهم الفرائض الحالية.. تذبذبت عزيمتنا لمجرد سطو مباغت، يجب أن نُخفي تلك الثغرات

تبعه الأسقف:

– ولمَ نلجأ للحرب دائما؟! الاتكاء على مقابلة الغريم بالعنف دوما تكون ضريبته قاسية

التفت إليه رافاييل:

– لن نتمكن من تجنب الإخفاقات إلا من خلال لجؤنا لهذا الحل، والحرب وحدها هي ما ستُطفىء المشاحنة بيننا وبينهم

فقال أركون متلهفا:

- لن يحدث تفاوض، لن يحدث هذا بتاتا.. وإن صار، فيجب أن يُخصَص جزء هائل من الأموال لتعويض ما قد تلفناه إليهم وما قد سرقناه بكفوفنا.. ونحن لا نملك ما يكفي لتسديد تلك الديون التي ستُفرض علينا

نظر إليه يوچين مستهزئا:

- كان سيُحسم كل شيءٍ لو قُبِل طلب الصلح الذي تم إرساله لنائب الشام بالموافقة، رفضهم الحاسم عرقل خطواتنا

ضحك الملك في سخريةٍ وقال:

- لم يوافق ذلك النائب حتى على محادثة رسولي، وأمر رجاله بإيصاله لتلك السفينة التي أبحرت به لقلعتنا دون مناقشة.. أظن أن سلطانه أبلغه بضرورة الإستهانة بأي موقف سنتخذه حتى وإن كان مسالما

اقترب منه هيو:

- ربما إعادة النظر في بنود المعطيات التي طُرحت أمامهم وتغييرها، سيحفظ الكثير من الأرواح لو صارت استجابتهم للتصالح متفق عليها

صدق على عبارته أركون:

- بعض الوقت من التفكير والتحليل سيمنحنا الكثير من الإشارات التي بالفعل لم نتفقه إليها مطلقا

فسأله رافاييل باقتضاب:

- لو لاحظوا جدية أفعالنا سيتخذوا الخطوة المرغوبة، ولكن دعوني أُخمن.. لمَ لا نرسل إليهم برقية اعتذار؟

ليتوقف عن الحديث لبرهة، شعر أنه يتلفظ بكلمات مهينة.. فحاول توضيح ما قد ذكره:

- أقصد أن نعتذر أولا، كوسيلة ظاهرية فقط لخداعهم.. ثم نباغتهم فيما بعد بهجومنا

رد جانوس عليه في عجلة وهو ثائر:

– لا، بل سنرسل إليهم مجازةَ احتقارية.. ولا تفكر مرة أخرى في مبدأ التودد المُذل إليهم، وإلا ذبحتك كالتيوس.. منذ قليل وودت أن تخوض الحرب لكي تثأر لمعلمك المسكين، والآن حينما شعُرت أننا في مأزق ووضعنا مزري ترغب في التراجع

لم يدُم تفكيره كثيرا، الصمت لم يكن حلا مناسبا.. فأمر الملك بإرسال ما يقرب من سفينتين أو أكثر نحو الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط في الشام حتى يعجز برسباي عن تقبل الصدمة التي ستُصيب حُماته، وعسى أن يعود أيضا جنود الأول محملين بالنعم التي ستعوضهم عما قد تم خسارته وهم مكبلين الأيدي وعاجزين عن التفاوض.. لذا كان الخيار محسوما بالرغم من قلق هيو الدائم وشعور يوچين بالرهبة لأول مرة منذ أن كان ملازما لجانوس أثناء توليه الحكم، فاجتماعهم دائم ولكن عائده أصبح غير مضمون.. بوابة الظلم افتتحوها بأنفسهم، وكانت النتيجة تفشي غضب سلطان يحاول أن يؤرخ اسمه في صفحات المجد الذي يفتقرون الوسيلة للوصول إليه.

الفصل التاسع والعشرون

إنها الغيرة المسيطرة على العقول منذ ولادتها، حب تملك كيان النجل وعدم التفريط في كينونته مهما تكلف الأمر.. غريزة الأبوة لم تُنتزع من قلب تيمور نهائيا، يجلس على الكرسي الخشبي المقابل لمنضدة منزله ليقرأ بعض من آيات مصحفه وابنته تدور في كل ركن لتنظف التشققات الصغيرة الزاخرة بالأتربة كما ينبغي عليها التصرف طيلة الأيام.. تشعر هي بأنفاسه المتلاحقة لاصطياد الحقيقة من داخل فمها، لسانها يرتعش مرارا.. لذا أحكمت إغلاق شفتيها حتى لا ينكشف سرها، أما الأب فقد استنتج ما يدور بداخل رأس صغيرته.. ليس لأنه محنك وخبراته النبيهة -التي اكتسبها طوال سنين قيادته- في معرفة الكاذب تساعده، بل لأنه ذلك الرجل الذي ضحى بفرحته لرؤية ابتسامتها تستشرق ليلا حينما تُرهبه الكوابيس.

تحرك الأب متجها نحو سريره ثم تساءل في سكونٍ قبل أن يستلقي بجسده:

- ياقوت، دعي ما في يداكِ جانبا واسترحي بمحاذاتي.. ألا تودين التحدث معي قليلا؟!

شعرَت أنه على علمٍ بكل شيء، فقط يُمهد لاستجوابها الظاهر نتيجته حتى قبل أن ترد عليه بحججها:

- دائما أسعى لبدء النقاش معك يا عزيزي، ولكني أُفضل ألا أتهافت عليك عندما أراك عائدا مشتاقا لموضع راحتك

ظل يحدق في وجهها لبضع ثوانٍ، وقال ضاحكا:

- موضع راحتي بين أحضانكِ أنتِ فقط يا حبيبتي الذاتية، ولن ينازعكِ أي مخلوق قابلته في محياي على هذه المكانة

ابتسمت البارعة ولبت ندائه، فاقتربت منه كي تحتضنه:

- وستبقى دوما أيها الأمير، لن أسمح لأحد مطلقا أن يزحزح جسدي عن نفسِك

تمهل تيمور قليلا، ثم انتظر لبرهةٍ أخرى.. وتنفس شاردا ليستفسر في تربص:

- متى عرفتيه؟

تساءَلت ياقوت في توترٍ ملحوظ فضحه جسدها:

– عن من تتحدث يا أبي ؟!

سكتا للحظات وهما ما يزالان ينظران لبعضهما، الابنة عيناها أقرت خلسة بواقعية خوف نفسها والأب سرق الشك راحته.. فالصراحة هي المهرب ولو كانت توابعها قاسية، رغم أنه فضّل ألا يُعنفها ولو بلفظٍ من الممكن أن يؤذي الرباط الذي جمع روحهما أثناء غيابه عن جسدها.. الحرج لم يظهر بينهما ولكن الآن اللحظة عصيبة، مليئة بالأحداث التي لم تُسرد بعد.. ينتظران الوحي ودفعته لأحدهما كي يبدأ في المواجهة بما سترته الشفتان ولم تُبعثره، كلاهما يتمنان أن يقهقهان سويا مستقبلا بلا تكلف ويبدو أن هنالك دلالة على إمكانية حدوث هذا.

فبادر بالتكملة:

– عنه، هذا الخسيس الذي اعترض طريقكِ يوما ما.. وأنا لم أكن على دراية بما فعل

فردت وهي ترتعش رعبا من استنتاجاته:

– أقسم لك يا أبي أنني كنت سأُبلغُك بتفاصيل ما قد حدث، ضربته بيدي وسببته في وجهه ولكنه لم يبتعد عني

سكتا للحظات مرة جديد، لم ينطق هو وهي لم تنطق أيضا...

تنتظره حتى يضربها على وجهها، ولكنه لم يفعل...

ظل صامتا، وهكذا الابنه أيضا دون إيضاح أي إيماءات...

فاستطردت حينها ياقوت مسرعة:

– لن أدعه يقف أمامي لو رأيته لاحقا، أعدك.. وإن فعل، سأضربه بحذائي

قاطعها تيمور مبتسما في هدوء:

– وأنا موافق على زواجكما يا حبيبتي

ذهول وفرحة وتعجب، ثلاثة صفات حسية اختلف الفلاسفة في شرح مدلولهم ولكلٍ منها تفسير معقد.. ياقوت شعرت بنغزات تأثيرهم في آن واحد على غير العادة، إن استفسرت لمئات المرات وقالت لأبيها كيف وكيف وكيف؟! لن يستطيع هو أيضا الرد عليها بإجابة مناسبة تُخمد حيرتها، تصرُف لن يُصدق حتى لو خرجت وحدها في النهار وصعدت فوق أكبر منابر الجوامع بساحتها لتُقسم للجيران والأهالي بتقبل تيمور لتلك الخطوة الجسورة التي اتخذها جاسم.. فبكت وهي سعيدة، سال دمعها وهي تبتسم.. ارتمت بين ذراعيه للمرة الثانية كالرضع وهو يستقبل جسدها قَلِقا، لا يعرف كيف سيتحمل العيش بدونها إن حدث ما تتمناه كل جميلة حينما يتكالب نحوها الزوج البغيض.

الفصل الثلاثون

تكفل الجنود بجمع المعلومات الغامضة من أفواه هؤلاء القراصنة المختطفين، بضعة نقود ذهبية قليلة بجانب وعد بالحفاظ على أرواحهم جعلتهم يتعاونون مع تيمور محاولين تجنب أي جهود ستُبذل لتعذيبهم.. لا يملكون تلك المبادىء العفيفة التي تغرزها العقيدة الراسخة بنفس الصغار والمتعلقة بالثبات أمام أي تهديدات من العدو مهما كانت، عدة أيامٍ مرت حتى وصلت جميع المقتطفات التجهيزية -التي يستند عليها جانوس ورجاله- لبرسباي.. فحينها قرر أن يتخذ الأخير موقفا دبلوماسيا مثاليا، ألا وهو فتح كنيسة القيامة للمصلين المسيحيين في بيت المقدس ليخفف من حدة العداء بين أفراد الشعوب وأبنائهم.. وذلك التصرف الذكي اصطحبه أيضا أمر لن يتهاون في تنفيذه أي من القادة والأمراء بتحصين جميع السواحل المصرية والشامية بالمراكب والعتاد، زيادة على الجدارات الحديدية والحجرية المانعة لقذائف المدافع والأسهم النارية.

لكن تبعا لهذا القرار لم يُحاول جانوس السيطرة على رغبته في تكبيد الخسارة لما تحت يد الأشرف، فأرسل سفينتين كبيرتين مشحونتين بالرجال وأطقم التروس المسننة ليشنوا هجوما على ساحلي صور وطرابلس بلبنان وساحل جبلة بسوريا.. ورغم هذه المباغتة تمكن جمع القوات التي كانت مرابطة في هذه المناطق من صدهم بكل سهولة دون وقوع أي خسائر من بين جنود السلطان، فاضطرت تلك القوات القبرصية الاتجاه نحو نهر الكلب الواقع أيضا بأقصى الشمال اللبناني.. وهناك أطلقوا نيران بضعة من الزخيرة المدفعية ليتأكدوا من خلاء هذا المكان من أي مقيمين، لكن المئات من أفراد جيش المسلمين كمنوا بداخل بعض الخنادق وخلف الصخور حتى نزل الفرنج إلى البر كي يستنفعوا بتلك المياه.. فأثناء طمأنتهم الكاذبة، هجم عليهم الجنود دون ممالطة.. حيث فر العديد من رجال جانوس بعيدا عن هذه المنطقة وتركوا زملائهم العساكر يواجهون مصيرهم، وبالفعل قُتل العديد مِمَن فزعتهم المفاجئة وتم أسر البقية ناهيك عن تلك الخسائر التي أحدثها أهل النهر للسفينتين اللتين هربا مجروحتين حتى كاد أن يغرق من كانوا على متنها.

***

وخلال هذه الأشهر المتتابعة حدثت تغيرات متزايدة في أهم المناصب العليا بالديار المصرية والشامية، فقد تم عزل الأمير **(تاني بك البجاسي)** عن كونه نائب السلطان في الشام بالرغم من حفاظه الملحوظ على ترويد زمام الأمور هناك لفترةٍ ليست بسيئة.. إلا أنه قد ذُكر خروجه عن الطاعة بعدما أصبح خامرا كما ظن البعض أو ربما الحقيقة كانت تكمن في رغبته التمرد على أسلوب حُكم برسباي، فجاء القرار حينها بتولية سودون بن عبد الرحمن عوضا عنه.. وأيضا قد تم تغيير صاحب أهم قيادة عسكرية مُشرفة في مصر،

الأتابك.. فنظرا لغلظة الأمير بيبغا المظفري واعتدائه اللفظي والجسدي على كثيرٍ مِمَن كانوا يُخالفون رأيه أحيانا، تم تولية الأمير قجق العيساوي بدلا منه.. وعند تطبيق ذلك القرار أصبح منصب أمير السلاح شاغرا، فتولى حينها الأمير **(أينال النوروزي)** زمام مركزه.

أما التقلب المثير الذي أدهش جميع المسؤولين وحثهم على الاستفسار عن السبب، هو تعيين أمير المجلس آقبغا التمرازي كنائبٍ للإسكندرية.. مهام المنصبان متباعدان تماما، لكن ثقة برسباي الكاملة في آقبغا دفعته لاستئمانه على هذا الموقع الفاخر.. وحينها كان **(أينال الجمكي)** أول المترشحين لمُفوضية أمير المجلس، طبقا لحذقته المرتقبة وحسن سيرته في ترويد مربط المُعضلات الحربية والميدانية.. ليصبح الأمير **(تغري بردي المحمودي)** أحد أهم الأمراء في مصر آنذاك الأحق بتولي قيادة رأس نوبة الكبير، أي المشرف على نوبات - دُفعات- من الجنود المماليك المدربين في القلاع على خدمة السلطان وحمايته.

- علينا أن نتوغل هذه المرة إبان وقت قياسي، كي نُعلمهم أننا نستطيع فعل الأسوأ.. صفوفهم ستتشتت إن أتممنا ذلك، الأمر ليس بمستحيل

رد قجق، الأتابك الجديد على الأشرف مسرعا:

- لم تخطىء بسيادة مقامك الشريف، فكل ما فعلناه سابقا لن يحرمنا من غاراتهم علينا إن تغاضينا مستقبلا عن خطرهم.. فقد حانت تلك اللحظة التي ستدور أحداثها بعقولنا جميعا

ابتسم الجمكي في سخرية:

- نحن لم نُحدث إليهم أي ضرر حتى الآن، خسائرهم محدودة للغاية.. سيُعوضونها عما قريب بمساعدة حلفائهم

تبعهم النوروني أمير السلاح:

- ولكننا عرفنا الكثير عنهم، فلنُبسط وضعهم الاقتصادي والعسكري لنتدارسه جيدا.. الاندفاع العشوائي سيُكلفنا الكثير

أردف المحمودي في ثقة:

– حتى لو جهزوا أنفسهم حتى يتصدوا لهجومنا، يكفي أن قوات جيشنا ستكون على أراضيهم.. لن ننتظرهم حتى يتخذ قاداتهم الخطوة الأولى نحونا

نظر إليه السلطان مُفسرا:

– سيحاولون ردم ثغراتهم كي يُشيدوا الكمائن بمحيطها، وسائل دفاعاتهم ستزداد.. سيضعوا بالتأكيد سدودا حجرية تعيق جنودنا

ليرد الأتابك:

– وهم ضعفاء، فيجب محاصرة جنودهم لعدة أيام لنُحكم السيطرة على ما يستخدمونه لكي لا يردوننا للخلف مجددا

أكمل خلفه الجمكي:

– القلق هو المرحلة الأولى للتدبير، لذلك يجب دراسة بؤر مواقعهم جيدا قبل تنفيذ الهجوم.. طالما عُرف عنهم حسن إنشاء الكمائن المميتة

ثم تنهد النوروزي:

– من الأفضل أن تُصبح حاصلة الخسائر أقل بكثير مما سنجنيه، نحن بحاجة إلى كل نصبٍ مادي ثقيل القيمة

فقال برسباي في حزم:

– إذا، عليكم جميعا معرفة قائد الحملة المُتأهبة.. ولا منازع لمكانته التي يستحقها بناءا على رؤيتي المُمنهجة

ثم شاور نحو جرباش حاجب الحجوبية، الذي كان يجلس صامتا في الجانب الأخير من حلقة النقاش متعجبا بسبب حضوره الاجتماع كاملا بلا انقطاع.. وحينما فزعه سلطانه بذلك الأمر، وقف على الفور كي ينحني له:

– في الخدمة والطاعة يا سيدي، وها هي الفرصة التي سعيت مرارا وتكرارا للتشبث بها.. ربما الموت ينتظرني، ومع ذلك سأحتضنه من أجل غايتنا

ضحك قجق ثم قال موجها حديثه لبرسباي:

– سبق معرفتي به منذ سنوات عدة، فأدهشني بعطائه المتواتر.. ربما اختياره موفق حتى قبل انطلاق المعركة ومعرفة نتيجتها

فرد الجمكي مبتسما:

– سمعت الكثير عن شجاعته وحنكته في تنظيم الخطط الحربية المعقدة، ولكن حاليا.. الأمر يختلف جديا عما سبق

استطرد المحمودي في بهجة:

– أمامه رحلة ليست ببسيطة، عليه أن يستغل فيها كل جندي يستمع إلى أوامره.. وأنا أثق فيما سوف يُبلغهم إياه

ليقول النوروزي بحماسة:

– إذا، فليغير الأمير جرباش موقع إقامته الآن ويتجه نحو السواحل الشامية.. كي يتابع بنفسه حركة تجهيز السفن التي حتما ستنقلع من هناك

ارتعشت يدا جرباش من الفرحة حتى أن دموعه قد فاضت:

– **والله** لأشرفن رأس السلطان الطيبة أمام أعين ملوك البلدان التي تُعادينا

تأخر موعد إستيفاء المهمة، مرت السنوات وجفت الدموع بالرغم من سعة عدد القلوب التي قُهرت بعد ما قد حدث بالعروس.. حتى المؤرخين أصابهم الخزي وهم يُبلغون الأبناء أن الهجوم لم يتم الرد عليه حتى اللحظة التي أمر فيها برسباي بتوجه بعض القوات لبث الهلع المُربك بأفئدة القبارصة، ولكن الآن الكل مستعد.. الكل متحفز حتى لو كانت العيون مغطاة بساتر الظلام الليلي، إنها لكمة ستدع شق الجروح

ممتد.. كما يفعل مصارعوا السكاحات مع أخصامهم حتى يتمكنوا من إضعاف قدارتهم وقتما يحين موعد لقائهما مرة ثانية، لن تسترخي الأبدان ولن تُغلق العيون إلا والخنجر المسموم موضوع بجعبة الجنود تحسبا لساعة الانطلاق.

الفصل الواحد والثلاثون

لا قاطع لتجمع اليوم رغم انتشار الأنباء عن بعض من الغارات والمشاحنات المستمرة، فالبهجة أثناء العُرس دوما تكون صادقة خاصةً وقتما يتجمع الأقارب حول العروسين.. الشاب اتفق مع حبيبته على عهدٍ لا يزول إلا بخلاف لن يدعاه يتخلل بينهما قط، الليلة سيبتسم قلب ياقوت دون خجل.. ترتدي البهطلة، قميص فضفاض له ثلاثة أزرع واسعة عندما يتم إرخائه يغطي طول القدمين وهذا لا يمنع وجود ثياب احتياطية في الباطن حفاظا على حصانتها الأنيقة.. توثب مع شريكات عيدها مُعلنة عن عشقها للطرف الآخر الذي يتبادل الضحكات مع مرافقيه وجيرانه الأعزاء، يُغطي جاسم نطاقه بعباءةٍ لونها أحمر عقيقي وببنطالٍ مجسمٍ على ساقيه.. الغريب هنا، أن الزوجة ترقص مع بركة ولا تضع لحاجز السرقة قيمة بينهما.. فتعتبر الأم أحياناً أن الزواج سرقة يُقننُها الشرع، وبالفعل اختطاف الأبناء يُسمح به في هذه الحالة الاستثنائية المُبهجة.. نغمات تتطاير بين الأفواه وألحان تُداعب الآذان، الحاضر يبارك مبتهجا والغائب بعث تهنئته عبر الأقارب بكل عزمٍ نير.

نُقرت الدفوف وعلت ضربات الأعواد، ذاع صوت ترانيم أشعار الغناء الحضري.. نوع من الطرب المصري العربي المتأثر ببعض من لمحات الثقافة التركية والفارسية، تيمور يعشق هذا الطبع من الغناء.. يعرف جيدا كيف يستعمل آلة الربابة والسنطير والجنك لما يُحدثونه من صوتٍ نغمي جذاب، وأحيانا يدق بأصابعه على سطح الطبلة للتمتع بإيقاعها.. فرغم جدية شخصيته التي تحلى بقواعدها بين الخلق، إلا أنه لا يطيق العيش بدون تسلية نغمات الموسيقى المنظمة كهذه بما أنه قد تعلمها بموضع نشأته وقتما كان صغيرا.. لكنه فضّل المحافظة على وقاره أمام الجمع واستعان بأحد أشهر المطربين في ذاك العصر لكي يُبحي هذا العُرس البراق، **(شهاب الدين بن القرداح)**.. أطلقوا عليه الواعظ المنشد لكونه فصيح اللسان ذو رخامة في الصوت نادرة، نغمته طيبة ويتجنب دائما ذاك النشاز الذي يخرج من فم أغلب من عاصروه بمهنته.. لذلك أصبح هو أول المدعويين في ساحات المغانيات -قاعات خُصصت من أجل الاستماع إلى الموسيقى والتلذذ بواقع رنين الأشعار المختلفة في هذا العهد- والتي اعتاد كبار المماليك والسلاطين القدوم إليها خلال الأعياد والمناسبات، أما في هذه اللحظة.. الجميع يقف حول بيت تيمور القائد وعروسته الصغيرة، فابن القرداح راح يطربهم لساعاتٍ وساعات.. استفاض بقدراته الفريدة ليُمتع قلوبهم بتلك الليلة، ليلة فرضها المولى على كل رجل وإمرأة قررا أن يصونا عرض بعضهما حتى مماتهما.

***

وسط هذا الرباط التجمعي نظرة الأب صاحب المعطف المزركش بالصبغة المرجانية لم تخفت عن متابعة الأم المتقلدة بالبغالطيق المكسوة بثوبٍ رمادي من الحرير –نمط أقمصة راقية من الزي الأنثوي– الرخو، فلأول مرة تسرق نظراته إمرأة أخرى غير زوجته الراحلة.. تذكر محدقا في الأقمشة المصبوغة بالألوان الخمرية والمعلقة على جانبي الحائط تلك الفساتين التي كانت ترتديها، تيمور وُلد في بلاد الترك الواقعة بالأقصى الغربي من بلاد أوراسيا -منطقة تجمع كتلة أرضية كبيرة بين أوروبا وأسيا- قبل أن ينتقل عبر البلدان خلال نشأته التي عمت بالاشتباكات الحربية المفاجِئة.. عرف أصول لغة الضاد وأتقنها، فصار يتحدث العربية بسهولة كما لو أنه يطوي قطع الحديد التي تشرح معنى اسمه.. تعلم الكثير عن حياة المحارب، دهاء قتالي جعل العشرات من الأمراء يودون شراء ولائه إليهم كي يصبح حارسهم الأول.

حتى اختاره أحد كبار الرجال في حلب، وضجت في آنها صراعات بين نائبها وولي تيمور الذي وجب عليه حمايته.. فصار كل منهما يُرسل كلابه الغدارين كمحاولةٍ لاغتيال بعضهما، تيمور لم يبق ساكنا حينها وراح يُدافع عن سيده بإطناب المغاور.. لذلك صاحب المدينة لم يكُف عن العناد، فأرسل للمرة الثانية بمجموعة صغيرة من جنده في شتاء ليل قارص البرودة حتى يتخلص من عدوه.. وهناك نجح تيمور للمرة الثانية في حماية سيده، قتل ثلاثة منهم وجرح اثنين فقط خلال بضع دقائق بمساعدة زميلين كانا برفقته.. ولكن القدر لم يحفظه آنذاك، فقد لمح أحدهم وجهه.. وتوعد هاربا بأن يُسقيه شربة المر على فراشه، أسابيع توالت ورزقته الطبيعة بجزءٍ روحاني من قلبه.. أنجبت زوجته ياقوت، حملتها بين ذراعيها وراحت ترقص معها بالنهار وتتلمس خصلات شعرها قبل النوم.. أجمل ما يُبتلى به المرء من خير هو ما كان يعيش فيه تيمور، زوجة أحبته بكل صدق.. وابنة ملائكية زينت عليهما حياتهما، وأيضا قوة تحفظه من أي شر.

لكن ذلك الجندي لم يغفل عن رغبته في إيذاء مالك العائلة غيظا بعد أن أصاب ساقه بخنجرٍ حاد وذاك ما جعله يسير وهو يعرُج بقية عمره، فظل يراقبه لمدة أشهر.. تريث قبل أن ينقض عليه لعلمه بمدى قوة الأخير، وبالفعل حدد موعد الاغتيال.. إبان زوي نهار الربيع البديع، خرج تيمور ليصلي ظهر الجمعة.. فتسلل المنتقم من نافذة البيت للداخل، وفور رؤية الأم له صرخت دون تفكير.. ثم ألقت عليه ما كان أمامها من فخارٍ كي تحمي ابنتها، لهذا لجأ الرجل لتصرفٍ نموذجي أعانه على التخلص من ضجيجها.. أبعدها عن الباب حتى لا تخرج راكضة، ثم طعنها بسكينٍ في صدرها قبل أن يُلبي أحد الجيران طلب استنجادها.. ياقوت لاحظت المشهد، عمرها كان خمس سنوات.. تصلب جسدها وبقيت عيناها تتابع أميرتها تنزف الدماء، قسوة المصير جعلت إمرأة تيمور مُلقاة على الأرض وهي تصارع حلقات الموت غير قادرة على احتضان صغيرتها.

القاتل يعي أنه لو بقي في المدينة سيصل إليه زوجها حتى لو دفن نفسه بين الموتى متخفيا عن عينيه، فهرب بعيدا دون أن يُفصح لأحد عن مقصده.. وهنا فجعة الموت جعلت تيمور يبكي لأول مرة منذ سنوات عدة، اعتقد أن وضعه منيع للأسى تماما.. والآن خدعه كبريائه، لم يعرف من فعلها.. ولم يخطر على باله سبب قتل البريئة، فاضطر الحفاظ على النفس المتبقية منها.. بذل ما بوسعه حتى يُطهر طريق سير ياقوت في الدنيا، فارتحل معها نحو بلدان مختلفة بلا رسوخ.. أحيانا كانت تبقى مع جيرانهما حتى يعود أبيها من غزواته، وأحيانا كان يتركها بجوزة أصدقائه الشرفاء كلما شعر برحيق خطر يتلاعب حوله.. تنقلوا سويا لعدة مدن ساحلية وبرية بُحكم ارتباطاته العسكرية، والتي جعلته يُفضل اصطحابها معه متجاهلا مشقة السفر.. فصار يتقلب في المناصب بمختلف البقاع حتى وصل للقاهرة، ويشهد كل جندي التقط الأوامر منه سابقا أنه محتشم الأخلاق بالرغم من صرامته في التحدث عن كل ما يتعلق بميدان الحرب.. وبالرغم أيضا من حظوته المخيفة لكل عسكري شعر أنه سيتكاسل قبل أن يُنفذ الأوامر، سكن مع ابنته في بيت متواضع.. سكن بين العامة ولم يطلب من قادته أن يهبوه منزلا شاهقا تُزينه الورود، حتى تلك الإنعامات السلطانية العديدة –كالكسوة والمال المُفرط والأطعمة- التي كانت توزع عليه مثلما كانت توزع على من هم في مثل رتبته.. كان يمنح أغلبها للمعدمين بنفسٍ خاضعة لسُنة **الله** الكريمة، فالطبقية المملوكية التي ظهرت منذ عقود جعلت المصريين قانتين على تمدد الاستهانة بهم.. وهذا ما رفض تيمور اعتماده كمبدأ في حياته، لذلك رضي بزواج ياقوت من جاسم المصري دون الالتفات لعاداتٍ توارثت عبر حكام الحقب.

***

هنا، جمعه القدر من جديد مع حبيبة.. بل ملكة تشبه زوجته، لم ينساها قط.. ولكنه لم يستطع مقاومة رؤية استنارة وجه بركة وهي تضحك على سجيتها بينما كانت تصفق مع بقية الشابات والنساء الماثلات بفرحتهن، التف بقدميه دون أن يلحظه أحد ليدخل من الباب الخلفي من المنزل.. حيث تكمن الصواني المُحملة بالأطعمة الدسمة والمشروبات العشبية المُخصصة لإكرام الحاضرين، بجانب صناديق صغيرة تمتلىء بالنعيم الفائض المتروك للفقراء كما اعتادت أن تفعل هي.. فانتظر متخفيا لمدة ساعة عسى أن يُقابلها، وبالفعل آتت لتتأكد رفقة بقية النساء من كمال التجهيزات التي ستُوزع بعد بضع دقائق.

فبعدما خرجن جميعا وبقيت هي لتجرد ما تبقى من أواني، استطرد:

– أترغبين في تقبل مساعدتي؟!

لم يعلن عن حضوره إلا بعدما ظلت وحدها وخرجت بقية السيدات من هذا الموقع، حتى أن بركة فُزعت فور سماعها لصوته وانتفضت حتى كادت أن تسقط:

– ماذا تريد؟ كيف دخلت إلى هنا؟

تراجع تيمور حتى لا يُخيفها:

– لم أشأ التطفل، فقط أردت أن أُقبل رأس ياقوت

تنفست الأم للحظات بعد أن تخللها هاجس توقع كذبه، لترد باستنكار:

– كان بإمكانك أن تدق الباب الأمامي، بدلا من الوقوف هكذا.. لا يُسمح لأي من الرجال الدخول هنا، إنها الساحة الخاصة بالنساء.. وأعتقد أيضا أن ابنتك أخبرتك بذلك

ظل يحدق في عينيها للحظات شاردا، ثم رد في ثقة تمحو إخفاقه البَيِّن:

– حسنا، سآتي إليها كي أُحدثها بعد انتهاء العرس.. أرجوكِ أبلغيها برغبتي حينما يرحل الجميع

تحرك للخارج في خطواتٍ بطيئة منتظرا منادتها، فقالت بركة بغلظة:

– فور عودتك، أرسل فردا من عساكرك حتى يأخذ الطعام للرجال بالخارج.. الآن، ولا تتأخر

التفت إليها مندهشا، لم يُحدثه أحد قط بغلظة هكذا كما فعلت هي.. ألقت عليه الكلمات وكأنه أمر سيُعاقب إن لم يُنفذه، راودت نفسه الصارمة.. وداعبت قلبه النابض، حيلة تستخدمها الحُور أحيانا كلما لاحظن مراقبة محب فُتن بجمالهن.. وهذا ما فعلته بركة، ولولا ابتسامتها الخافتة –بخجلٍ- التي لمحها تيمور على وجنتيها قبل أن يخرج لصرخ في أذنيها كي تعتذر عما بدر منها.

الفصل الثاني والثلاثون

أطباق نحاسية عتيقة غمرت المائدة الطنانة، حبات الأرز الملتصقة ببعضها حاصرت قطع لحم الخنزير الدهنية.. اشتوي الغذاء على نيران أذابت رائحتها حس الشبع من عقل طباخها، أما اللوبياء المقرنة –نوع من البقوليات- فانغمست أيضا على طرفي الصحن العريض الموضوع بالمنتصف.. تجمع عائلي صغير، چون يتناول طعامه وهو يجلس على جهة أبيه اليمنى أما صغيرته فتجلس يسارا محاولة ألا تُسقط من يدها الملعقة التي تحملها.. استفاضة عباراتهما متناقلة عبر الهواء، لكنه متجاهلها بحواسه.. يحاول تدارك ذبذبة الخيفة بكل ما أوتي من صبر، يوجهون له الأسئلة بعلو نبراتهم.. لكنه يجيبهم بداخل رأسه، يجيبهم ولا يُصدر الرد من فمه.

– بعض القادة يتداولون العبارات والأخبار المُستحدثة بينهم أحيانا هنا بالقصر يا أبي، فقد استنتجت منهم أن قدرات الجنود القتالية لم تصل للمستوى الوحشي بعد كما ظن رجالك يا أبي

أردفت الابنة ذات خضار البؤبؤ النادر:

– ما دام أبي هو كبيرهم، لن يضرنا العدو

في ذهنه رد جانوس وقال اتركاني أنتما الاثنان، لا أرغب في الاستماع إليكما.. كم كنت أتمنى أن أصبح في مثل عمركما حتى لا أتحمل هذه المشقة على عاتقي، اغرُبا عن وجهي.

تنهد چون ليُكمل:

– بل الأعداء، أشعر أننا محاصرون.. حتى عمي هيو يقول أن الخلافات تتراكم بيننا وبين عاهلي البلاد المجاورة

قاطعته آن بكل براءة:

– سأدافع عنكما إن حاول أحد إيذائكما

للمرة الثانية يبقى الملك صامتا ولا يجهر بإجابته، فيقول بنفسه عليكِ أن تقتلي أخاكي حتى يصمت تماما.. كلماته تُثير استفزازي.

فداعبها شقيقها:

– أكملي طعامكِ إذا أيتها المتمردة حتى تتمكني من فعل ذلك لاحقا

ثم أعاد النظر لأبيه:

– لمَ ساء الوضع إلى هذا الحد يا أبي ؟! فما دور مساعديك إذا إن كانت النتيجة هكذا

أمسك الأب بالملعقة الثقيلة ورفع صرة تكويرية من الأرز لفمه، مضغ المخزون لبرهة ثم أمسك بقطعة اللحم الدهنية وقسمها بأسنانه حتى يبتلعها سريعا خلف ما سبقها.. مجددا، الرد على تلك العبارات الأخيرة كان بسيطا.. أعرف كل ذلك يا ابن العاهرة، فلا قدرة لي لفعل المزيد!!! لكنه أيضا فضّل الالتزام بهدوئه التام، خاصةً عندما رأى ماريا تقف عند الباب الخارجي للقاعة التي يجلسون بها حينما يأكلون.. فتحرك بجسده نحوها مندفعا، دون أن يتفوه بكلمةٍ لصغيريه.

– لا تخبريني بأي مصائب جديدة قد حدثت، قلت لكِ المرة السابقة إن أردت التحدث معكِ سأستدعيكِ بنفسي

يُلقي عليها كلماته وكأنه يُعنفها، فردت عليه متراجعة:

– أنت لم تقُم باستدعائي منذ قرابة أسبوعين، حتى وإن لم أكن زوجتك.. لا تتجاهل هذا المولود

وضعت يدها على معدتها كي تمتص غضبه، فثبتت عيناه على جسدها:

– يبدو أن من تحمليه بأحشائكِ يكبر ويزداد حجمه، مظهر جسدك لم يعد كما كان

فأمسكت بذراعه وراحت تربت معصمه كمحاولةٍ منها لتهدئته:

– سأنتظرك بداخل غرفتِك، دع كل ما يُشغل عقلك واجلس معي ولو ساعة واحدة.. لا تتكاسل هذه المرة بالأخص، أستأذنك ملكي العظيم

ابتسمت إليه في حنان بالغ ثم تحركت مُسرعة صوب الطرقة المؤدية للغرفة، وبقى جانوس بموضعه يقف في حالة من الذهول.. ثم التفت جانبا كي يتابع تصرفات طفليه العفوية، ليجد چون هو الآخر يختلس بعض

النظرات إليه بينما كان يضع الطعام بفمه في حرصٍ شديد حتى لا يلاحظ أحد أنه يراقب الموقف.. محاولا استيعاب سبب توتر والده وسبب وقوفه مع تلك الخادمة، ولكن الأب تجاهلهم جميعا وراح يستكمل بقية مهامه.

***

ساعة الالتقاء منتظرة، غرقت مركب محملة بالمجاديف كانت متجهة من اللاذقية نحو مصر بعد هجوم أربع سفن مجهزة على بحارتها.. فقد اتفق جانوس مع رافاييل على إيصال خطاب فعلي يوضح أنه لا حاجة لهما بسرقة ما احتوت عليه، فذبحوا من كانوا على متنها ثم أشعلوا النيران في أخشابها حتى احترقت.. تصرف أوحى للجنود بضرورة التشبث بحبل الثقة المقترن مع ملكهم وقاداتهم، ليجتمعوا سويا في لارنكا.. أو كما أطلق عليها المسلمون، الملاّحة نظرا لبحيرتها المالحة التي تمتلىء بالمياه في الشتاء ثم تجف عنها في الصيف لتظهر فيما بعد كميات كبيرة من الملح غير صالح للاستهلاك.. تقع في الجنوب الشرقي محتوية على ثاني أكبر ميناء بالجزيرة، وحولها من الجهة البرية منحدرات استغلها صاحبيها في خلق الكمائن البشرية والحديدية كي يتم اصطياد من تبقى على قيد الحياة وقت هروب عساكر المماليك.

جلسوا عند بقعة مليئة بالأشجار والخُضرة الطازجة بعيدا عن الحراس حتى لا يطلع أحد على أي قرارات ويُفشي مضمونها، فبادر **(بيرو)** أمير مدينة لارنكا بتدعيم حلقة النقاش:

— علمت من بعض أتباعي أن السلطان أمر بإنشاء مسطحات جديدة بجميع الموانىء، أهمها دمياط والإسكندرية.. وهناك تحركات تجهيزية غريبة أيضا تحدث في طرابلس

مصطلحاته تطرأ منها أفكار خبيثة المدلول، صفة شخصية تحلى بها وقتما كان يُنهي أعقد الصفقات المالية المتعلقة بتبادل الأسلحة والرجال مع بعض أمراء السواحل الأوروبية.. فرد عليه هنري متحمسا:

— حسنا، فلنرسل مجموعة بحرية تهدم ما قد صرفوا الأموال من أجله لتشييده.. وحينها سنتمكن من تعويض ما فقدناه حتى لا ينقضوا علينا مرة أخرى

فقال جانوس في شرود:

— سيفعلون هذا، بالطبع سيفعلون هذا

حاول رافاييل إبداء حله:

– لدينا العديد من السفن المجهزة يا سيدي، بإمكانها أن تقلع في أي وقت.. نحن فقط ننتظر إشارة سلطتك بعد أن تتخذ قرارك المتقن رفقة الحاضرين

بين يوجين وبييرو خلافات طفيفة لا يعلمها الكثيرون، الأول قد سعى من قبل جاهدا ليصبح في مكانة الأخير.. ولكن فارق العمر بينهما ما أنهى الأمر لصالح الأكثر تميزا والأكثر مقربة لعقل الملك، لهذا حاول دوما يوجين طمس عبارات بييرو كلما تحدث:

– ألم يُخبرك أتباعك بأنهم حتما سيشنون الهجوم علينا خلال شهرين؟!

التفت إليه صاحب لارنكا في ثقة:

– ربما أنا لا أعرف الموعد المحدد، لذلك يتوجب عليك أن ترسم بيديك خطة محكمة لتعرضها على ملكنا

قاطعهما جانوس بحدة:

– الصراع النفسي الدائر بينكما لا جدوى من إظهاره الآن

أكمل رافاييل وهو يُتابع تلك الأعشاب الماثلة على جانبي قدميه:

– المصاعب لن تخفى عن أعيننا حتى وهي مُغلقة، وأنا أطرح عليكم أن أتحرك برجالي صوبهم لعل بقية التحصينات تنتهي بكل المدن قبل عودتنا

تنهد يوجين ثم قال ناظرا إليه:

– اقتراحك في غاية الجدية، ولكن ماذا ستفعل لو وجدت عشرات المراكب بانتظارِك؟!

– على الأقل سأحرق أضعف...

أمسك بييرو بيد المتحدث ليكُف عن الهرتلة ثم استطرد:

– لا تتسرع، كي لا تخسر ما تملكه بين يديك الآن.. كما حدث سابقا لسيمون، معلمك

فانفرد الملك بقراره:

– أنت محق في رأيك يا بييرو، ولكن لا تنسى أن الظرف المطروح يُحتم علينا المباغتة وليس الهجوم المباشر كما تظن

استغل رافاييل هذه اللحظة وتوجه لجانوس قائلا:

– دعني أُطلعك يا سيدي على بقية التزويدات التي أتممنا إحضارها كليا

سياسة النبيه تحثه على قياس أمتار الشبكة قبل استخدامها في تكبيل أطراف الفريسة، برهان منطقي حظي باهتمام الآلاف من ذوي المناصب القيادية.. وفي هذه الفترات، الهجوم خلف الخدعة يُجبر الخصم على التراجع حتى وإن كان هو الطرف الأنجح.. فالتماسك ما سيضمن استمرارية التقدم، وستظل احتماليات النصر تتصاعد ما دام الأمر مهيأ بمنطقية.. جانوس سيُرسل رافاييل لمعقل سفن السلطان، لينقبض شعاع التباه الذي تنعمَ به وسط جنوده خلال عامٍ كامل.. لعل الملك يُطعم برسباي لحما نتنا بأصابعه حقا، كما شاهد في أحلامه المتضاربة سابقا.

(٨٢٨هـ - ١٤٢٥م)

(الثبات)

الفصل الثالث والثلاثون

لحظة التراجع تنتاب النفس عندما يحين موعد اتخاذ الخطوة الثانية، وبالرغم من كونها الثانية.. إلا أن التوقع يبقى غير مضمون، الجندي متأهب ويسعى لتحقيق هدف محدد وجهه نحوه قائده.. والمقصد الأصلي الآن اتفق عليه المئات والمئات من الجنود، التحدي زرع فيهم الرغبة لرد الإهانات التي ألقاها مشاكسهم دون إظهار بعض من مبادىء الرحمة وقت سرقة أملاك الأهل والفقراء.. لم ينس أحد من العساكر المتحفزين أن قومهم ربما يفتقرون للمال، ولكنهم لا يفتقرون للعزة النابعة من أصولهم.. ولم ينسى سلطانهم أيضا تلك السفينة الشاهقة التي قد تم إغراقها باللاذقية، كاد أن يتعجل جرباش حينما وصله الخبر ويقود الحملة على حين غرة لكن برسباي أمره بالتريث للحفاظ على عناصر ضبط النفس المتعارف عليها إحقاقا لدعم خططتهم.

وقبل أن يتم التحرك، وصلت تسعة سفن مخصصة لإعاقة تقدم الحملة إلى دمياط.. فقد أوشكت لحظة الاشتباك على البدء بقيادة رافاييل، إلا أنه لاحظ اقتراب المراكب التي كانت مرابطة في الإسكندرية نحو موقعه الحالي.. ليكتشف أنه أصبح في موضعٍ حرج لكونه محاصر، وليس هذا ما أراده.. فاضطر أن يتقهقر مع أشباله دون حتى أن يرى هطول قطرات العرق السائل من جبينهم وقت اندفاعهم، ولكنها فقط هطلت حينما شعروا أنهم في قاع المصيدة.. تيقظ جرباش لهذا التصرف، وتنبه أيضا لتوافق موعد الإقلاع النموذجي.. ففي أواخر رجب سنة ٨٢٨هـ/أوائل تموز **(يوليو)** ١٤٢٥م أبحرت الحملة إلى بيروت لتلتحق بها بعض السفن وهكذا صارت إلى طرابلس حيث انضمت إليها مجموعة أخرى، ليبلغ العدد الكلي ثلاثة وأربعين سفينة متفاوتة الأغراض والأحجام.. وأشهر الأنواع التي تم الاعتماد عليها آنذاك هي البطسات ذات الأسطح العالية، فقد تألفت من طبقات كل منها خاصة بفئة عسكرية محددة وعلى متنها كان يُحمل آلاف الجند بالأقوات وأيضا آلات الحصار والأسلحة.. وتم استخدام الجلايات أيضا، تلك المراكب التي كانت تسير بالشراع والمجاديف.. علاوة على هذا، الطرائد سريعة الجري التي احتوت كميات الخيل على متنها بجانب ما يقرب من أربعين فرسٍ.. ولأهمية المدافع النارية والتي لا غنى عن حيويتها، كانت الحراقات -هذا النوع الذي كان يُستخدم في النيل لحمل الأمراء خلال الاستعراضات البحرية- بحوزتها المجانيق.. فاتجهت الحملة في ١٤ رمضان/١٩ تموز بقيادة الأمير جرباش الكريمي قاشوق حاجب الحجاب مصاحبا له العديد من الأمراء، جميعهم كانوا على قدر من الدهاء لإنجاز الترتيبات المفروض تنفيذها بداخل تلك السفن غفيرة العدد.

صارت الحملة المهيبة صوب ميناء **(قرباص)**، وهي منطقة تقع على الشاطىء الشرقي المرتفع عن الجزيرة.. لم يلبث الرجال هناك كثيرا، فتحركوا باتجاه مدينة الماغوصة **(فاماجوستا)**.. أيضا تقع في شمال قبرص، ولكن ملك جنوة أحكم السيطرة عليها في ظل صراعاته المتكررة مع جانوس.. وصلتها القيادة الجانحة في يوم الواحد

والعشرين من رمضان، وعلى الفور نزل المجاهدون من مشاة وخلفهم الخيالة إلى البر وشيدوا خيامهم هناك بانتظام واضح.. ولمَّا أبلغ الجواسيس ومستكشفين المنطقة حاكم المدينة عما رأوه من ضخامة عدد القوات الإسلامية، أرسل إلى الأمير جرباش رسولا يستسمحه بعدم الإنقضاض عليهم وإعطاء أهل المنطقة فرصة السكون في فراشهم بسلامٍ ممنوح بلا غدر.

فمقابل ذلك، عرض هذا الحاكم فكرة إعلان دخوله في طاعة قائد الحملة.. حتى أن رسوله قد وقف مرتعشا وهو يردد الكلمات باللغة العربية محاولا إظهار شفا الأحرف دون أن يُخطىء:

{..أنا مملوك السلطان، والمدينة مدينته، والرعية رعيته..}

تفهم جرباش الأمر واحترم رغبة الآخر، فقرر أن يمنحه رفقة رعيته الأمان بعد أن أرسل إليه راية سلطانية منقوش عليها عبارة:

{لا إله إلا الله}

وتحتها جملة ثانية، وهي:

{السلطان المعظم الأشرف سيف الدين برسباي}

كي يرفعها على قمة صخر قلعة مُلاك المدينة.

***

بقى رجال برسباي يحافظون على حصارهم المتواصل، حتى أمرهم جرباش بالبدء في شن الغارات على القري والمقاطعات المتناثرة حولهم.. خاصة بعد أن علم أصحاب الخبرات -الذين استطاعوا أن يستجوبوا الجبناء من أهل المدينة- بمحاولة بعض جنود الملك المندسين بتسليح المدنيين لمواجهة المسلمين خارج حدود القلعة، ولكنهم لم يجدوا الفرصة بوقتها الكافي.. فقد هجم الشجعان عليهم وأوسعوا المناطق بما فيها تخريبا وتحريقا، وكأن **الله** بعظمته بث السكينة في قلوب الجنود.. وعلى الجانب الثاني بث الرعب في قلوب أصحاب الأرض، فكان الثلاثة من المسلمين يدخلون الضيعة التي يسكنها ما بين المائة والخمسين من جنود وشبان وشيوخ ونساء فلا يمتنع عليهم أحد.. مُلاك هذه البقعة ركضوا ولم يقاوموا، راضخين للهزيمة بعد علمهم بفشل مناهضة من سبقوهم.

أيام ثم أقلعت الحملة تجاه الملاّحة **(لارنكا)**، فاتفق جرباش قبل تبني قراره مع بقية الأمراء على أن يتخذوا معا أسلوبا غريبا كي يتمكنوا من حصر مفاتيح الكفاءة والعجز في تلك البقعة المقبلين عليها.. أي وضع مخططا للإطباق على الصليبيين فيها برا وبحرا، فهذا الأمر لم يكن بجديد على والد ياقوت لما امتلكه من دراية كاملة بأسلوبٍ تقني للمواجهة على الأرض قبل البحر.. فعندما وصلت المجموعة إلى مكانٍ يسمى رأس العجوز نزلت سرية إلى البر تتألف من نحو ربعمائة جندي يكمن بينهم جاسم تحت قيادة تيمور في غضون الليل، وكان غرض السرية الأول هو الهجوم على قوات جانوس المُرابطة قبل طلوع الفجر.. وهذا ما قد حدث بالفعل، فقُتل كل من أبى أن يستسلم وظن أنه سيُكبد أفراد هذه المجموعة الخسائر.. الجديد في الأمر أن هذا العدد كان في سيره يُحاذي الأغربة التي استمرت تبحر نحو **(الجزيرة المالحة)**، إلى أن في اليوم التالي وأثناء صلاة الظهر لمح جرباش على أعتاب بصره أسطولا قبرصيا مؤلفا من ثلاثة عشر سفينة يقترب من القوات الإسلامية.. لم يتماطل تيمور ولا جنوده، فأسرعت السرية بالعودة من البر لمساندة العساكر بداخل الأغربة لمواجهة ذلك الأسطول البحري المُجهز.

الفصل الرابع والثلاثون

لم يكن جانوس يستقبل خبر استسلام حكام المناطق المتطرفة عن مدينته بالترحاب، بل كان غيظه يُحدث تآكلا واضحا في قلبه الذي فقد القدرة على تحمل الصدمات.. ولكنه من أوقع بنفسه داخل حفرها العويصة بالرغم من تحذير أخيه هيو الدائم، أما الثاني -هنري- كان مندفعا مثله.. نظرا لتشابه طبعهما الطائش، اتفقت آراؤهما كثيرا على مر السنوات.. وتلك هي النتيجة، دماء رجاله تُلطخ الغنائم التي خسر أغلبها.. فقرر مجتمعا مع بقية قاداته أن يضع خطة يستطيع من خلالها تشتيت أفراد الحملة الكبار، تضمن الحاضرون بييرو.. صاحب الموقع المثالي لاستقبال أي هجمات، لذا فُرض عليه في تلك الآونة أن يحفظ أرواح من يسكنون بداخل لارنكا.. ليُعاود الجلوس بجانب قادته محاولا إقناعهم بصدق شجاعته الكاذبة، مع أن ملكه كان يعرف أن الخوف نزع الثقة من عباراته.. فكلما شعر الجندي بأن أميره لم يعد يعرف أي أسلوب سيتبعه كي يُحسن التصرف، اهتزت عزيمته تلقائيا.. ثانية من الدهر ربما تصير حاسمة، لذا قرر صاحب الجزيرة أن يُصبح درب هجوم قواته بريا وبحريا.

- سيدي، جميع الفرسان مستعدون وينتظرون لحظة الاندفاع الفُجائي.. ولكن يجب أن نؤمِن كل حدود المدينة، أي يجب أن نرسل بعض القوات بعيدا عن بواباتها ليواجهونهم بكل ضراوة حتى يفقدوا وسائل الدعم الكافي

حديثه مبسط وفكرته واضحة، بييرو لم يتمنى أن تستقبل منطقته الغزاة.. لأنه كان على علم بأن قوات السلطان الصارمة ستستطيع اجتياز خطوط عساكره حتى وإن كانت منظمة، لذلك رد يوچين بجدية واهتمام:

- بالفعل، التخطيط لهذا سيمنحنا الأولوية للحفاظ على عددٍ أكبر من جنودنا.. وعلى الأقل أيضا سنُخسرهم ما تبقى معهم من مؤن

هيو رغم خلافه المستمر مع جانوس، كان دائما يقف بجانبه في مثل هذا المجلس.. الجميع اتفقوا على ضرورة وجود أسقف العاصمة أثناء تشاورهم، ربما بركة طهارته ما كانت تُطمئنهم حتى وإن كانوا يتجاهلوا آرائه لعدم اقتناعهم بها.. فقال بهدوء:

– **الرب** يحفظ رافاييل ورفاقه، فهو خير حامٍ لأبنائنا.. الأمير يوچين أخبرني أن الاشتباكات اشتعلت بين الأسطولين

فتدخل هنري في الحديث بكل ثقة:

– وسننقض عليهم من الجهة البرية أيضا

قاطعه جانوس:

– هذا ما كنت سأخبركم به اليوم

فأردف بييرو وكأنه يترجاهم:

– نعم، نعم يا سيدي.. أنا أول من يدعم هذه الفكرة، أرجوك آمر بالتحرك نحوهم في أسرع وقت

الكل لاحظ توتر الأخير المبالغ فيه، فأعاد ظهره للخلف واتكأ بيده على الكرسي.. ليُكمل جانوس:

– ستقود يا هنري بنفسك المجموعة الحربية التي ستهجم عليهم إن استطاعوا أن يفلتوا من أسطولنا، حضورك سيشد من أذر رجالنا.. جميعهم يؤمنون بقدراتك، خاصةً عندما يرونك تصرخ في وجوههم

كما ذكر هيو، قد تم إرسال الأسطول لاستدراج السفن الإسلامية إلى وسط المياه كي تفقد تواصلها مع القوات البرية.. ولهذا السبب فكر الملك أن يرسل أخاه هنري كقائدٍ للمشاة وخلفه سبعمائة فارس وثمانية آلاف من العساكر لقتال المسلمين، لم يكتف الأخير بهذا فقط.. فقرر أن يصطحب أيضا خمس عجلات تحمل على حافتها العديد من المدافع والأسلحة التي ستجرها البقر حتى يتمكن من ضمان نجاح مقاتلة مراكب المماليك، إن عجزوا عن الوصول للبابس وقت اندلاع الاشتباكات.

الاقتراحات متبادلة، ولكنها انتهت حينما استأذنهم في الدخول عين غزال:

– أبلغوني بضرورة حضوري الآن والمثول أمام فخامتك يا جانوس العظيم

ثم انحنى للملك في وقار:

– هل لي بمساعدتك إن أردت ؟!

طويل القامة وغليظ الصوت، يده اليمنى أضخم من اليسرى.. لذلك كان يستخدم الأولى في حمل الدرع، والثانية في حمل سيف ذهبي الخامة.. يرتدي على جسده غطاءا ثقيلا من الحديد كزيٍ رسميٍ عسكري، أسطورة لا يجهلها أي جندي ولو كان حديث العهد بالإمساك بسلاحه صعب المأخذ.. يثق به كل قائدٍ حربي أراد أن يعتمد عليه منذ شبابه، عين غزال هو أحد خواص جانوس.. أي من أعيان القوم وأكابرهم خلاف العامة، يُعتبر أيضا من أهم الرجال العسكريين المقربين للملك.. فدوما وبكل وضوح، بإمكانه أن يُبدي رأيه فيما يشاء على الملىء ما دام هو الأحب لقلب حاكمه.

– أنا على عهدٍ بتنفيذ أمانيكم المتعاقبة بعدما تحددت وجهتي بقراراتكم، ولا خلل في تأكد نجاحها طالما كنت حاضرا وسط جمع العساكر

رد جانوس بهمةٍ:

– ستكون أنت الحامي الأول لمدينة لارنكا، والأمير هنري سيسبقك ليهاجمهم.. فإن حدث أي مكروه له أو اضطر أن يتقهقر، سيتحتم عليك أن تتبادل معه بقعة ارتكازه بصُحبة رجالك

ضحك الفارس:

– ما دام الأمير هنري هو قائد تلك المجموعة الهائلة الماثلة أمامي، فسيفوز حتما.. وسأقف خلف الأسوار أشاهده يذبح ويطعن وأنا أُصفق له بحرارة مشتعلة، كما تعاهدنا سويا من قبل

اقترب منه المسؤول عن قوات المشاة ثم همس في أذنه ضاحكا:

– لا تنس أننا كنا نتدرب سويا يوما ما

فقاطعهم أركون وهو ينهج بعد أن دخل القاعة وجسده يتخبط بالمقاعد من فرط الإرهاق:

– أعتذر عن التأخير، حقا أعتذر.. ولكني وصلت للتو، فقد انتهى الجنود منذ فترة ليست ببعيدة من تدعيم حصن ليماسول الشاهق بعدما تمركزوا بأسلحتهم كما خططتوا لهم أيها القادة

فتساءل يوچين:

– أتمنى أن يكون قوامه متماسكا كما توقعنا جميعا، التقط أنفاسك واجلس أولا.. هل تم إمدادك بتلك المدافع الثقيلة كما طلبت سابقا؟!

أجابه أركون:

– نعم، وتم وضع جميع أعدادها فوق كل تبة

اتضح لجانوس أنه فعل ما بوسعه كي يتصدى لتوابع خطيئته في حق السلطان، يحاول بكل الطرق أن يحفظ بهاء سيرته التي بدأت أن تشوبها السخرية من قِبل أفواه العامة بعد وقوع المصيبة المخزية على ساحله في السنة المنقضية.. فتوجب عليه ألا يخسر التحدي في هذه الملحمة القادمة والغير مبشرة، لأن الفضيحة الجوهرية تكمن في خسارة السيطرة على كل البقاع.. والتحصينات جميعها توجد في مناطقٍ متفرقة تبعُد عن بعضها بأميال، تفكير عسكري ربما لن يعطي الفرصة لمرشد الحملة العربية كي يلتقط أنفاسه إن مر من خلال الكمائن المنصوبة إليه سواء على ضفة المياه أو بداخلها.

الفصل الخامس والثلاثون

أثناء تلك الآونة لا يمكن التوقف عن مواكبة حصاد قيمة العوامل التي ستدفع مسار الأمة لجلب النصر، مصب النيل والبحران طوال الدهر يُعتبروا صُرُوفا رئيسية تتحكم في تيسير حركة التجارة العالمية.. فهي منطقة رائدة، ومحطة تتحكم في مجرى أضخم التحويلات المادية مقابل البضائع المتفرقة.. القوانين الغير مألوفة التي قد تم تطبيقها ستُعطل أي من التجار عن جلب الربح الملائم لاستقدامات أهل بيته، فهم جميعا متيقنون من أن هذا النهج سيحرم أغلبهم من الحصول على العائد المستحق.. فبذلك جميع المثابرون يواجهون أموال الدولة بأكملها، والتي باستطاعة المسؤول عنها -وهو السلطان– تسخير كل السبل لخدمته.. وبسبب ثقل نفوذ برسباي من موقعه في مصر على بقية المدن بمختلف البلدان، أصدر بمساعدة رجاله التفكرية قرارات أصابت بائعي السوق الأغنياء بالذهول التام.

– عليكم جميعا أيها الأمراء إدراك أن تحصيل أكبر قدر من الرسوم هي مهمتنا الأولى، زيادة على رفع أسعار بعض الأطعمة الرائد شرائها من الحَوانيت

افتتح برسباي بادىء الحديث في مجلسه بهذا الفرمان الواقعي، ليرد عليه معلمه بدر الدين -صاحب ديوان الحسبة- مندهشا:

– ولكن رواد المتاجر سيرفضون التكيف على تلك الاستحداثات يا سيدي، بالطبع التجار لن يقبلوا هذه الشروط المفروضة.. حتى أن العامة لن يملكوا القدرة على جلب ما يُشبع بطون أبنائهم

التفت إليه السلطان ليقول:

– لا نقاش سيدور لتعديل عباراتي، من يمتنع سيُسجن وتُصادر بضاعته بأكملها.. أما عن العامة، فلا مفر لهم من تحمل شقاء الموقف

تنهد ناظر الدولة **(أمين الدين إبراهيم بن الهيصم)** -المسؤول عن إدارة النظر وهي وزارة المالية، فقد اختص بمراقبة حسابات البلدة والمرتبات الموزعة على أصحاب المناصب.. وأطنان الخبز وأوزان اللحوم التي تُفرَق يوميا على المؤسسات والأسواق والأفراد، بجانب أكياس السكر والشمع والزيت المُعطاة شهريا دونا عن الكسوة الممنوحة سنويا- وأكمل في تحفظٍ:

- لو كان هذا القرار عائده سيكفي لاكتمال احتياجات الجيش، فأنا أؤيده.. ولكنهم سيوجهون عباراتا لاذعة وهم يتحدثون مع مندوبين سلطانِك، اعتراضاتهم شديدة قد تصل لحد الاشتباك

استطرد الوزير **(كريم الدين عبد الكريم بن الصاحب تاج الدين)** -وكانت اختصاصاته حينها تضاءلت عن السنوات السابقة كليا، لكن هذا لا يعني أنه يهتم بشؤون جانبٍ هزلي بالدولة.. فقد أصبح هو المُكلف بجمع إلزامية المكوس أي مال الجمارك، وأيضا فريضة الضرائب من التجار وأصحاب الممتلكات- ورد مسرعا:

- على كل المستحقين والموظفين الموكلين بجمع تلك الأموال، الذهاب في حراسة على الأقل أربعة عساكر وقت تنفيذ واجبهم المهني

ليقول أينال الجمكي أمير المجلس:

- بالتأكيد هم في حاجة لذلك، لو لم تُتخذ الاحتياطات اللازمة.. ستنهال عليهم اللكمات من كل جانب

ثم التفت للسلطان:

- ولكن، كيف يا سيد البلاد سيُعامل كل تاجرٍ لا يُقيم في مصر من الأساس؟

أجابه برسباي في حزم:

- توصلت أخيرا لحلٍ قاطع بعد تفكيرٍ متواصل دام لأسبوعين بمساعدة أعواني، فإنه سيتم منع أي من التجار المقيمين بالحجاز من السفر للشام دون الرجوع إلى مصر.. لتحصيل الرسوم على ما سيبيعونه من توابل

ارتفعت الحواجب تعجبا، وتبادل الحاضرين الهمسات عاجزين عن الرد.. فقال بدر الدين:

- هذا الأمر مفصول الجانبين، فالنصيب المادي مضمون ومربح وكاف.. أما النصيب المأسوي سيدفعه كل من عمل بتلك المهنة للبُعد عن ملازمة الفقر مجددا

قاطعه أمين الدين ساخرا:

- جميعنا فقراء **لله**، ولكن أجبني.. هل لديك حل آخر؟!

أردف بدر الدين في شغف:

- أجل

فتنهد خلال استكماله:

- على الأرجح، بإمكاننا أن نفرض على التجار حصة من النقود شهرية لا تُرد من أرباحهم بجانب الضرائب الموكلين بدفعها.. أي نسبة تُشبه الجزية التي يدفعها اليهود والنصارى

تبعه كريم الدين بالموافقة:

- لو فعلنا ذلك سنتمكن من تجنب التعطيل المتوقع لعملية التجارة، وأيضا سنضمن جزءا مخصصا من الأموال كعائدٍ لخزينة الدولة

ليقول أينال باشمئزاز:

- تحاولون إرضاء الجميع، وهذا لن يحدث أبدا ما دامت النقود هي ما تتحكم في مسار الوضع الراهن

لحظات ثم وقف برسباي مبتسما، وهو ينظر إلى عزيزه:

- عملية التجارة في البلاد لن تُعطل قط يا سيد بدر، والاستهانة في إتمام هذا القرار.. سيُكلف السلطنة خسارة هيبتها أمام العامة

سرعان ما ذاع صيت الأمر بشكلٍ هائل، راحت الكفوف تلطم على جباه صاحبيها إثر الخسارة المتلاحقة التي أصابتهم.. رسوم يتم فرضها وعساكر تتبع من يتهرب، الزنازين تكدست بأعدادٍ ممن حاولوا أن يتعدوا على منفذي أوامر سلطانهم.. أصبحت المعضلة أكثر تعقيدا وعلى مصاحبي برسباي في قراراته إيجاد بعض الحلول لتسهيل الطرح على التجار القادمين من جدة، وبالفعل استجاب للتذمرات المتكررة حتى يخفف عنهم عناء السفر ببضائعهم إلى مصر.. فأمر بوجوب حضور التاجر مع حراسه لدفع ثلاثة دنانير ونصف عن كل حمل زيادة على الرسوم المُجبر إعطائها رسميا، ومن هنا أصبح هو المتحكم في استقرار مراسم تلك التجارة ليظهر على غفلة ما كان يسمى سابقا بالتعسيف المملوكي.. كل هذه الأفعال تعتبر وسائل لإثبات سعة وضع السلطان بجانب بقية التجار المقيمين في أنحاء المدن، لذا اتخذ أيضا بعض القرارات صوب التجار الأجانب..

فبمحاذاة الرسوم الجمركية التي يدفع أولئك ثمنها لشراء كمية مناسبة من نوع البضاعة المرغوبة حتى يحملونها مجددا لبلادهم، فرض عليهم الديوان الخاص -ما قد أُطلق على المتجر السلطاني- زيادة مالية متدرجة بعد أن كانوا يمنحونها إليهم بسعر السوق المعتاد.. أثار ذلك غضب الكثيرين منهم، لكن زمام الأمور ليست في أيديهم.. عليهم أن يتقبلوا الوضع كما فعل أهل البلدة مضطرين، رغم توقعهم لصدور بعض القرارات العجيبة تجاههم والتي حتما ستُحجم نسبة ربحهم.. لكنهم يحاولون التكيف على ما يحدث، وما سيحدث أيضا.

الفصل السادس والثلاثون

في يدها قطعة صغيرة من الفطير المقرمش دائري الهيئة، أسندتها بجانب طبق نحاسي صغير مليء بالعسل على الصنية المقابلة للمضجع.. حينها اختلست ياقوت بعض النظرات إلى بركة التي كانت تجلس على الأريكة شاردة وحدها وهي تنظر من النافذة، لاحظت الأولى أنها متوترة.. فتحركت نحو الطاولة وحملتها بأكملها من على الأرض كي تضعها بجانب الأخيرة، ثم جلست بمقابلتها.. هذه الأعراض المُعتادة لأهل المغترب، قد غادر من قبل جاسم.. عنفته بسبب حيلته، ولكنها تشرفت بحضوره أمام كل أمٍ جاءت إليها خصيصا لتُهنئها برجوعه الطائف بهجته.. فقد نجح للمرة الأولى بعد سنوات البلاء المُطعمة بالتعاسة التي تلمسها بلسانه، شجاع ذلك الذي يغامر بعمره دون إبلاغ من حملته.. ولكن أخبار الغزوات دوما تتوالى بين الأفواه، فتُثير الرهبة بقلبها من جديد.

- لا تخافي، توقفي عن التفكير المتواتر.. ولا تدعي القلق يُفقدكِ الثقة **بالرحمن**، سيعود.. حتما سيعود، لو لم يكن من أجلي.. فسيعود من أجل احتضانكِ

ابتسمت بركة في خفوتٍ وأوقفت ذهنها عن الشرود نحو مساوىء التوقعات، ثم التفتت لياقوت كي ترد عليها:

- يكره الثبات والخمول، عندما كان صغيرا أُصيب ذراعه بآلام منعته عن الركض بطول ممر حارتنا الضيق مع بقية أصدقائه الآخرين.. حاول الهروب من البيت أكثر من مرةٍ كي ينطلق معهم، فأحكمت إغلاق النافذة وباب البيت حتى لا يخرج بتاتا.. ظل يبكي طوال الليل، وفي النهار بقى يتحسس أشاعة الشمس الخافتة حتى لا يُكبد شعوره بالإقلاع نحو درب الحياة

ضحكت ياقوت ثم بدأت في مضغ الطعام لتحث والدة زوجها على مشاركتها، وأكملت مداعبة:

- أحببته لأنه طموح، وجريء أيضا.. لا أعرف إن كان يوجه مودة فؤاده إليَّ أنا فقط، أم أنه يُحبكِ بشراهة أكثر مني أيتها الملكة.. عندما أجلس معه ليلا أرى القلق ينتابه من أجلِك، يتمنى أحيانا أن يترك بيتنا ويذهب إليكِ

- هو يعشقكِ، يوم أن جاء ليخبرني برغبته في الزواج منك.. كانت شفتاه تتباعدان وكأنه يعترف بجريمة خبيثة، خشي أن يرفض أباكِ وخشي أيضا ألا يتمكن من استئجار ذلك البيت الذي تعيشان فيه

– لو كان أبلغني قبل زواجنا برغبته في أن أعيش معكما هنا في ذلك البيت، ما كنت رفضت أبدا.. ولكن أطلعيني، هل فضلتِ أن يبقى بجانبكِ أم وافقتِ على رحيله دون تعنت؟!

أردفت الكبيرة:

– قبلت الأمر لأني رأيته صادقا، القلب بإمكانه أن يُفصح عن حقيقة كل ما يتستر عليه الفم حتى لو كان مُعتما

تابعتها الزوجة في ثقة:

– والقلب كذلك لا يُخدع مثل العقول، ولهذا يتحكم دوما فيما تُظهره العين.. وجاسم تتجمل الحياة بعينيه حينما يراكِ تقفين أمامه

لتتنهد بركة بعدما ربتت خصلات شعر الأخرى:

– ولأجل نقاء روحك سأحافظ على تعاهدكما إلى أن أموت

مؤنس، يتطلب المرء أن يبقى بجانبه مؤنس للمعاشرة وقت انتظار الأحبة أو وقت الانتظار عامةً.. تعلمان أن **الله** سيمنحهما أمانه المعهود، ولكن ارتعاد روحهما أرغمهما على تحمل زيارات القلق المتفاوتة.. تودان أن تذهبا معا ولو زحفا نحوهما، الأب وزوج ابنته.. تيمور اعتاد على شراكة الموت في ذعر الغزوات، واعتادت أيضا ياقوت على استقباله رابحا المعركة بعد عودته إليها واضعا في جُعبته تذكارا عجيبا.. حصى صغيرة من تلك الأرض التي كان يصول ويجول بين منحنياتها، نبتة زرع نادرة من تربة البقعة التي يعيشان بها.. والآن هي تنتظر الرياح التي ستُعيده برفقة جاسم كي تتشبع بنظرات عشقه المُبهجة، فقد تيقنت أنه سيستند على ظهرها فور امتثالهما سويا في الخلاء.. حاملا بين أصابعه سلسلة خالصة من الذهب الطاهر انتقتها بعناية كي يربطها حول رقبتها، ومن خلال تلك السلسلة ستبقى هناك صلة روحية بينهما لن تنقطع أبدا إلى أن يأتي موعد رحيلها عن الدنيا.

الفصل السابع والثلاثون

شعر جرباش أن هناك شيئا ما يدور حول منطقته يبدو عجيبا، لاحظ أن أسطول القبارصة يتراجع إلى نطاق البحر القاتم كي يُجبر الأغربة الإسلامية على السعي خلفها رغم أنها تُبحر في سرعة عجز الرجال عن مجاراتها أو حتى اللحاق بها.. فقرر مستشيرا رفقائه ذوي الخبرات على أن يُعاود السير بمحاذاة الساحل بعد إنزال السرية التي يقودها تيمور إلى البر من جديد، كمحاولة لإتمام خططتهم في مسح المنطقة بأكملها.. ولكنهم لم يكونوا على علم بأمر قوات الأمير هنري، الذي انطلق على رأس فرسانه وخلفهم ألف من مشاته إلى جهة البحر.. وأبقى على خمسة آلاف من الجنود المتخفيين بالمناطق البرية القريبة، ففكرته بعد أن اكتشف أمر مسلك تلك السرية العربية من أفواه بعض محاربيه هي أن يُحيط بهوامشها كي يتخلص من ضربات عناصرها.. ولكن جاسم قد فطن للأمر سريعا، بعدما تقدم بجانب مجموعة من العساكر بأمرٍ من تيمور لاستكشاف الكمائن التي يمكن أن تُعيق استكمال مهمتهم المُرتبة.

هناك شاهد عشرات من جنود الطرف المضاد يتراجعون بعدما أطفأوا نيران الأخشاب التي أشعلونها في الليل حينما شعروا باقتراب جاسم ورفقائه منهم، وعلى الفور عاد الشاب إلى الجهة المقابلة للبحر حتى يتمكن من الإبلاغ عما استنتجه.. فنزل ما يقرب من ألف مقاتل مملوكي إلى البر بواسطة مئات من القوارب والبركوشات -نوع من المراكب- صغيرة الحجم تاركين سفنهم، وبالرغم من قلة عدد المشاة البواسل أمام رجال هنري إبان المواجهة.. إلا أن المباغتة هي ما حسمت الانتصار لتيمور ومن حارب وراء كتفه، أذهلوهم في الليل وأيضا في النهار بالأسهم والمدافع.. اعتلت على أسنة رماحهم عيون عساكر الجزيرة، فقطعوا رؤوس الخلق منهم وأصابوا مخزونهم من السلاح.. ذلك المخزون المكون من خمس عجلات محملة بما كانوا سيستندوا على فحواه، قبل أن يصيبهم وابل القذائف التي احتفى بها جنود برسباي.

عناد جرباش أجبره في الوقت ذاته على مجابهة أتباع هنري بعد محاولة الأخير لمساندة أسطولهم، فجرى تبادل لإطلاق نيران المدافع بين الطرفين.. ولأن جرباش كان على دراية بصعوبة هبوط جنوده بداخل مراكب العدو لمقاتلتهم بالسيوف، اهتم منذ أن كان في طرابلس بتزويد قطع المدافع بالمواد المشتعلة اللازمة كي يتمكن من إنهاء اشتباكه مع أي سفينة تعترض طريقه.. لذلك انسحب الأسطول القبرصي في أقل من يومين، وظلت سفينتان في المقدمة تستقبلان جميع الطلقات حتى يستطيع بقية القادة الهروب.. ولوهن هذه الخدعة ارتفعت صرخات العساكر الذين تخلوا عن هاتين السفينتين ولم يفلتوا من النيران التي اشتعلت في أجسادهم قبل سقوطهم بالمياه، فبقت سفينة واحدة سالمة استولى عليها الأمير والأخرى كانت متهالكة فأخذ الجنود ما تبقى عليها من عتاد.

وفي خلال أقل من يومٍ اتخذه الجنود للراحة، عادت القوات البرية للالتحاق بزملائهم على السفن مستكملين وجهتهم نحو الملاّحة.. ومن جديد وصل جرباش معطيا الفرصة لعددٍ كبير من العساكر كي ينزلوا بالخيول إلى البر حتى يتمكنوا من ضرب الخيام لاسترداد حيوية أبدانهم التي قلت بعد طول المدة المنقضية بهذه الجزيرة، الطعام المتبقي اختلط بقطرات العرق.. وفي بعض الأحيان كان يختلط بقطرات الدماء، ولذة المياه كانت مريرة لكنها روت ظمأ الجيش الذي تجهز من جديد لتكملة بقية الغارات.. لم يكن تيمور رحيما أثناء انقضاضه على حثالة القرى، ولم يكن أيضا حبيب ابنته هادئا.. براعة جاسم وهو يُمزق البطون جعلت من يواجهه غير قادرٍ على الحراك متعجبا من لمساته السريعة، ولكن أيضا كان يُجملها شهوة الطموح التي لاحظها الأب رغم انشغاله بتلك المسؤولية التي يتحملها.

فالطية الفاصلة بالنسبة للاثنين كانت في مواجهة كتيبة عين غزال، خاصة أنهما لم يصيبهما الذعر عندما سمعا عنه الكثير من أفواه الأسرى.. وكان اللقاء بالفعل بالقرب من لارنكا، فقد أراد الخادم أن يعيق تقدم المسلمين غافلا عن مدى قدرتهم على تخطي سيفه.. وبالفعل هاجمهم وقت الضحى ظنا منه أن هذا التصرف سيكون بمسابة مراوغة ملتهبة كونهم لم يستريحوا لمدة كافية، ولكن نفحات المبارزة لم تدم كثيرا.. أخذ يصرخ في رجاله كي يتثبتوا، حتى وجد حبيب ياقوت يسير أمامه ويتحرك ببطء تاركا على طين الأرض علامات متفرقة بسيفه كنوعٍ من أساليب الاستفزاز التي كان يتبعونها المحاربون أحيانا.. عين غزال يعشق التحدي، لأنه لم يخسره قط.. اقترب من الشاب بسرعةٍ غير معهودة، كادت أن تُباغت جاسم.. ولكنه تفادى انقضاضه في وهلة، ليرفع الأخير سيفه متصديا لضربة غزال الثانية.. والتي أفقدته توازنه، فسقط المصري على الأرض.. استغل الضخم فترة استلقاء الشاب القصيرة ثم رفع سيفه كي يسكنه في رقبته، ليُطلق تيمور في مثل هذه اللحظة رمحا سكن بكتف الغزال بشكلٍ عمودي.. وحينها وقف جاسم مسرعا كي يغرز سيفه بكل أريحية في رقبة كبير خواص جانوس الذي انحدر على ركبتيه قتيلا، كذبيحة العيد الهائجة.

وهنا تعالت صيحات جاسم البطل التي اعتاد على ذكرها بين العساكر:

– الله شاء، الله شاء

حتى صار البقية يرددونها خلفه أحيانا...

الله شاء.. الله شاء...

يذكرونها بصدقٍ ويعتبرونها شربة الماء التي تروي عطشهم.

***

استكمل رواد الحملة عملية إبحارهم إلى أن وصلوا ليماسول بنهاية شهر رمضان ٨٢٨هـ/أوائل آب ١٤٢٥م، فكان الأمير أركون على علمٍ بكامل الطقوس والشعائر الدينية الإسلامية الإلزامية في ذلك الوقت.. فاستثمر تلك الأيام المتاحة أمامه في حشد رجاله وتجهيزهم بكل ما هو مفقود، بما أن الحرب ستتوقف لفترة وجيزة.. لكن جرباش لم ينتظر كثيرا، ففي صبيحة يوم عيد الفطر هجم بأسلوب محكم على حصن المدينة من ثلاث جهات.. جهة ربط عندها الرجال الأحبال حتى يصعدوا، وجهة قطع عندها الجنود أخشاب الأشجار السميكة لكسر البوابات العملاقة، وجهة تولى فيها العساكر تصويب المدافع نحو الأحجار الضخمة.. وكانت المحاولات الضاربة نتائجها أروع من تجارب الحملة الأولى عندما فشل متوليها اقتحام الحصن الأقوى في الجزيرة، فاستمرت عمليات النهب والأسر وقتل الجماعة المتمردة على حقيقة خسارتهم للمعركة المحسومة.. وهذا ما دفع كبير قادة القوات الإسلامية بتوجيه عساكره لرفع الراية السلطانية فوق الحصن المعظم في أعين صانعيه، فتشرف جاسم على الفور بفعل ذلك بنفسه خاطفا القماشة من أيدي زملائه متسلقا بقية الأحجار المهدومة حتى وصل لأعلى قمة الحصن وربط علامة النصر على أحد الأعمدة الخشبية وعيناه تفيضان بدموع النخوة التي ميزته بصُحبة بقية إخوانه مهللين ومكبرين بسيوفهم فوق الجثث المتناثرة.

هنا أراد مُتوَلي الحملة الباسل -جرباش- الإبحار إلى بلدة الباف **(بافوس)**، أصغر مدينة بقبرص.. لتلقين حاميها نفس المرارة التي كبحت رفقائه، ولكن حكمة المولى منعت قواته عن التقدم.. كالعادة عامل الرياح كان مانعا حصينا، فتريث لبضعة أيام حتى وصلته بعض الأخبار من أحد المرتشين -التابع لفرقة حراس هنري- يُطلعه من خلالها عن إرسال السُلطة الحاكمة بالبندقية لحملة شاهقة ستتمكن من إنقاذ الجزيرة بأكملها بعد الالتحاق بجمع قوات الملك جانوس لمهاجمة وحوشه المسلحين.

الفصل الثامن والثلاثون

متعة النصر الدموي أحيانا تصير أشهى من تملك نعيم البساتين وخيراتها، لكن جرباش اضطر العودة إلى مصر محافظا على نزاهة إنجازه.. فدخل القاهرة مع رجاله في الثاني من ذي القعدة ٨٢٨هـ/١٥ تشرين الأول **(أكتوبر)** ١٤٢٥م، والسلطان كان على علم بموعد وصولهم منذ أن اقتربت الأغربة للسواحل المصرية.. عدد من قد سقطوا من جموع الصليبيين قد بلغ خمسة آلاف فرد، في حين استُشهد من العناصر العربية مجموعة لم يتمادى عددهم العشرات حتى.. النسبة بين الرقمين لا تُصدق، فأثناء تلك الاستدلالات يتضح فارق النتيجة بين عملية حُسن تدريب الجنود قبل إقلاعهم من مواطنهم.. وبين جلب العدد الأكبر من العامة وإعطائهم أسلحة لا يعرفون أبسط طُرق استخدامها، فتدابير عقول الزعماء كما بدا هي ما حسمت المكسب العسكري المستحق.

أمر برسباي أثناء استقبال النازحين من المعركة، بضرورة استعراض الكم الهائل من الغنائم المُجلبة بالقرب من قلعته.. وهنا كتب الشيالون على ألواح الحجر في الميناء الأعداد المضبوطة لما تسلموه من العساكر، كدليل على بهظ المجلوب:

- **العشرات من الصناديق الفضية المُنمقة**
- **مجموعات متعددة من الآلات الحربية المسنونة**
- **بالإضافة إلى المئات من الأواني الذهبية والخرج النحاسية**

هذا بغير بقية المقتنيات التي لم يستطع الجنود حملها على السفن لثقلها فألقوها في البحر بعد استشارة أمرائهم، ونُصبت كل هذه الأشياء على أربعين من البغال وعشرة من الجمال علاوة على مائة وسبعين حمال.. لهذا توجب على الأشرف الإنعام على أفراد الحملة بقطع استحقاقية جذابة للعين والنفس من الكنوز المنهوبة، ولكن أيضا الربح لم يدفعه للسهو عن تنظيم صفوف الأسرى أمام العامة كي يُتابعوا بأنفسهم مدى توسع نماء جيشهم المهيب.. لذا اضطر سجان السلطان أن ينقش بنفسه على الحائط حاصل عددهم، والذي تراوح بين الألف إلى ألف وستين أسير من مختلف أعمار الجنسيين.

فأصدر السلطان أمرا باستغلال هذه الموارد البشرية وبيعها، على أن يتم مراعاة عدم الفصل بين الأبناء وأبائهم من قِبل المشتريين -مع اختلاف طبقاتهم من تجار وعوام وأمراء- أو حتى إحداث تفرقة بين القريب ونَجِيّه.. فخلال مرورهم المنظم على طول الأحبال المربوطة حول أيديهم، انحنى الكثير من الأسرى لبرسباي..

بل كان انخفاضهم للأرض سجودا، آلاف ممن يودون التحدث إليه دوما يفعلون هكذا.. تدبير لا يمس للفضيلة بصلة، تقدير منعته التعاليم الإسلامية يوم أن زرعها رسول **الله البصير** في نفوس صحابته.. وعندما لاحظ السلطان أن العامة شاهدوا ذلك التصرف يحدث مرارا وقتما كان يقف بمقدمتهم أثناء تلك الاحتفالات الاستشراقية، عزم على إعلان رفضه التام للوضع الراهن والمستقبلي أثناء معاملته مع كل فردٍ يرغب في طلب الإعانة على اكتساب ما ينقصه من متطلبات.

لذا أقرَّ بيانا بالقصر ينص على إبطال عادة تقبيل الأرض عند رؤيته، وأمرهم باستبدال ذاك الفعل بواجب تقبيل اليد.. انذهل جمع حاشيته وقت سماع رغبته، كيف لسلطان البلاد في أفريقيا وأسيا أن يغير العادة التي جرت في الديار منذ أوائل سنوات وصول المماليك لوطأة الحكم.. اختلف معه الكثيرون بلطفٍ، ونصحوه بألا يُغير المتآلف عليه كي لا يستهين به أي من الأمراء.. فأُعيدت نزعة تقبيل الأرض ولكن بأسلوب مخفف الحد، فينحني الرجل كالراكع ثم يضع أصابع يده على الأرض كمن سيُقبلها.. ثم يقوم ولا يفعل هذا بفمه أبدا، بل ولا يقترب بوجهه للأرض نهائيا.. بالرغم من عبودية الظرف والتحرك الإنساني المهين للنفس، إلا أن بعض من مؤيدين الأشرف اعتبروا قراره هذا بيانا لحسناته مقارنة بما كان يحدث بحقبة كل ملك تسلطن على أناس اختلفت طبقاتهم الاجتماعية وظلوا يخضعون أمامه بشكلٍ مخزي كذلك.

الفصل التاسع والثلاثون

الاسترخاء لا يجب أن يُلصق بمفهوم النوم على سرير مغطى بملائة مصنوعة من الكتان، فالبعض يعتبر التقرب لأحبته والحديث معهم أسمى معاني الراحة النفسية التي يبحثون دوما عنها ما بين السعي الدنيوي والصراع النفسي النابع وقت حدوث الصدمات المفاجئة.. هذا المبدأ يتفهمه الكبار دوما، وهنا كلمة الكبار لا تعني من بلغ سن الرشد وإنما تعني من أصبح كهلا.. الكهل دائما يعرف الكثير، وشعوره يجعل توقعه صحيحا لحد يتعجب منه الصغار حينما تتاح لهم الفرصة ليتفكروا في الأمر وحدهم.. وإن ظن أنه لم يعد هناك ما يكفي من وقت بعمره لإظهار محبته، يترك فمه يبوح بما في قلبه الطاهر.

اقترب الميقات من أحد الشباب ثم أمسك بذراعه بعدما لمحه يسير بين مظلات هذه البيوت الصغيرة الكامنة في إحدى الأسواق الشاغرة بالعامة:

– إنك تتابع تحركات الرجال الحماسية هذه، أليس كذلك؟!

شاور العجوز على بعض الجنود المحتشدين بجانب حصان قائدهم:

– إنهم يتأهبون لخوض المعركة، أخشى أنك تتمنى الذهاب معهم

أكمل الطالب الثالث سيره مع الريان، ليرد باقتضابٍ:

– خالي، أرجوك لا تسخر مني.. أنت تعلم أنني أتمنى الانضمام إليهم حتى لو لم أملك القدرة على حمل السلاح

فضحك الخال ثم قال:

– أنا أحاول أن أساعدك يا بُني، إنك تُذكرني بوالدك

ابتسم حمزة وأردف:

– وددت أن أراه قبل موته، لو كان حيا لأرادني أن أقف متحيزا بأول صفوف جيشنا

– حينما خيرتك وأنت صغير بين انتقاء المبارزة وتعلم المعارف المستدامة، فضلت الاستمالة لما ستُبدع في إتمامه.. لماذا تُغير وجهتك الآن إذا ؟!

أجابه ابن الأخت:

– أنا لست بنادمٍ على اختياري، يكفي أنني أتطلع لمعرفة تاريخ يجهل قيمته الكثيرون في مجتمعنا هذا رغم عراقته

نفخ الهواء النزيل برئتيه ليُكمل:

– ولكن رغبة المرء أحيانا تتجدد نحو مسار آخر بعدما أصبح مُتيما بما يمكن أن يحققه من خلاله

حقيقة أخفاها الاثنان حتى لا يظن بقية الطلاب أن ذاك المعلم الجليل يُفضل ابن أخته عليهم، راعى الكبير بخبرته ذلك الحاجز النفسي الذي يجعل المُستقبِل مشتتا.. ربما لو علم أحدهم بأصل هذه القرابة لأفصح لزملائه عنها، وحينها سيتفشى الحقد بنفوسهم نحو هذا الرجل الذي لم يبخل عليهم يوما بفكره لكي يدعم فطنتهم بقيمة هذا العلم.. ففضل حمزة بعدما تقرب لتلك المجموعة عدم إطلاعهم على سبب ارتباطه الدائم بمعلمهم، الريان هو مربيه منذ أن أصبح يتيما.. حقيقة وفاة والدّي الشاب، لم تكن سرا يستطيع الكبير إخفائه عنه.. لهذا السبب قرر الأخير أن يعتني بروح صغيره مهما حدث، حتى لو لم تسترهما الأيام بقسوتها.

– تدربت على أيدي بعض الجنود الذين تقاعدوا بحثا عن الرزق بعدما أعطيتهم بضعة من الأموال، ولم يتماطل أحدهم في مساعدتي

قاطعه الريان ممتعضا:

– لا أعتقد أنهم أطلعوك على كيفية استخدام السيف كما يفعلون في الساحات

ربت حمزة ظهر خاله وهو يضحك:

– كلا، تعلمت الكثير بسبب مهاراتهم القتالية.. فأصبحت أحمل القطعة النحاسية جيدا وأتراقص بها أحيانا أمام من يواجهني

- لكل مهارة جديدة تكتسبها عيوب وأسرار، فهل فرقت بين هذه وتلك بعد؟!

- العيوب يا شيخي الفصيح يكتشفها المرء بعد الممارسة، أما الأسرار.. الخبير الأول عن حقيقتها هو **خالقها**

أوقفه الميقات في حيرة:

- أباك أخبرني يوما أن الحرب لا ضامن لحيثياتها، كان تاجرا يجوب البلدان من خلال السفن الصغيرة.. ورغم كونها صغيرة، إلا أن قراصنة المدن الإفرنجية أيضا ينقضون عليها

- هو كان محقا، كوأنا أعرف ذلك جيدا.. ولكن كلما كان المسؤول عن قيادة السفن ذكيا، قلَت المصائب الملعونة حوله لأنه ببساطة يعرف كيف يتفاداها

- لهذا كن على علم، بأن الأقوى لا يفوز بكل المعارك.. ستخدعك حماستك يا ولدي

لحظات ثم تساءل الريان:

- أتود أن تصبح الأدهى؟!

ابتسم حمزة بتفاخرٍ:

- وما المانع؟ الهروب من تحقيق حلمي سيجعلني أشعر بالإحباط، ولكي أصبح الأدهى عليَّ أن أتجهز بجدية لما سأُقدم عليه.. وهذا ما فعلته مؤخرا

ثقة عارمة أعطت هذا الشاب لباقة تُثير إعجاب من يستمع إليه، كلمات صادقة ورغبة اندهش بسببها خاله الكهل بعدما ظهرت أمامه نزعة الانطلاق التي كان يملكها وقت شبابه.. نزعة بهية، يشعر بحميتها من يقف بجانب صاحبها لأنها تنبع من ضلوعه المتضاربة.. العبارات صادقة والرغبة أيضا حقيقية وليست مزيفة كما اتضح عند الآخرين أي الذين تراجعوا عن خوض الحرب، وما حقا قد أثار الشغف بنفس حمزة هي أمنية الثأر المكبوتة في قلوب أهل موطن خاله ووالديه كلما وردت أعمال القتل والنهب على ذهنه.

الفصل الأربعون

تجمعوا سويا لكي يحتفلوا بعودة هذان المحاربان المحنكان، ياقوت قامت بتنظيف المنزل بأكمله.. وأحضرت لهما طاقمين من الثوب القطني الناعم رمادي اللون، منقوش عليه أشرطة حمراء.. أما بركة راحت تطهي ما يُسر الجائع ويُشبع ريقه إذا نظر للطعام حتى قبل أن يتذوقه، رائحة العطر تفوح من الرجلين بعد استحمامهما فور دخولهما للبيت مجددا.. ورائحة اللهفة تفوح من قلب السيدتان اللتان أرهقهما الخوف خلال الفترة الماضية، جاسم كعادته قَبّل وجنتي والدته ثم احتضن زوجته.. وتيمور ضم ابنته لصدره وظل يتمتم ببعض عبارات الشكر والعرفان **للمولى** كونه حافظ على هذه النعمة التي يستكمل بقية حياته من أجلها، فقبيل آذان العصر كانت هذه الأسرة الصغيرة المكونة من أربعة أفراد يجلسون حول الطاولة الخشبية.. لا حديث يدور أثناء التهام حبات الأرز المحشو بداخل لحم ذكر البط المتين الذي أحضرته بركة خصيصا من متجر أفضل جزَّار بالسوق، لذا كانت بين الحين والآخر تتابع تعبيرات وجههما لكي تتأكد أنهما يستلذا ما طبخته.. لكنها في الحقيقة كانت تحاول أن تراقب بصر تيمور، تعرف أنه اختلس النظر إليها في خبثٍ قبل أن يلتهموا الطعام بفمهم.. لذا قررت أن تضعه تحت الاختبار لتتفهم سبب تصرفاته هذه، والغريب في الأمر.. أنه شعر بالتوتر كما يفعل عساكره عندما يُحدثهم، شعور ينتابه كلما يراها تتحرك أمامه.

– هل أصابكما أي مكروه خلال غيابنا الأشهر السابقة؟!

كسر صمتهم صوت الأب باستفساره الغريب هذا، سأل دون النظر إليهم.. قلقه بدأ أن يتضح أمامهم حتى أن علامات التعجب ظهرت على إيماءات جاسم، فردت ياقوت عليه لكي تتدارج الموقف:

– فقط نوبة الحر كانت شديدة على المدينة بأكملها يا أبي، كادت أن تُفسد بعض الأطعمة التي نكتنزها.. وكذلك غمرت الأتربة أثاث المنزل وجدرانه

ظل البقية ساكنون تماما منتظرين رد تيمور، لكنه لم يقل شيئا.. العبارات هربت من ذهنه، لم يكن يتوقع أن يكون تأثير بركة هكذا.. تأثير شل تفكيره رغم أنها لم تتفوه بكلمة، سيُصيبه الجنون بسبب سحرها ولكن عليه أن يتغاضى عن هذه الأصوات التي تدور في عقله كي لا يُولد الشك بعقل جاسم.

– وهل بقى الطقس كذلك لمدة طويلة أم تحسن في بداية شهرنا الهجري هذا؟!

تساءل جاسم في تحفظ وهو ينظر إلى زوجته، فهَمَّت الأخيرة بالرد عليه لكن الأم قاطعتها مجيبة:

- سمعت من بعض السيدات في منطقتنا صباح اليوم أن هناك عاصفة من الأتربة ستهب علينا الأسبوع المقبل

قالتها بشدة، وكأنها تعلم جيدا ما يدور بداخل تيمور.. شعر هو بذلك، شعر أنها تستفزه بكل هدوء وتستلذ بذلك التصرف.. فوقف مسيطرا على نفحات غضبه ثم تحرك للخارج، يبدو للآخرين أن هناك شيئا ما خفي.. أشارت ياقوت لجاسم حتى يتبع والدها ليتفهم الحكمة وراء تركه لتناول وجبته قبل إنهائها، وبالفعل اتجه نحوه مسرعا عسى أن يتطلع منه على سبب تشنج ذهنه المستتر.. بركة ابتسمت في خفوت وأكملت طعامها بكل هدوء، أما تيمور فقطرات العرق راحت تتصبب من جبينه وهو يقف بالخارج.

- سيدي، ما الذي أصاب صدرك بالضيق؟ تركتنا الآن دون تمهيد، قل لي ما قد صار أرجوك ولا تُثير قلقي

شعر الأب أنه عسكري حديث العهد وأن زوج ابنته هو القائد، تلعثم مثل جنوده وظل يحدق في وجه جاسم.. لا يعرف ما يجب عليه أن يقوله، أيخبره بإعجابه بوالدته أم يكتم هذه الخطيئة بنفسه ويختلق إجابة وهمية؟ ولكنها ليست خطيئة، إن أراد التقرب إليها لكي يتزوجها فهذا من حقه.. الشرع أتاح له ذلك، لكن الابن لو علم بالحقيقة ربما سينهال عليه ضربا.. وسيُذاع صيت هذا الأمر بين الجميع، وستُصبح الأمنية فضيحة.

- أخشى ما يمكن أن يحدث لاحقا، عندما وصلنا لمصر.. ووسط تلك الاحتفالات الصاخبة المنقضية، أخبرني بعض من القادة أن هناك تجهيزات حربية جديدة ومواقع عسكرية تم تشييدها بعناية بداخل أهم المناطق المركزية بكبرى المدن

سكت جاسم قليلا، ليتنهد قائلا:

- من الممكن أن نعتبرها بؤر أمر السلطان بالاهتمام بها خصيصا من أجل دعم الجيش إذا انقلب علينا الأمر وقتما كنا نحارب على أرض القبارصة، أي قواعد خُصصت كمخزنٍ جانبي
- إنها ليست مُجهزة كحصن احتياطي، العتاد الذي تحتوي عليه كثير للغاية.. يبدو أن هناك جولة جديدة سنخوضها ولكن في وقتٍ لاحق يا ولدي
- وأنا مستعد لخوضها، والآن إذا تطلب الأمر ول...

توقف الشاب لوهلة لكي يستوعب ما قد قيل من فم تيمور ثم ابتسم فجأة:

– لقد قلت لي يا ولدي

التفت إليه والد زوجته متعجبا، ليُكمل الصغير مبتهجا:

– قلت لي يا ولدي، ولم تقل لي أيها الجندي كما اعتدت دائما يا سيدي

فضحك الآخر لثوانٍ وأمسك برأس جاسم ثم احتضنه بحنيته الغير معهودة، والأخير تشبث به كطفلٍ انتظر قدوم والده لفترةٍ طويلة.. وقد حانت هذه اللحظة، لم يشعر بهذه النعمة منذ صغره.. ربما لافتقاد عقله وقلبه لمفهوم كلمة الأبوة، فقد قامت بركة بدور الوالدين على أكمل وجه حتى صار جنديا مفترسا.. بل فارسا مغوارا، ولكنه لا زال غير مُطلع عما يصول ويجول في عقل تيمور الذي اختلق حُجَّة تمكن من خلالها الكتغطية على ما كاد أن ينكشف وقتما كان يجلس بمقابلة تلك الجذابة التي تلمست قلبه دون حراك منها ولو بخطوة.

الفصل الواحد والأربعون

الأمر أصبح مهينًا، بل ومؤلمًا لكبرياء من ظن يوما أنه الأقوى.. لا يعرف هيو كيف تراجع أخاه عن تحقيق نجاحاته، منذ أن أصبح ملكا لأجمل جزر أوروبا.. لم يتهاون قط في توفير النعم من أجل أهلها حتى لو لم تكن حقه وتابعة لمن أجبرهم على أن يكونوا أعدائه، فالحظ لن ينصفه اليوم.. ولو حاول أن يُرسل مجموعة من جيشه لمواجهة تلك القوات التي ما زالت ساكنة بحشودها في ميناء ليماسول، سيفقد العديد من الرجال لأن عتادهم ليس بكافٍ لمواجهة أنياب حارسي برسباي.. جانوس يقف بقاعة التخطيط مُحبطا، يعلم أن حضوره لن يجني من خلفه المكاسب التفكرية.. وعليه أن ينتظر قليلا عسى أن يُلهَم بفكرةٍ جديدة، وعليه أيضا أن يستمع لجمل بقية القادة الضعاف الذين يُخفون عبرها رهبتهم من الوقوف أمام صحوة مُلاك أرض الضفة الأخرى من مياههم المالحة.

– أعترف بخطئي أيها العاهل ولا مبرر أمامي يرفع عني الحرج، ولكني فعلت كل ما بوسعي كما أمرتني.. لقد زودت الجنود بكل الأسلحة اللازمة، حتى الأشرعة كنت أُتابع تصنيعها بنفسي.. ناهيك عن المدافع الحديثة التي تم إحضارها من مختلف دول أوروبا

رافاييل يعتذر كالمرأة، يحاول تبرير خطأه.. يتحدث وكأنها خيانة زوجية فعلها سارحا عن وعيه العقيم، لم يلتفت إليه جانوس وهو يقول:

– للسنة الثانية على التوالي يُنفذون ما قد فشلنا في تفاديه سابقا

سكت قليلا ثم هاج:

– هم فقط خططوا جيدا يا سادتي الأغبياء، تصرف بديهي للغاية

صمتوا للحظات حتى صاح يوچين على غير عادته:

– النعم الإلهية صارت تنفد من أقطار حدودنا، ونحن هنا نجلس فقط لنصرخ ونتفاخر كالنساء برقي تربيتنا

ابتسم هيو في سخرية:

– إن كان بإمكاننا المساعدة، فعلينا أن نصلي ونحتشد جميعا بجانب رجالنا

ثم قرع بإصبعيه كي يصوب البقية نظرهم إليه:

– أتتذكرون كيف كانت تتم إيماءات الصلاة بكنيستنا، أم أن متاع السلطة أجبركم على تناسي قيمتها؟!

صرخ جانوس فجأة، حتى أن البقية فزعوا.. لذا أبعَدوا وجوههم كي لا تتلاقى بعينيه، محاولين تجنب التحدث معه حتى لا يُثار الغضب بصدره:

– هيو، اذهب واجلب هنري الآن.. عليه أن يُحدثنا عما واجهه قبل استفاقته

تراجع الأخ عن شماتته الظاهرة بشكل استفزازي، لعله يتجنب مثلهم عبارات الملك المهينة التي سيُلقيها على شرفه لو طال الحديث بينهما.. فهرول للخارج ليجلب المحارب المهزوم، الأمير هنري الذي ضجت الجزيرة من قبل بعظمة أدائه الباسل خلال التحديات الدموية.. الآن أُقتُحِمَت غرفته، أرض المعركة بالنسبة إليه غرفة مليئة بالذكريات والانتصارات التي مُحيت فور وصول أنصار الشرق.. ظل البقية يتبادلون نظرات الحسرة وهم يُتابعونه مقتربا إليهم من الخارج، فهو لم يتنبأ إطلاقا بسرعة هزيمتهم بسبب تعدد سُبلهم للدفاع.

دخل هنري مستندا على يدا أخيه الحنون، منظر لا يدعو إلا للشفقة.. كان الجميع على علمٍ بما حدث له، عدا جانوس.. فقد فُقئت عين المقاتل اليمنى في الحرب، وجسده ملطخ بالتشوهات التي تتسلل منها قطرات الدماء من تحت قطعة القماش المربوطة حول الأجزاء المُصابة:

– يتدفقون مثل الفيضان وينقضون على من يواجههم أسرع من الأسود وعشائرها، من يود العيش.. فليهرب بغير ترقب، الرحمة لا تسكن أعينهم.. إن أصريتم على استكمال الانخراط في جُحر مُعاداتهم، فيجب أن تنضم إلينا بقية الجيوش من جوانب قارتنا المتباعدة حتى نستطيع إيقافهم

كلمات تُرهب القلب، وتعيق الحماسة لو اشتعلت في نفس أي منهم.. فالملك يعرف الحقيقة، مأزق سُجن بين جدرانه ولم يعد قادرا على اتخاذ القرار الملائم.. ففي الواقع لم يعد هناك شيئا مناسبا بإمكانهم فعله لمواجهة ذلك الطوفان غير الدعم المستمر من بقية أراضي القارة العجوز، المعاملات التجارية في قبرص تقلصت.. المال لم يعد يكفي لإعداد الحملات العسكرية الشرسة، ومسلك وقاية اقتصاد وطنهم ما زال يستمر في الانحدار.. حتى أن كبار التجار أصبحوا يتهربون واحدا تلو الآخر من دفع الجزء السنوي المخصص من أرباحهم لمساعدة

الجيش على غزو دول الحضارات الشرقية، الكل سيُحَمِل جانوس المسؤولية وسيتركونه وهو في أشد الحاجة لشجاعة القلب التي تدفع صاحبها للتماسك في مثل هذه المصائب.. اعتاد منذ طفولته على الاستماع لحكاوي النصر وصعوباتها التي استطاع أبطال ملته اجتيازها متكاتفين، ولكن عندما أصبح في المقدمة تيقن أنها كانت محض أكاذيب لتحفيز الصغار على خوض الحروب الزائفة.

الفصل الثاني والأربعون

أهل السوق وحراسه من رجالٍ ونساءٍ قد تربوا بداخله ويعرفون خباياه جيدا، علمهم أسلافهم منذ صغرهم الأساليب الفعالة لمجاراة جميع متغيرات المواسم المناخية.. حنكة مكتسبة تجعلهم يستطيعون الربح حتى لو كانت المعوقات المادية لدى المشتريين عديدة، فلا سارق ولا مسروق.. العائلات بحاجة لاستخدام التوابل في طعامهم اليومي، والتجار عليهم أن يبيعوا بضاعتهم المُخزنة حتى تصبح عملية الانتفاع متبادلة.. دائرة اقتصادية بباطنها العديد من أساسيات الكسب التي جعلت كل سوق بأي حي أو قرية لا يخلو من الأقدام حتى وقت هطول الأمطار، الأمر برمته يتعلق بالسعر المعروض على المَلَإ.

وصل عمار لبيت جعفر، فطرق الباب بأصابعه مسرعا دون توقف حتى فتح الأخير بينما كان يتثاءب:

– أي مصيبة جديدة ستُبلغُني بحذافيرها الآن يا صديقي؟!

رد الأول وهو ينهج متهكما:

– ارتد ملابسك الغالية وتعال خلفي، يبدو أننا سنفقد ما ادخرناه من خيرٍ طوال سنوات جهدنا

ضحك جعفر باستهزاءٍ ولكنه لم يتفهم غرض عمار من قول هذه الجملة، فاتجه للداخل بالفعل وارتدى كسوته المنمقة.. ثم خرج في عجلةٍ ليعرف سر الخبر المُفزع كما ظن بسبب تصرف صديقه أمامه، دقائق من السير حتى وصل لذاك المتجر الذي يُنهي فيه عمار كل إتفاقاته التجارية ثم دخل عليه متجها نحو الكرسي الماثل بخلف الباب ليجلس ملتقطا أنفاسه.

– أخبرني بالنبأ الذي دفعك لتتصبب عرقا هكذا

التفت إليه عمار ويداه ترتعشان:

– وصلتني قرارات هامة، سُربت عبر ألسنة بعض الأمراء

فقال جعفر غاضبا:

– انطق يا عمار وإلا تركتك ورحلت

قاطعه الآخر:

– ستتعطل أعمالنا جميعا الفترة القادمة، فالسلطان يود أن يصبح فردا مثلنا

ابتسم الأول في تهكمٍ:

– أتقصد أنه يود التخلي عن المُلك، لن يفلح في العيش بعدئذ

رد عمار باستياء:

– بل يود أن يُنشيء متجره الخاص، متجر يستطيع أن يبيع من خلاله التوابل في بلدتنا

ضحك الضيف ثم أكمل:

– السلطان بنفسه يود أن يفعل ذلك!!! الأمر أشبه بالجنون، تلك مجازفة مُستجدة ربحها غير مضمون بالنسبة إليه

فتوجه صاحب المتجر نحوه:

– لا، هذه الحقيقة التي سيجني بسببها الكثير.. وعلينا أن نتفهم توابعها

توقف جعفر عن الضحك:

– وكيف تأكدت من هذه المهاترات؟

– أطلعني زوج ابنتي على تلك الأخبار بما أن والده يُعتبر أحد أبرز الأمراء بمدينتنا، لقد ذكر لي ما قد خفي تحت بلاط السلطان.. إنه سيفرض رسومًا جديدة وسيتم استيفائها بعد غد

– أي رسوم تلك؟

جلس البائس على إحدى الكراسي الخشبية الموضوعة وأكمل:

- رفع قيمة الضرائب ابتداءً من الأسبوع القادم، وأيضا لن يسمح رجاله لنا بشراء أحمال البهارات بالأسعار المتعارف عليها.. ستزداد لحدِ الضعف أو أكثر

فوقف جعفر متحيرا وظل صامتا لعدة لحظات، ثم تحرك للخارج ليقول مبتعدا:

- كل ما ذكرته بالنسبة إليَّ يعتبر ثرثرة هزلية وبلا فائدة، بالتأكيد لن تُستنفد أرباحنا بهذا الأسلوب.. حتى أكبر منافسينا لن يتمكنوا من تحمل هذه الأعباء

الحقيقة لها مُسجليها، كُتاب يؤرخون ما يحدث ويعرضون وجهات النظر المختلفة سواء تم إخراجها من تحت ألسنة المتضررين أو من عقول العامة أنفسهم.. بعض التجار يظنون أن التصرف الذي اتبعه برسباي وجب أن يحدث دون تأجيلٍ لعامٍ جديد، لتعويض الثغرات الواضحة في قاعدة الري والصرف التي أحدثها النظام الإقطاعي بفساده في العقود الأخيرة.. وهؤلاء كانوا يرددون هذا السبب أمام الجميع، كإظهارٍ لتضامنهم مع القرارات السلطانية حتى لا تتضاعف عليهم الضرائب المُحصلة.. بجانب هذا الاستنتاج، كان الأشرف في أَمَسِّ الحاجة لجمع الأموال لكي يستأنف حملاته على تلك الجزيرة التي لن يسلم شعبه من هجمات قادتها حتى لو أُبرمت الهُدَن معهم.. ولكن عملية خوض الحرب تُلزم زعيمها بضمان توفير النقود رهيبة الكم، على الأقل لجلب ما يضمن للمحارب نجاح معافرته.

(٨٢٩هـ - ١٤٢٦م)

(فرض السيطرة)

الفصل الثالث والأربعون

قاعة تجمع الأمراء بقصر الحاكم تعتبر أهم بقعة من بين المنشأت والمعالم والحواري والبيوت التابعة لأقطار الأمة بأكملها، الأسقف وهكذا الجدران كانت مُطعمة بالفسيفساء -صف بعض من القطع المعدنية الصغيرة بأبعاد منتظمة- أما أرضيات القلعة بأكملها مكسوة بالرخام الملون.. نهيك عن الواجهة التي زُخرفت على هيئة مداميك –خط من حجارة البناء- أفقية، بحيث أن الطبقة الأولى يكون لونها أصفر وتعقبها الأخرى بالأحمر الداكن.. فهنا تُتخذ القرارات، وهنا يبقى برسباي يفكر لأيام في حلولٍ يتغير مضمونها قبل تنفيذها بدقائق.. وهنا أيضا يأتي القادة المقربين لمناقشة ما يطرىء على البلاد من مصائب بلا رسول أو حتى علامة تحذير، ساعات التدقيق تطلبت اجتماعا طارئا.. يُسمح فيه بوجود بعض الأفراد المؤثرين في تسيير حلول ملابسات الحكومة المتعاقبة، خاصة في ذلك الوقت الذي تتكالب فيه المعضلات دون سابق إنذار.

وبسبب تلك العِلة وجب حضور الآتي وصفهم، ناظر الدولة أمين الدين والوزير كريم الدين عبد الكريم وأيضا:

- فقبل تولي الأشرف برسباي مقاليد الحكم بالعديد من السنوات، أُنشىء قسما محددا -بهذا الديوان السابق- أُطلق عليه ديوان الخاص.. وتكون تحت إمرة صاحبه كل شئون السلطان المالية، والمسؤول عنها في ذلك الوقت كان يُدعى **(كريم الدين بن كاتب جكم)**.. ناظر الخاص.
- بجانب هذين المسؤولين، تحتم استقدام مشاركهم الثالث أيضا بالديوان.. ألا وهو ناظر الجيش، **(القاضي عبد الباسط)**.. المُكلف بمتابعة المعاملات النقدية التابعة للأغراض العسكرية ومرتبات القادة والجنود.
- ومنذ عهد الظاهر بيبرس، واحتراما لأصحاب المذاهب الأربعة.. جعل لكل مذهبٍ قاضي، لكن يبقى قاضي الشافعية **(شهاب الدين بن حجر)** هو المشرف الأول على أحوال اليتامى والقضايا الخاصة ببيت المال والأوقاف.. بجانب **(زين الدين التفهمي)** قاضي الحنيفية و**(جمال الدين يوسف البساطي)** قاضي المالكية و**(مجد الدين البغدادي)** قاضي الحنبلية، إلا أن الشؤون العسكرية ظلت بعيدة كل البعد عن أيديهم.. حيث كان للجيش قضاة عسكر مختصون ليس بشؤون الجند فقط، بل أيضا كانوا يفصلون في القضايا الوليدة بين العسكر والمدنيين.. لذلك لم يحضر دعوة السلطان الجبرية غير قضاة المذاهب الأربعة.

كل هؤلاء تم التفافهم حول برسباي بعد تنظيمات أينال الجمكي أمير المجلس التي لم تستغرق منه الكثير نظرا لأهمية الأمر، مرت لحظات هادئة بعد جلوس الجميع.. ثم تنهد السلطان ونظر للبقية قائلا:

– المعاملات التجارية تضائلت مكاسبها، لم يعد بإمكاننا السيطرة على الأمر

تبعه ناظر الدولة أمين الدين:

– وقيمة الدينار الذهبي قلت أيضا

فأكمل القاضي عبد الباسط ناظر الجيش:

– كل هذا بسبب الغارات القبرصية والحروب الدائرة في أعالي الشام بين النواب العُصاة

ليقول كريم الدين بن كاتب ناظر الخاص:

– لقد أهدرت تلك العمليات الكثير من الأموال

تدخل قاضي الشافعية شهاب الدين:

– نحن بحاجة لإعادة السيطرة على السوق التجاري العام

فأردف أينال الجمكي أمير المجلس:

– خاصةً بعد أن انتشرت عملات الدوكة الذهبية بشكل ملفت للذهن

تنهد الوزير كريم الدين عبد الكريم:

– هم تصرفوا بحكمة أيها السادة والأمراء

التفت إليه الجميع في تعجب واضح، ليُكمل:

– انشغالكم الدائم بالجانب العسكري جعلهم يوجهون قدراتهم الخبيثة نحو هذا السوق التجاري الغامض عن أعيننا

فقال جمال الدين قاضي المالكية بامتعاض:

– والآن عملاتهم منقوش عليها وجه حاكم دوق البندقية اللعين، كعلامة على رفعة مكانته بين الحكام والخلق

تبعه قاضي الحنيفية زين الدين التفهمي في ثقة:

– يجب أن نتوقف عن مبادلة البضائع مع بعض التجار الأجانب

رد مجد الدين البغدادي قاضي الحنبلية مستنتجا:

– إنها لعبة ذكية يتألم بسببها الطرف الغافل عن هذه الخُدعة دون تهديد

نظر إليه برسباي في سخرية:

– أو حتى إراقة للدماء، مع العلم أن ألاعيبهم حقيرة ولكنها منظمة.. من الأفضل أن نواجههم بمثل هذه الطريقة التي يتبعونها يستنفدوا مقوماتنا

فقال أمين الدين في حيرة:

– فلنبحث عن الحل إذا، الأمر مُعقد الآن وستتكالب علينا الكوارث لاحقا إن لم نتفقه لأساليبهم

باستياء رد القاضي عبد الباسط:

– للأسف يا سادة، نقود الكفرة التشخيصية اعتلت أصابع التجار في مصر والشام

ليُكمل كريم الدين بن كاتب:

– وها نحن، بإمكاننا منع تداولها

أردف أينال الجمكي:

– حتى تُشل محاولات الأجانب أثناء إنهاء صفقاتهم

ليرد في حذر شهاب الدين:

– ولكن قبل فعل ذلك، عليكم أن تُعيدوا هيبة الدينار الذهبي حتى يستطيع تجارنا تدبير شئونهم

فقال جمال الدين عبد الكريم:

– يمكننا أيضا إبلاغ التجار بحتمية رفع أسعار بضائعهم

ليرد كريم الدين عبد الكريم مندهشا:

– لن يوافقوا لو حدث ذلك، ستقل أرباحهم.. بل ستنعدم

فتساءل زين الدين التفهمي:

– إذا، لمَ لا يتم إنتاج العملات بشكل أكبر ؟!

أجابه مجد الدين باقتضاب:

– علمت أن دار السك توقفت عن ضخ العملات بعد أن خلت الخزانة من الذهب

فقاطعه أمين الدين:

– حسنا، استخدام الحيلة هي المخرج

صمت لثوانٍ ثم تابع:

– الحل يكمن في الدينار وليس في التجار

ابتسم برسباي ثم وقف بعدما استند بيديه الاثنتين على فخذيه:

– أحسنت أيها الأمين، أنت محق.. فقد تدبرت هذا الأمر جيدا لعدة أسابيع، بل لشهورٍ مع أغلب القادة وبعضهم ماثلين أمامي الآن.. والمعلومة الوحيدة التي سيتعالى صدى تأثيرها بين البُلدان، هي أن يتم تغيير وزن الدينار الإسلامي من اليوم فصاعدا

فقد تفهم برسباي الخدعة التي اكتشفها ناظر المالية لحرمان غزاة الأسواق الغرب من استمرارية نجاح أسلوبهم الخسيس للسيطرة على التجارة الداخلية التي تعتبر الداعم الأساسي للجيش في ظل المشادات المتبادلة على مدار السنوات، سابقا بعهد عبد الملك بن مروان –وهو المؤسس الثاني للدولة الأموية- كان وزن الدينار الذهبي الإسلامي قد أُعتُمد بقيمة ٤.٢٥ جرام.. وظل هكذا لتحين اللحظة التي سيتخذ خلالها الأشرف القرار -بداخل ذلك الاجتماع الطارىء لإنهاء الموقف المتدني- بضرورة تخفيض وزن الدينار الذهبي ليُصبح مُقدر بقيمة ٣.٤٩ جرام.. ومن هنا العملة اختلف هيكلها، بعد أن أُطلق رسميا عليها الدنانير الأشرفية البرسبَيْهية وقتما نُقش اسمه على حافتها.. بمقدمتها كُتب لا إله إلا **الله**، وفي الظهر كُتب السلطان الأشرف أبو النصر برسباي عزّ نصره.. وحين ترعرعت أصداء هذا القرار بين الأوساط التجارية، المحلية منها والخارجية.. قرر الكثير ممن يستغلون الفرصة للاستفادة من التغيرات المالية المفاجئة باكتناز الدوكات، وهي تلك العملات الذهبية الغربية التي كانت تضُخها جمهورية البندقية.

اكتنازها يعتبر تصرفًا سليمًا خاصةً بعد بدء تنفيذ خطة السلطان ورجاله، لذلك قد أصبح وزن الدوكة أكبر وأنقى.. والحصول عليه من بين الأسواق صار أشبه بالمستحيل، ولا حيلة ستُغير الوضع القائم.. فمن سيُمانع لو امتلك كنز لا جُهد في جلبه أو حتى المحاربة من أجله، إنها بدع التجارة الداكنة.. لم يتوقف السلطان عن تمهيد سطوه لإعادة السُبل المُيسرة لاستكمال مهماته، فأعلن بصرامة لأصحاب الأملاك وتجار الساحات عن إلزامية التوقف عن مبادلة البضائع مع الأفراد الأجانب بالنقود الخارجية أي بالعملات الصفراء المتطفلة على السوق المصري والشامي فور انتشار الدينار بزيه الجديد بين أهل البلاد.. وأصر أيضا رفقة مستشاريه على حتمية تعديل جميع الاتفاقات التي أُقيمت بين مسؤولي البندقية ومندوبي مصر، لتنص على فرضية دفع تجار الغرب أثمان البضائع المتعددة بسبائك الذهب والتوقف عن استخدام الدوكات مرة أخرى.

الفصل الرابع والأربعون

كما ذكر لخاله من قبل، حلمه الانخراط بجسده في مغامرات جيشهما المتكررة.. يسعى جاهدا لتحسين قدرته البدنية يوما بعد يوم، ويحاول على مر الشهور أن يُطهر ذهنه من شوائب الضعف والرهبة.. ضعف النفس الذي يكبت العزيمة، ورهبة المواجهة التي تبتلع خطوة النصر المرجوة.. حمزة يعلم أنه صغير، لم يُكمل العشرين بعد.. ولكنه على يقين بأحقيته في ترسيخ اسمه بين الفرسان المحببين إلى العامة، لذلك فضل أن يترك قلبه بجوزة جميلة من بينهم.. **(صبا)**، ابنة جيرانه العطوفة.. صوتها تغريدة لعصفورة هائمة، تُظهر إشراقة أسنانها كلما تبسمت.. لا تمل كل نهار من إعطاء بذور الذرة للحمام الهائم، يضطرب ذهنها كلما أحست أن نباح أحد الكلاب يُصدره من فرط الجوع.. فتُحضر للمسكين رغيفا من الخبز وصحنا صغيرا يحتوى على شربة مياه باردة، كي يتوقف عن العويل.. الحيوانات تحيا بلا دموع، أما هي.. فبلا ضغينة، وطنها الرحمة ومسكنها الحنان.. لذلك، يضطرب دوما وجدان ملتمسها حين يراها تسير أمام قلبه.

– ألم يأن الوقت حتى تأتي لبيتنا؟! طال انتظاري إليك، حتى الوعود ترفض أن تمنحني إياها خوفا من عدم الوفاء بتنفيذها

قالتها صبا في امتعاض واضح، فرد حمزة عليها:

– يوم زيارتي لمنزلكم، سأنتزعكِ من بين ذراعي والديكِ بلا استئذان.. كيف يستسمح المرء الآخرين لاستعادة جوهرته؟!

أكملت بتربصها المقصود:

– لو ظللت تتماطل هكذا، أنا من سأرفض الزواج منك.. وسأصرخ في وجهك كلما رأيتك تقترب نحوي أو حتى تتودد إليَّ

أوقفها دون أن يتلمس يداها قبل أن تتحرك بعيدا:

– إن فعلتِ ذلك والتفتِ للجهة الأخرى، سأقتلكِ بلا رحمة.. ولن أدع لوالدكِ الفرصة لأخذ جثمانك كي يدفنه

لتردف محاولة استفزازه:

– ومن يعرف ما يستره القدر من مباغتات مبهجة؟! ربما سأكون حينها زوجة لشاب يافع وذكي ووسيم يدفع عني بعيدا لصا رعديدا مثلك

فاقترب منها في غضب ثم رفع سبابته متوعدا:

– **ورب** الخلق، من سيحاول أن يتودد إليكِ كي يظفر بقلبكِ.. سأقطع لسانه بعد أن أقص شعيرات حاجبيه

ابتسمت في خبث لتُثير الغيظ بنفسه:

– ولو عرِفَت أمي أننا نتقابل متخفيان عن نظرها، هي من ستفعل بك ذلك.. وستركض نحوك حتى تحطم جبهتك أيضا

– حينها سأبوح لها بالحقيقة، سأقول لها أن ابنتها فاتنة.. وأن رائحة عطرها الطبيعي تقشعر بدني

– أرفض تماما أسلوب مغازلتك إليَّ، كُن حذرا ولا تتعدى حدود الأدب والأخلاقيات التي تربينا عليها

تلاعب بمنخاره:

– رائحة زهرة العنبر هذه، أم هي مستخلصة من خشب الصندل؟!

دفعته للخلف بذلك الإناء المتسخ الذي كانت تحمله بعد انتهائها من إطعام قطة الممر الخلفي لشارعها:

– الشيخ الريان بالطبع لم يكن ليقبل أسلوب محادثتِك المبالغ في تعبيراته لو كان يقف معنا الآن

ضحك بشموخٍ:

– أنا على عهدٍ قاطعٍ مع فضيلته، فقد أطلعته على رغبتي المحسومة

سدد نظره لعينيها في ثقة:

– فور معرفتي بدوري الذي سوف أقوم به بداخل الجيش، سأتقدم لخطبتِك.. كبار عائلتكِ يجب عليهم الحضور في الموعد وعدم التأخير

التفتت إليه مبتهجة:

– حقا يا حمزة؟!

ثم ابتعدت لخطوات كي تُخفي لهفتها:

– الجميع يُقدر مكانة خالك الواقرة، ولكن حتما أبي سيستفسر منكما عن سبب وفاة والديك المُعتم

السؤال مؤلم، ولكن حتما أفراد أسرتها بحاجة لمعرفة السبب.. فهي من ستشاركه إبان كل مصيبةٍ مستقبلية، فعليه إطلاعها بسرٍ حفظه عن الجميع حتى لا تتشوه نفسه بالأحزان وقتما يتذكره.. فأردف:

– إنها رغبة استفسارية مشروعة، من حقه أن يعرف اختصاراتها.. ولكن دعيني أُعلمكما سويا يوم أن أطرق بابكما

– لم أشأ إزعاج قلبك، فضولي يدفعني لوجوب معرفة المزيد عن حياتك دون تطفل.. لذلك صرت أهتم بشؤونك الخاصة دوما

استجاب حمزة لتبريرها:

– لم تّزعجيني مطلقا يا صبا، الأمر معقد وأنتِ تعرفين ذلك جيدا.. فلا داعي لسرده الآن، عما قريب سيتضح كل شيء

الطاعون، هذا الوباء الذي حل على أهل مصر والشام والجزيرة العربية بأكملها، جميع المدن والقرى حتى وإن كانت تبعُد عن بعضها مئات الأميال لم تخلو من تلك اللعنة.. آلاف من الأمراء المتحصنين بخيرات الأرض فشلوا في النجاة بأرواحهم، حمزة اتطلع على تلك التعقيدات وهو يظن أنها جائحة كسرب طير الأبابيل أتى بها **الله** من مقر لهيب ناره المُهلكة.. ونظرا لاختلاط والديه بالعديد من البشر خلال أدائهما لفريضة الحج، أُصيبا معا بالعدوى الفتاكة.. فرحلا سويا لمالك الجنة تاركين قُرة عينهما يتيما بمصر، لم يفقه أحد من الفقراء حينها أي تفسير لمعنى كلمة العدوى.. وعجز العلماء أيضا عن إيجاد المعجزة الدوائية لتفادي ذلك الداء، فما كان فقط يظهر أمام رهبتهم الإنسانية مجرد قروح جسدية تتمركز على الأيدي والمرافق والآباط يصحبها نوبات من القيء.. ولكون الخال الفرد الأقرب للعائلة الصغيرة والأحب أيضا لنفس أبي حمزة، كان هو أول من احتضن ولدهما حفاظا على روحه من هول ذاك المرض.. وأطلعه على الحقيقة حينما اكتمل نضج ذهنه، بل وزرع في

عقله هذه الفكرة التي تتعلق بعدم الإفصاح عما حدث لوالديه.. كما كان يفعل بقية أهالي الضحايا، بما أن العائلات كانت تخشى التقرب لمن قد أُصيب من أقاربهم وتوفوا جراء ذلك المرض.

الفصل الخامس والأربعون

كان عليه التحرك لتأمين موضعه التحكمي، فاللجوء لمساعدة من يُجاوره سيوفر عليه الكثير من المجهودات الاستعمارية التي لن يتمكن من تحقيقها وحده.. ولكن أخصامه تكاثر أعدادهم، لم يقتصروا فقط على من يخالط سلطان المماليك الجراكسة.. بل الأمر فاق نبوغ صفة الغباء بين اقتراحات عقله، لم يعي ولو للحظة أنه سيُفرض عليه اكتساب محبة الكثيرين ممن حول جزيرته كي يتمكن من مواجهة سيل الانتقام المُنصب على عمره.. حتى وقوفه بين وردات البساتين ومنحنيات الغابات لم يعد يبُث في روحه الطمأنينة التي صار يفتقرها منذ أن تفتحت عينا برسباي على نقاط ضعفه، سرح هائما وهو يعلم أن كل من تأذى في الحرب يود أن يُلقي اللوم عليه بشراسة.

نظر يمينه، فوجد أحد العساكر ينزف من رقبته سيلا من الدماء ويصوب نحوه سيفا قائلا:

– توجب على عاتق روحك أن تحارب بنفسك، ولكنك جبان

فُزع الملك من هول المنظر ثم ابتعد على الفور وركض جهة القصر، ليقطع طريقه عسكري آخر يحمل بيده اليسرى ذراعه الأيمن المنفصل عن جسده ويقول وهو يصرخ:

– جبان وأحمق، لا تعرف قدر المسؤولية.. لا تعرفها لأنك أضعف من أن تتحملها

فاتخذ مساره نحو باب قلعته ولكنه تراجع على حين غفلةٍ، بعدما وجد شقيقه هنري يقتلع بيده عينه المتدلية من رأسه ثم ألقاها عليه.. وراح يقول مُعاتبا:

– لم تعد ملكي الآن، وكانت هي ثمن قراراتك يا شقيقي

وفجأة، فُزع جانوس عندما لمسته ماريا.. اخترقت شروده كي تستفسر عن السبب أفعاله الغريبة هذه بما أنه يقف وحده:

– ماذا حدث لجلالتك؟ تريث، كاد أن يختل توازنك الآن وتسقط

التف الملك حوله نفسه في دهشة بعد أن استوعب أنه كان يقف وحده بعيدا عن أعين حاشيته:

– لا أعرف يا ماريا، لا أعرف.. يبدو أنني جُننت، لا تكترثي بما أقول

– لقد أُرهق ذهنك لحدٍ يصعب تحمله، وهذا يتضح على تصرفاتِك

– لماذا جئتي إليَّ ولم تستريحي بالداخل؟

ابتسمت في هدوء وأعطته طفلها الذي كانت تحمله بين ذراعيها:

– أنت لم ترى ولدنا أو حتى تُقبله منذ فترة بعيدة

أمسك به جانوس في حرص، وراح يتفقه وجهه متعجبا:

– لم ألاحظ أنكِ تحمليه من الأساس، وزنه بدأ أن يتزايد

داعبت كفيه الصغيرين وتساءلت:

– هل هو يُشبهني أم يُشبهك؟!

– كَلاّ

أدار وجهه المندهش لكي يسعل ثم أكمل:

– أتمنى ألا يُشبهني إطلاقا، وألا يواجه كل ما أحاول أن أتصدى إليه منذ أن أصبحت ملكا

خلال هذه الثواني لمح جانوس معاونه يوچين يقف بعيدا عند بوابة القصر، فعلم أن هناك شيئا ما عليهما استكمال تخطيطهما له.. ودون أن يتحدث أو يعتذر لماريا عن عدم اهتمامه المتعمد بها أو بولده الصغير، أعطاها إياه ببرود أعصاب ثم تركها واتجه للداخل متجاهلا عباراتها التعجبية.. فهناك صوت ينبع هذه المرة من صدره ويتعالى، ويبدو أنها أنفاسه التي تتسارع كلما تجهز للتفكر.

– تفوه بأخبارك كاملة ولا تُخبىء عليَّ ما هو سيء كي لا يُصيبني الإحباط

أردف حارسه في غضب:

– وصلتنا بعض الأخبار عن ذهاب أتباع إمارة العلايا لقصر السلطان بمصر

– إمارة العلايا!!! متى تصرفوا هكذا؟

– منذ بضعة أيام

وهي مساحة تقع في جنوب الأناضول بالقرب من جزيرة قبرص، كان صاحبها يعاني من هجمات جانوس المتكررة لسرقة ما يحتوي عليه موطنه إلى أن وجد الحل الأمثل في الاستنجاد بقوة برسباي لحماية ممتلكات أرضه.

– الجدير بالذكر أن ملك جنوة اللدود، أيضا فعل مثلهم.. فذهب الخبيث في سرية تامة إلى أرض النيل كي يتحالف مع ذاك المملوكي

ضحك جانوس للحظات ثم استطرد:

– رجال الجنوية كلاب خسيسة، لم أتفاجأ بما قلته.. يعرفون أنني الأقوى، وأنهم لن يستطيعوا السيطرة على جزيرتي.. فقرروا إيذائي عن طريق ذلك السلطان القذر

تبعه يوچين في يأس:

– مصب جريان الأمر أصبح عويصا للغاية، لو بقينا كما نحن الآن ستقتلنا الحسرة

جنوة هي الأخرى مدينة ساحلية لها ميناء بحري كبير بشمال إيطالية، ربطتها بالسلطان في مصر شراكات تجارية ناجحة.. أراد حكامها على مر السنوات الاستيلاء على الجزيرة ولكنهم فشلوا، فكان من الأفضل بالنسبة لحكومتها إرسال تقارير خفية على يد الجنويين التجار المقيمين بالإسكندرية للسلطان كتدعيمٍ لاستطلاعاته.. مفسرين من خلالها مدى تطور إصلاحات جانوس، وتحديد أيضا مدى قصوره الحربية الخارجة عن يد تحكمه المتضرب.

رافاييل لم يمل من السُباب:

– تجرأ علينا هؤلاء السفهاء، استخفوا بتطلعات قواتنا وجعلوا الجنود يعتقدون أن الحسرة خير من التهور.. بل وجعلوا الحسرة أيضا تنتسب لطموحاتنا

تجمعوا مجددا بداخل قاعة الحاكم ليتناقشوا حول تلك المجريات التي حلت عليهم، وهنا تنهد هيو ناظرا لأخيه:

– أرسلت بطلب لأصحاب البلاد المجاورة بوجوب إمدادنا بالمساعدات العسكرية، أظن أنني كاتبت سبعة إمارات مختلفة حتى لحظتنا هذه

التفت إليه يوچين بتهكمه المعتاد:

– كنت دوما رافضا لفكرة الحرب، لمَ فعلت ذلك في تلك الظروف الحالية إذا دون استشارة أحد؟!

ليرد الأسقف في ثقة:

– يجب أن نحفظ أرضنا عن ظهر قلب حتى لو لم يهبطوا عليها مطلقا، أحيانا التهور يجلب الفوز على غير المتوقع

فأمسك جانوس بإحدى الأكواب الذهبية الموضوعة أمامه وراح يدق بها على المنضدة الخشبية الكبيرة التي يحيط بها الجميع، ثم قال مقتضبا:

– وفروا كميات محدودة من الطعام لأهالي القتلة

أكمل رافاييل في تعجب:

– وماذا عن الجزء الرسمي من الأموال الذي يجب أن يُعطى إليهم؟

قاطعه جانوس:

– لن يأخذونها، نحن بحاجة إليها في ظل هذه الظروف

– سيصفوننا بالمنحطين وسيستنجدوا بالسماء لعل لعنتها تغمرنا

– وهذه الحقيقة بالفعل، نحن منحطون لأننا الطرف الأضعف.. وتحاصرنا اللعنة بغيومها

لحظات واقترح يوچين في توتر:

- فليتحمل العامة إذا ثمن أغلب التلفيات الاقتصادية التي نحاول أن نتدارجها، وفي أسرع وقت يجب أن نُعلن عن زيادة المصاريف الضريبية

فأصعب ما يمكن مواجهته بالنسبة للفارس هو ضياع هيبة الكبرياء التي تدفعه للاستهانة بقدر من حوله، حينها يكون اندهاشه علامة مؤكدة على اندلاع حريق الغيظ في صدره خاصة بعدما تُفاجئه المصائب بحفواتها.. هجوم رائع، أحداثه مُرتبة، وخسائره فادحة لكونها تفرض على الكل تحمل الضيعة.. عساكرهم ينظرون إليهم في فزعٍ دائم منتظرين تلك الأوامر الحاسمة ردا على الإهانة التي لم يتوقعها كبار دولتهم رغم ما يملكون من خبرة حربية جامحة، تمر الليالي وهم في حالة فضفاضة بالتشتت.. فخلال طلات نهار أحد الأيام راقب جانوس ابنته وأخيها وهما يتسكعان بين الأشجار غير عابئين بما يدور، وشيئا ما بداخله حينها لا يعرف ما هو بالأحرى جعله يتيقن بأن مُلكه يوما ما سيُسلب من تحت يده لا محالة.. غفل عن التخطيط الدائم والتأهب العاجل اللذان ضمنا للسلطان نتيجة تمناها ونجح في حصد مكاسبها من فوق كتف ملك الجزيرة الهش، أي هو.

الفصل السادس والأربعون

حمل الفلفل أصبح يُقدر ثمنه كثمن خاتم من الذهب وأحيانا أكثر، لم يتخيل أي من رواد تلك المهنة أن يعرض التجار في القاهرة ثمن الحمل بأكثر من خمسين دينار بسبب زيادة منسوب الرسوم المُحصلة عليهم.. أما في الإسكندرية، فكانوا يعرضونه بثمانين فما فوق نظرا لسهولة وصول كل مسافرٍ غربي إليهم عن طريق الميناء.. لذلك تجنب عدد من الأفراد الأجانب الشراء خلال تلك الأشهر، ثم ارتحلوا لبلادهم مرة أخرى معتمدين على المخزون الذي حصلوا عليه في المرات السابقة.. لكن برسباي وحاشيته كانوا على علم بالخُدع التي حاول المُتأذيون اتخاذها فور صدور تلك القرارات المادية، فقام حينها برفع فئة الحمل لمئةٍ وعشرين دينار.. فقد أُلزم دفع هذا السعر خصيصا على التجار الأجانب، ولم يتم تغييره رغم محاولتهم المستمرة للتفاوض في شأن الرقم المعروض.. وعندما ازداد عنادهم قام برفعه أيضا لمئةٍ وثلاثين دينار، ولحاجة أولئك الأجانب الشديدة لتملكه.. أجبرهم على تقبل الشراء بهذا الرقم المُثبَت، فما كان لهم إلا أن اتجهوا نحو تجار السوق المحليين في الخفاء عسى أن ينجحوا في مساومتهم على تقليل السعر.

– كم يبلغ ثمن الحمل بمتجرِك أيها العزيز ؟

قالها رجلا يتمتم العربية بصعوبة واضحة، فالتفت إليه عمار ثم ضحك في ذهولٍ:

– ومتى عدت من سفرك أنت أيها العجوز ؟

– أول أمس، فبقيت على سريري في الخلاء حتى أحتمي من شدة الحر هنا

– أتمنى أن أسافر مثلك كي أسير بقدمي على نعيم الأرض في بلدتِك

ابتسم المغترب وربت كتف قبيله:

– الأندلس خلابة، ولكنها تفتقر لبضاعتك أنت

– كلها متاحة أمامك، اختار ما شئت

– أخبرني إذا بمعدل قيمته

رد التاجر المصري بتردد:

– ازداد يا سيد سانتينو، أصبح أربعة وستين دينارا

فقال سانتينو -أحد أهم تجار إشبيلية المرموقين- مندهشا:

– كثير، كثير للغاية.. متى تم تطبيق هذا الارتفاع المادي الباهظ ؟! بذلك أنت تُعرقل الأمور

– ما باليد حيلة، أنت تعرف أن قرارات السلطان كلفتنا خسارة الكثير من الأموال

اقترب الضيف منه:

– عليك إذا أن تُقلل هذه القيمة حتى يدوم العمل بيننا لاحقا

– لو ذهبت لأي من التجار الآخرين سيعرضوه عليك بتسعيرةٍ أغلى

فوضع العجوز يده على ذقنه ليغرز أصابعه بين شعيراتها وراح يتحرك في بطىء جهة اليمين ثم يعود متسكعا لجهة اليسار:

– جئت متوقعا أنه بإمكاني شراء الحمل بخمسة وخمسين دينار

ضحك العربي ثم أسند ذراعه على كتف سانتينو:

– مستحيل، حينها ستكون خسارتي عارمة.. أستطيع أن أقللها فقط لستين دينار

– لا، تسعة وخمسون

برهة من تفكير عمار جعلته يقول مسرعا:

– حسنا، ربما هذا هو السعر الأنسب إليَّ وإليك

***

امتددت محاورتهما الجانبية خلال أقل من ساعة حتى أنه لم يتبقى بينهما غير تسليم صاحب المتجر النقود وتسلم رجال سانتينو للبضاعة، ولكن فجأة سمعا معا صوت صهيل الأحصنة ينبه بقية البائعين والماريين للركض نحو جوانب الطريق كي يتفادوا الإصابات التي ستُلحق بهم إن اصطدموا بفرسان السلطان.. فقد

وصل عدة عساكر مندفعين أمام مقر عمار، ثم وقفوا مصطفين حتى يمنعوا دخول أي من رواد السوق للمتجر.

لحظات وأبعدهم كبيرهم متجها نحو سانتينو ليقول له في حزم:

– إن أردت أن تُكمل تجارتك في دولتنا، فاذهب واشتري كل ما تحتاجه من متجر السلطان الخاص.. لن يُسمح لك بالتوجه لأي فردٍ ليس تابع له، وعليك بالموافقة على ما أُبلغك به أو بالرحيل

فالساقية لن تتوقف عن الحركة وقتما تكون الرياح سارية، لذلك ظل هناك من كان يحاول أن يتصدى لاجتياح كل التجهيزات التي اعتمد عليها التجار منذ عقود.. لعشرات السنوات وهم كبار تلك المهنة، يعرفون قيمة السلعة ورغبة المشتري في الاحتفاظ بها.. إما ليدخرها لقوت أبنائه أو ليبيعها في مكانٍ آخر يبعد آلاف الأميال عن موقع تداولها، فمن داخل تلك الغرفة التابعة لعمار.. كان يحاول ألا يخسر أي من أصدقائه التجار القادمين من الغرب، سلسلة من الصفقات يجب أن يُنهي على الأقل أكثر من ثلاثة أرباع عددهم حتى لا تزداد خسارته.. ولكن (**أينال الششماني**)، صاحب ديوان الحسبة الجديد بدلا من بدر الدين العيني –بعد أن عز وجود اللحم البقري من الأسواق وارتفع سعر القمح والسكر علاوة على زيادة قيمة الضرائب المفروضة، فثار العامة على الأخير ظانين أنه السبب في حدوث هذه الأزمة المادية والمالية من أجل منفعته الشخصية.. لهذا قرر حينها برسباي أن يصرفه عن تولي هذا المنصب احتراما لمكانته كي لا تتكالب الاتهامات الظالمة عليه- كان له رأي مختلف.. رأي تعسفي بإمكانه خدمة قوانين سلطانه الشبه موثقة، وبالتالي اعتبرها العامة أوامر توجب عليهم تنفيذها.

– أرجوك يا سيد أينال، كن متساهلا معي

قالها سانتينو وهو جالس على الكرسي الخشبي متوترا أمام أينال المذكور، والذي رد عليه في ثقة متزمتة:

– لا يوجد لدي حل بديل أيها الغربي، أنت كبير التجار في مدينتك.. كيف يصعب عليك التكيف مع كل تلك الظروف؟!

تدخل عمار -بما أنه يعد واحدا من أهم تجار الأسواق في مصر- في النقاش محاولا تمالك غضبه:

– لأن عظمة السلطان هو من أصبح يتحكم في مجريات السوق وحده الآن

ضحك أينال الششماني فجأة:

- إذا، حاول أن تُبرم اتفاقا شرعيا معه.. يضمن لك المكسب المألوف، أو ربما نسبة غفيرة متبقية منه
- وسيادتك تعلم جيدا الفارق بيني وبين فضيلته، سأخسر كل شيءٍ هكذا

التفت لهما سانتينو متلعثما:

- أعلم أن الفارق بين ثمن بضاعة الشيخ عمار هنا وثمن البضاعة في متجر السلطان كبير، ولكن هذا لا يعطي لك الحق في استغلالي

فوقف أينال مسيطرا على غضبه ثم اقترب منه:

- بإمكاني أن أُخرجك من هذه المدينة وألا أدعك تدخلها أبدا، تأدب خلال حديثك معي

شعر كأنه سيتم إعدامه في الحال لو أراد أن يعترض على ما قد سمعه، تلاشت كل الأحرف العربية من ذهنه وراح –يتمتم- ببعض الأدعية الصليبية في سكون.. لحظات ثم أكمل الغاضب:

- لا تخف سيد سانتينو، لن يتعدى عليك أحد ما دمت تستوعب الأمر.. واعذرني إن كنت لم تتفهم معظم كلماتي العربية التي أُمليها عليك

ليرد الخائف مرتعدا:

- لا داعي للاعتذار، أنا أتفهم ما تقوله جيدا.. ولكن كيف عرفت اسمي؟ أنا لم أقابلك من قبل بتاتا

تنهد ناظر الحسبة:

- نحن على علمٍ بهوية كل من يدخل بلدتنا، خاصةً من يتطرق لذلك النوع من التجارة.. إنكم تستغلوا ممتلكاتنا وتستفيدون منها بشكلٍ هائل، وتُسببون الضرر لمصالحنا عن طريق مساعدتكم وتدعيمكم لأهل الجزيرة القبرصية

تشمم سانتينو أنفاسه وابتلع ريقه كي لا يُفضح سره:

- أنا لم أفعل ذلك من قبل، **والرب** يشهد على ما أقول

- كلا، أنت ومنافسينك الأجانب تتصرفون هكذا دوما.. فلا تتعجب بسبب تلك القرارات الجديدة التي فرضها السلطان عليكم

فتساءل عمار في حذر:

- هل يجب عليَّ أن أتوقف عن البيع حتى لا تظن أنني سارق يا سيد أينال؟
- عمار، لو كنت سارقا لحبستك مع الكسابة بنفسي

ثوانٍ ثم أكمل أينال:

- أنت لن تبيع أحمال البهارات والفلفل بعد لأي مشتري أجنبي يأتي إليك من الخارج

وقف عمار في ذهول:

- ماذا تعني؟

نظر إليه مندوب برسباي متربصا، ثم شاور له حتى يجلس فورا كي لا يُحدث إزعاجا أو حتى تحتد نبرته:

- اصمت ودعني أُكمل

فجلس صاحب المتجر على الفور، ليردد أينال:

- سيشتري مسؤولي متجر السلطان منك جميع الأحمال بالسعر المتفق عليه بينك وبين كل التجار

تسربت كلمات الأجنبي:

- حسنا، فلتفعلا هذا بعد أن آخذ حاجتي من الغلال وأسلم السيد عمار المال

ليرد الناظر في غضب ملتفتا إليه:

- لن يحدث هذا، جميع تعاملاتك واتفاقاتك من الآن ستكون من خلالنا.. نحن فقط

فصرخ سانتينو بغيظ واضح:

- أنتم لا تحترمون هويتي، تسيطرون بذلك على كل شيء ولا تسمحوا لمختلف التجار بالكسب الشرعي دون تعويضهم

لم يكترث أحد باعتراضه، الاحتكار صار يتحقق بالفعل.. فبالرغم من قوة نفوذ أغلب التجار بجهة البحر الأحمر -أي في جدة ونواحيها- لقِدم مسكنهم بقلب الأراضي الطارحة لكل ذلك النعيم، إلا أن برسباي استطاع أن يفرض عليهم وعلى أولئك التجار الذين يقيمون بالشام سواء في حلب أو دمشق وأيضا الإسكندرية والحجاز قانونًا ينص على عدم بيع أي من أنواع البهارات والفلفل إلا لصالحه هو فقط.. ولمنع أي محاولة منهم للرفض، أعلن بكل ثقة أن من لن يتصرف هكذا سيكون السجن الأبعد لبيته مسكنه.

فمن خلال هذه المراسيم السلطانية، أصبحت عملية الشراء بالنسبة للتجار في مصر تسير على خذا النطاق فقد لا غير.. ولاحتياج الأشرف للأموال الطائلة حتى يستكمل حملاته على جانوس، كان عليه أن يبيع كم السلع بأثمانٍ غالية.. أغلى من المتوقع، فاختلق نظاما جديدا يسمح للتجار بشراء أحمال البهارات بالسعر المرتفع ومحاولة بيعها خلال أشهر قليلة حتى يُعاودوا الكرة مرة أخرى.. ومن لم يستطع إنهاء المهمة والمواصلة، كان يتم مصادرة حاجياته.. لذا، بسبب هذا الحكم قرر العديد من التجار الهروب من مدنهم وترك أماكنهم شاغرة بالأسواق.. لكن تلك النتائج لم تحرم برسباي من دفع جيشه للزحف، فاستطاع من خلالها وفي أقل من عام.. أن يجمع النقود الهائلة اللازمة للبدء في إستفاقة الروح المنتقمة بداخل جنوده عن طريق تشييد المعدات الحربية المُحملة بالهلاك، ولتشييدها على أكمل وجه تحتم عليه إصابة حركة التجار المتواصلة بالربح كي تستفيد الدولة بعوائدهم الرائدة.

الفصل السابع والأربعون

المسؤول الأول دائما ما يكون عُرضة بصفة كاملةك للمجازفة بمصير مسقطه الراهن -أو كما هو معهود عن هذا الموقع المتوسط لمختلف الحضارات، مسؤول عن مصير تاريخ أمة بأكملها- حين يهم باتخاذ قرارات صارمة وسرية وقاسية ولا حصر لعددها، ولكن يبقى هناك حدث يتباهى المؤرخون دوما على مر السنين بتذكره كلما تداولوا اسم الحاكم الذي حدثت نتائج هذه المسألة في عهده المنقضي.. أحاديث وأخبار ومفاجئات، تُعطل التحرك نحو النجاح المنشود.. رغبة تحكمت في النفوس وجعلتهم مُنصبين نحو عاقبة واحدة، وهي النصر الذي يتبع الثأر مما فعله الغادر وكلابه منذ عقود توالت بأحزانها.

بالرغم من مشقة السفر والأيام التي يسرقها الطريق البري والساحلي للوصول لغرفة التخطيط الخاصة بالسلطان، إلا أن جميع الأمراء الذي تم استدعائهم لم يلبث أي منهم على فراشه كثيرا.. **(تغري بردي برمش)** وهو نائب القلعة بالديار المصرية أي المسؤول عن الأمن بالعاصمة المملوكية، والأمير **(أينال الأجرود)** الذي ارتقى بأمرٍ من برسباي لرتبة أمير طبلخاناه ومن ثَمَّ لأمير ألف.. وغيرهم من الأمراء، مثل **مراد خجا وسودون اللكاشي وجانم المحمدي ويشبك الشاد..** جميعهم تحركوا من مساكنهم وتركوا أحصنتهم وحضروا قادمين من مختلف البلدان التابعة للسلطان نظرا لرفعة قدرهم، أرادوا أن يذكر التاريخ أسمائهم بين سطوره حتى لو افتقر المؤرخون لحقيقة أصولهم.. وعلى رأس هؤلاء جاء أينال الجمكي أمير المجلس وتغري بردي المحمودي رأس نوبة الكبير في وجود الأتابك قجق العيساوي وأمير السلاح الجديد **(يشبك الساقي)** عوضا عن الأمير أينال النوروزي لوفاته المفاجئة بأمر **ربه**، ولكن الغريب في الحدث أن من قد حضروا تحت أيدي المذكورين من جنودٍ لم يشعروا بالضيق بسبب تلك التنقلات المتعاقبة خلف نبلائهم وكأنهم ينتظرون ساعة الفرج بمساندة شعور الحماس الذي يداوي صبرهم لحين صدور الأوامر إليهم بالتحرك.. فلا غائب عن يوم الاتفاق مهما كانت الظروف الخاصة به حتى وإن جاء الموت زائرا لأحد القادة، سيترجاه الأخير حتى يدعه ليُنهي مهمته التي سيتشرف بتحقيقها حتما أمام أهل ملته الكرام.. لقاء الجمع بدأ، والرغبة في استكمال ذلك التحدي الذي بعثه القدر إليهم تدفعهم لدعم شغفهم بعباراتِ الثقة التي تُخفي رهبتهم من الغدر.

أمام السلطان آذان صاغية وقلوب متأهبة، يود أصحابها أن يحققوا حلمًا خُلق بين نفوسهم.. خُلق منذ أن لمست أصابعهم أطراف السيف البارق لأول مرة، ليُعلن برسباي عن رغبته في احتلال الجزيرة خلال الأشهر القادمة.. فالتطلع لتفشي الأمن بالمنطقة يُعتبر حقا المكسب الأساسي، البضائع والذهب والمقتنيات المحصودة من أرضهم لن تشفع لخطيئتهم.. لذلك الهدف المرغوب لضمان غلق باب التعديات المتكررة من جهة

جانوس، هو إخضاع الجزيرة لتصبح تحت إمرة سادة الدولة المملوكية.. وقد كان القرار بالفعل، الشروع في تجهيز الحملة الحربية الثالثة والناهية لتلك المناكفات الخبيثة.

فتفاجأ كل الحاضرين، لم يفر من ملامحهم التعبير الاندهاشي الذي يتحكم في مشاعر المستمع عندما يعجز عن الرد أو حتى يعجز عن التوقع.. الكل احتد مندفعا نحو التفكر فيما هو قادم، فالمبادرة ستكون ممتعة لو اصطف العساكر فردا تلو الآخر خاصةً بعدما وُفرت لهم الأسلحة الكافية لمبارزاتهم اللاحقة.. فكم المحاربين المُرضي الذين تم تدريبهم على أيدي ذوي الخبرة من قادة الحرب سيغلق الثغرات المباغتة، لا ريب في أن ثمن العتاد غال.. لكن أرواح حامليه أغلى، لذلك لن يستسلم القبرصي دون أن يُكبدهم بعض الخسائر الفادحة.. إنها الحيلة المثالية التي يستخدمها كل مهزومٍ كي يهرب، يظن أن الجنود سيفقدون عزيمتهم إن طالت مدة الحرب.. ولكنه غفل عن الحقيقة، وهي أن الكل سيقف بالمعركة حتى تحتضر روحه.

سيُخصَص لكلا الأميرين مجموعة مُجهزة بآلاف من الجنود، ربما ستتحاذى الصفوف.. ولكن يبقى التنظيم العسكري هو ما يفصل الأذهان عن خيوط التشتيت، فمن منطلق هذا المنظور وبعد تراشق الأفكار المتكرر بين السلطان والأتابك وأمير السلاح.. استقروا على أن يكون الأمير تغري بردي المحمودي، هو المسؤول عن القوات البرية المملوكية خلال الحملة المقبلة.. وأن يكون الأمير أينال الجمكي، هو المسؤول عن القوات البحرية المملوكية في نفس تلك العملية الاجتياحية.

الصلاحيات بينهما صارت متساوية، فهذه كانت نصيحة القادة لبرسباي كوسيلةٍ لتجنب أي نقطة خلاف فكري يمكنها أن تنزع الحكمة من رأس الأميرين في لحظة غضب بالرغم من نضجهما الكافي.. فالوضع شديد الحساسية، ويتطلب تأمينا صارما وذاتيا من قِبل حاملي عاتق الخسارة.. والأفكار أيضا يتحتم تنفيذها ببراعة ودون خلل، فلهذا السبب حضور الكل أمام عيني الأشرف وجب حتى لا ينشر الخونة مغزى الأسرار.. وإن بُعثت الخطوات التي سيُنفذها الجنود منقوشة على أوراق السلطان الثمينة عن طريق رسول أمين، لقتله أحد الجواسيس ودفن جسده تحت أنقاض الأشجار المتناثرة.. أو ربما يكون ذلك الرسول هو الخائن ويقبل كيسا هائلا من الدراهم الذهبية التي سيمنحه إياها أحد كلاب جانوس المتخفي بزي تاجر غربي سيرحل عن البلاد عما قريب، فكذلك لم يعُد يُستأمن أحد في مثل تلك الأوضاع.

هنا، موضع القرارات وموطن للأحاديث السرية التي يحاول العامة استكشافها دوما.. وكلما فشلوا في حصد محتواها، لجأوا إلى نشر التوقعات البديهية.. تلك التوقعات تدفع القادة للسخرية من تفاصيلها وقت سماعها من حيث سذاجتها، وفي بعض الأحيان تدفعهم للغضب بسبب مشاعر القلق التي تقتحم أحيانا صدور العساكر بعد الاقتناع بتلك الأكاذيب.. ليصبح فيما بعد إقناع تلك الأفواه الكاذبة بالحقيقة، أمرا مستحيلا.

الفصل الثامن والأربعون

دقات قلبه تدافعت بقوة كضربات المبتهج على الطبول، فقد قرر إبان ساعات الملل المدوي التي صار يعيش بينها وحده.. أن يذهب إليها، رغم علمه بإقامتها وحدها في بيتها العتيق.. فتظاهر بجهله عن ذلك الأمر طامحا في أن تتحدث معه دون تكلف لتُطلعه على جزءٍ من تلك المشاعر الكامنة خلف قلبها، كان يشعر برغبة عارمة في التصرف هكذا لعلها تُحيي الشغف بنفسه مرة أخرى.. بالنسبة إليه، بعد أن تزوجت ابنته ذلك الشاب اللعين ورحلت لبيتها المتواضع الجديد وتركته وحده.. تمتعه بالحياة لم يعد يستطعمه، لكنه اضطر بقبول هذا الوضع لأنه على الأقل إن قُتل في إحدى الغزوات سيبقى ذهنه مطمئنا على ملكته الصغيرة قبل توقف تعداد أنفاسه المتبقية.. ففي ظل كل تلك الاضطرابات، راح يتصرف كما لو أنه صار شابا توغل العشق كيانه.

طرق الباب وهو يرتعد ثم تمالك هرولة أعصابه فور فتح بركة للمدخل الخشبي، نظرت إليه متعجبة لبضع لحظات ثم قالت:

– شرفت منزلي بحضورك أيها الأب

ظل شاردا في وجهها حتى كسر صمته فجأة:

– أين توجد الأوراق التي منحتها لولدكِ بالأمس قبل أن يأتي لزيارتكِ؟

شعرت أنه فعل ذلك خصيصا لكي يأتي إليها اليوم، هكذا طريقته لكي يتحجج أمامها ويتحدث إليها كما يشاء.. فردت:

– وضعتها في غرفتي حتى لا تُفتتها الفئران

– هل بإمكانِك أن تُحضريها إليَّ؟

– وما السبب؟

تلعثم حديثه مجيبا:

– بها الكثير من المعطيات التي أستطيع من خلالها دعم رجالي

ابتسمت بركة مداعبة:

– أجنديٌ صغيرٌ أنت؟ أظن أن أولئك القادة ذوي الخبرة لا يكترثون بهذه المخطوطات

تستهين بردوده دوما وهو لا يطيق ذلك، لكنه أخفى حيرته واستكمل حديثه بعدما تمالك انفعاله وقال بحزم:

– أرجوكِ يا سيدة بركة، أحضري إليَّ ما أريده

ظلت تنظر إليه في تربص مخيف:

– حسنا، سأجلبها إليك.. تفضل بالدخول

رد مسرعا:

– لن أستطيع، لأن جاسم ليس هنا

التفتت إليه ساخرة:

– ولماذا جئت إذا بالرغم من معرفتك بهذا؟

توقف جسد تيمور عن التحرك وبقي صامتا لثوانٍ معدودة حتى قالت بركة ضاحكة:

– سأدع الباب مفتوحا على مصراعيه حتى لا يظن الجيران أنك ستعتدي عليَّ

ثم تركته وذهبت لتحضر له ما قد طلبه، فدخل هو المنزل ببطىء وأنفاسه تشع من رائحتها نفحات الغضب.. لأول مرة يفقد القدرة على الحفاظ الدائم على هيبته، ارتمى بجسده فوق الكرسي ثم انحدر ليتلمس ملائتها بكف يده.. انتظرها قليلا حتى عادت إليه، فتصلب جسدها فور رؤيته مندهشة لجرائته وامتداد خطواته حتى يتودد إليها.. حينها وقف المحارب مسرعا ليتسلم ما جلبته، وقبل أن يتكلم بادرت بالحديث:

– أعلم أنك تود أن تتقرب إليَّ

رد المتحير في توتر مفضوح:

– لا، بالطبع لا

ثوانٍ ثم أكمل غاضبا:

– من أبلغكِ بهذا الهراء؟

ابتعدت ملكة البيت بخطوات قليلة:

– كل تحركاتك وإيمائاتك تؤكد لي ما أشعر به

فقال على الفور:

– أنا لا أكترث بما تشعرين به

لترد العنيدة في ترقبٍ:

– كاذب، أنت تحاول أن تختلق المواقف بيننا وكأنها صدفة

تقرب إليها الرجل مشدوها:

– لم يجرؤ أحدٌ من قبل على التحدث معي بهذه الصراحة البالغة مثلكِ، توقفي عن التصرف هكذا

أردفت بركة مستهزئة:

– عليَّ أن أختبىء خلف غطاء سريري إذا بعد هذا التهديد؟

حزم الفرسان جعله يقول:

– نعم، ستخافين

فجلست بكل ثقة ثم تبعته متهكمة:

– لن يحدث أيها القائد، أنا وُلدت على حافة بحر العروس.. ليس على فراش مُطرز بالفضة، ويجب...

قاطعها فجأة:

- أنا أحبكِ يا بركة، أحبكِ بجنونٍ لم أعهد إليه من قبل.. ظننت أنني لن يُثار قلبي مطلقا، لكن في هذه الأحيان التي نعيشها الآن.. تغيرت ملابسات مشاعري بسببكِ، ماذا فعلتي بي؟! ماذا فعلتي بنفسي حتى أعشقك لهذا الحد العاصف؟!

سكت الاثنان لوهلة والفرحة ظهرت في عيني الأم مجددا بعد كل هذه السنوات التي عانت فيها من جفاء الحياة عليها، أحست أنها تود أن تسمع هذه الكلمة منذ أعوام دفنها الزمان.. وبالرغم من تحقق ذاك الحلم العاطفي، إلا أنها حاولت أن تستُر لهفتها:

- هل جُننت؟ بمَ تتفوه يا تيمور؟

- أتفوه بما تمنيتي أن تسمعينه يوم أن لمحكِ قلبي

تراجعت قليلا في خجل، وتنهدت:

- لا أعرف كيف دفعتك نفسك لقول مثل هذه الكلمات إليَّ بعد سنوات عمرنا المنقضية وبعد ما واجهه كل منا في حياته

ظلا يحدقان في أوصاف وجهي بعضهما في سكونٍ تام حتى توجه تيمور للخارج ثم أغلق الباب خلفه دون توضيح للمبرر الذي دفعه لقول عباراته تلك، فبعد أن أفشى بسر مشاعره المكبوتة تيقنت بركة أن جمالها لم تسرقه نكبات الأيام التي واجهتها وحدها منذ أن صارت تعيش مع ابنها مفتقدة أُنس المعشوق.. المرأة تُفضل أن تتفاخر بعزتها كلما رأت رجلا يحاول التقرب إليها حتى لو لم تكن تحبه، ولكن هنا الوضع يختلف كثيرا عما توقعته.. فما حقا أثار دهشتها، معرفته بما يدور بداخلها من تقلبات نفسية أفصحت عن اهتمام قلبها بوجوده المتقطع بجانبها حينما يتطلب الأمر ذلك.. وهنا الفرحة اجتاحت روحها، وبتلقائية عفيفة ابتسامتها الرائعة باركت منزلها الزهيد من جديد.

فصار فاضح عشقه يسير بين ريح سعادتها وهي تتابعه يهرول لبيته من ثقب النافذة الخشبية الصغير، لكن على حين غرة استوقف ضحكتها الرائقة سؤال خبيث:

- هل سيطلع جاسم على ما قد حدث؟!

الفصل التاسع والأربعون

الكل يستحي النظر إليه، تُسمع همسات الشفقة بين ألسنتهم بوضوح.. يمرون بجانبه متريثين كى يتمعنوا في حجم الإصابة التي ابتُلي بجراحها أثناء مبارزته الأخيرة في ساحة الذبح، جميع الجنود الصغار يرون حالته التي يُرثى لها.. لقد كان بالنسبة إليهم الشخص الآمر دوما، رب الغزوات الذي يعرف عن الموت الكثير.. لكن الآن، صار يسير متآرجحا.. إما يحتمي بسلاحه أو يستند على حطبٍ سميك كي لا يتخبط في من يسير بمقابلته، أما الملك يسكن في الخير دوما.. ينحني إليه غرس النبات وحاصده، سيبقى على ما يرام مهما حدث.. هو لن يُقتل، ولكن لو أصبح أسيرا سيكون أُضحوكة يبثق عليها الأشبال.. وربما ستُطقع أصابع يده، هنري من قبل حذره مرارا من محاولات الاغتيال المتخفية بين أمراء الجزيرة ثم تغاضى عن تحذير نفسه من الوخزات الجبرية.

– أنهكك التفكير المستمر، يتضح ذلك على وجهك.. لكن دعني أسألك، هل أنت على ما يرام الآن؟!

قالها هيو ثم اقترب منه ليواسيه، فقبل أن يضع يده على كتف أخيه.. أبعدها هنري:

– ألا تظن أنني بطل مغاور لا يخشى الافتراس من قِبل حيوانات تتشبع بلحم وجبتها الممزوجة بالدماء؟

رد الأسقف في استياء:

– بالنسبة إليَّ، أنت حقا بطل.. وتستحق هذا اللقب

ليتفوه المُصاب:

– وأنت حقا كاذب للغاية

– اليأس لا محالة من مصاحبته لعمرِك ولو لفترة وجيزة، ولكن صدقني.. ما تفعله حاليا يُعد بلا جدوى

– لم أعُد أستطع فعل أي شيء بعد الآن، ضعف الأمل الذي كان يجوب نفسي كل ليلة.. أما بدني فينقصه الكثير

ثم ضحك فجأة بأسلوب مزري:

– ينقصه حمل الجنين

أبعد هيو وجهه مقتضبا:

– يجب ألا يسمعك أي من العساكر والقادة حتى لا يقولون حينما يختلوا وحدهم أنك قد جُننت وتحتاج للحبس في غرفةٍ منفردة

اقترب منه هنري في صعوبة بالغة ثم ارتمى على ذراعه:

– لقد أصبحت عاجزا، الرؤية صارت مشوشة وعيني لم تعد تصلح لاجتياح سُنة الحرب.. ولا حتى لساني يصلح للتفوه بكلمة على طاولة المفاوضات

فتساءل جابر خاطره:

– كُف عن ترديد هذا الوصف المُخزي، فمن يجرؤ ممن حولنا على قول ذلك أو حتى التلميح به أمام صحابته؟!

ليمسح المصاب دموع عينه اليسرى برسغه:

– ألم ترى نظرات الاستهجان في أوجه الجميع؟ يُتمتمون ببعض الكلمات الساخرة على مظهري، فهم صاروا يرونني غزالة واهنة

تنهد الآخر قليلا ثم قال:

– عليك إذا تقبل الأمر ومواجهتهم بفصاحتِك، ربما ما حدث إليك فرصة لتُعيد التفكير في العديد من المصائب التي أوشكت على دفنك

التفت إليه هنري مبتسما:

– هذا جيد، سأُغرد لهم أقبح الألفاظ التي كان يقذفها أبانا على أعوانه ونحن صغار.. أتتذكرها؟! فلم يعد جثماني قادر على الإبداع بتحركاته نحو الغريم

ثم تركه على حافة المياه ورحل، نهر بيدالوس.. المنبع النابض للعاصمة، يلجأ إليه من يود أن يغتسل ذهنه متجنبا سخط الحياة.. ولهذا، حاولا أن يتنفسا بعيدا عن القصر.. بعيدا عن تلك المخطوطات والأصوات الأجشة، لذلك أفرغ الجريح ما في جعبته بكل صراحة.. ولكنه لم يذكر لهيو حقيقة امتعاضه من وضع أخيه الأكبر، كان على الملك أن يُصاب بدلا منه.. أوامر صارمة أشبه بهراء المهرجين، وإصرار غير مدعوم بأصول الدفاع المعصوم من الثغرات.. ما زالت الجولات قائمة، لم تنتهي القصة بعد.. لا يوجد هناك هدنة، المناوشات قائمة.. والأفكار سارية في التدفق نحو العقول، فتعترضها دوما هلاوس الحرب من صرخات مُلطخة بذروة الرهبة القاسية.

الفصل الخمسون

الخبرة الحربية تختلف أحيانا عن الخبرة الحياتية، ربما الأخيرة تُمهد الحقائق التي ستحدث خلفا للأولى.. أي أن صاحب المواعظ قد عاصر الكثير من المضايقات بل وانخرط في أحداثها أيضا، لذلك يخشى فقد الحيلة وقت تقرب الخطر من صدره.. اثنان عُرف عنهما تحليهما بالحنكة والصلابة بعدما يصاب كل من حولهما بالدهشة وقت سماعهم لما هو غير متوقع، تُشل العقول وتتلاعب الأطراف في هولٍ واضح.. ويظلا وحدهما يفكران في مخرج من الورطة الملعونة، بالنسبة للسلطان فقد احتسبهما عمودين راسخين بإمكانه استغلالهما لضمان ثبات فاعلية انتصاراته.. وجودهما يمنح الجنود الأمان الذاتي كي لا يستنفذ التوتر طاقتهم أثناء تلقيهم للأوامر وقتما يحين موعد التحرك، فحينها تستيقظ الأذهان عمدا لتتفادى أي مباغتة تسبب في مصرع أصحابها.

وضع المحمودي يده على كتف أينال -بعد أن تتبعه والأخير يسير متجها نحو بيته- ثم سأله مستفيضا:

- ألا تشعر بالرهبة قليلا؟ إنها أكبر عملية عسكرية ستخوضها طيلة تاريخك الحربي بأكمله

فالتفت إليه أينال مبتسما:

- ما دام العزم يقودُني، فلن يغدر بي الموت.. هكذا تعلمت في السابق، والوقت المتقطع برهن لي على ما تفهمته
- أخاف أن يُفاجئنا الزمان كعادته، أنا لا أخشى الموت على الإطلاق.. ولكني أخشى موعده قبل أن يُرفع سيفي
- وما الذي بإمكانه أن يفعله غير الهرب منا بعدما نستعين **بخالقه**؟ **فلرب** الموت حكمة يصعب علينا استيعابها

رد كبير رأس النوبة في سخرية:

- أظن أن القدر لن يغدر بنا خلال هذه المرحلة الثقيلة على النفس، حتى وإن كنت لا أثق في قدرات كل من سيتبعني

ضحك أمير المجلس وقال:

– لقد أنعم علينا بالكثير من الدروس المُعرقلة لخطواتنا، نتفاداها دوما رغم كونها أبدية.. ونسعى لاحتواء نتائجها قدر الإمكان

فأمسك كل منهما بحصانه وسارا على قدميهما خارج أسوار القصر خلال جدالهما الفلسفي هذا، بعض العساكر تعجبوا وراحوا يُراقبونهما عسى أن يتفهموا سبب نقاشهما معا كنوعٍ من الفضول الذي ينتاب مُنفذي الأوامر دوما.. ليُكمل الأخير شاردا:

– والدي أكد لي يوما أنه يتحتم عليَّ استبطان الأحداث من داخل جحورها كي لا أدعها تهرب على جفون الساعات

تبعه المحمودي متعجبا:

– جفون الساعات؟! مصطلح غريب، شرحه إليَّ أحد معلمي الفقه وأنا صغير لكن تلاشى مضمونه من ذهني

– هي التي من خلالها يتسلل الطموح أذهان عدوك الأقرب، ليستغلها إبان غفلتك وينقض على ثروتك الثمينة

– وهذا ما أخشى أن يحدث لنا عندما نصل لأرضهم، أتوقع أنهم سيقومون بخداعنا

فقال أينال بكل بساطة:

– بالطبع سيفعلون ذلك، إننا أشرس من قاموا بمواجهته خلال العقود السابقة.. والطريقة الوحيدة لهزيمتنا ستكون من خلال خداعنا

سخر صديقه:

– سمعت منذ أسابيعٍ قريبة عن محاولتهم لإقامة هدنة مع السلطان، كنت أعلم بلا شك أنه سيرفض.. فكلماتهم ليست بصادقة ووعودهم دوما ينقضونها

ليرد قائد السلاح البحري مسرعا:

– النفس خطائة إلى أن يُقضى نحبها، ولكل منا مبادىء دنيوية يلجأ إليها حينما يشعر أنه سيقع بحفرة قبره.. وذاك ما فعلوه

لحظات ثم أردف المحمودي في شرود:

– إن فقدنا القدرة على الالتزام بمبادئنا، سيكون الزمان قد انتصر علينا وجعلنا نستنفر مما أنعمت علينا به الأيام

تبعه أينال وهو يقهقه:

– هذه الحكم الفلسفية لن تفيدنا خلال تلك المعركة المُنظمة، سأحاول أن أقوم بتدوينها بحبري لعل الجنود يستفيدون منها بعدما نُقتل

حتى أردف الآخر بينما كان يضحك بهدوء:

– صاحب السلاح أيها الأمير لو افتقر لطهارة عقله، سيُقتل دون أن يدافع عن شرفه.. وسيبحث عما قريب في السماء عن الباب الأقرب للدخول للجنة بعد موته

– لم أعد أشعر برهبة المعركة بعد، وكأنني متجها معك لرحلة تنزهية.. هذه حقيقة تمنيت تكذيبها، لكنها سيطرت عليَّ بالفعل

– شعوري يتطابق فعليا مع كل ما ذكرته، تلك هي الثقة بعينها.. ثقة إلهية لن تهتز إلا حينما يزورنا عزرائيل وقتما يهم بقبض أرواحنا

خفت قلب أينال للحظة ثم أكمل:

– هل حقا تشعر أنك تملك الجرأة على تحمل مسؤولية أرواح الآلاف من الجنود أمام **المَنَّان** وأمام أسرهم أيضا عندما ينتهي كل شيء ونعود من الحرب ؟!

ليُطمئنه المحارب البري بعدما تبسم:

- ما سيمنحنا **ربنا** الواحد إياه في الجنة يستحق قربان العمر بأكمله، فإن تم اغتيالي أثناء الاشتباكات ولم أنجو.. سأُحتسب عنده شهيد ينتظر من يرافقه من أقرانه، وفي كلا الحالتين المكسب أتٍ لا محالة

الحرب أم الغزو، لا يعرفان أحقية أي من المصطلحين الأنسب لتسمية عملية تحرك الجيش الآتية.. الأمر معقد ولكنه مهيب، يُثير ما يسكن بداخل القلوب من مشاعر مضطربة.. يؤمن صاحبها أن تفكراته أصبحت أشخاصا بأجسادٍ تشبهه وتتحدث إليه عن هول موضعه إن خاض المعركة وغدر به الحظ المنقوص، وصفه المحمودي من قبل بالمنقوص لأنه لن يكتمل يوما.. الحظ نعمة مُحملة ببعض القرابين التي بإمكانها أن تُسهل المهمة على من يواجه حتى وإن كان ضعيفا، ولكن الجمكي يؤمن تماما بأن هذا المصطلح بدعة خلقها من فشل في استكمال حلمه لأنه لم يتفهم مكائد الحياة جيدا قبل أن يهم بالمحاولة.

الفصل الواحد والخمسون

حتى لو لم يكن الصغير من صلب مربيه، سيظل الأخير يشعر بالخوف عليه من معضلات الحياة الملازمة.. الأول يحاول دوما أن يتخذ الخطوات الأولى لإثبات أحقيته في الاعتماد على رسوخ وجدانه أمام أعين الجميع، لكن نسبة الفلاح ليست مضمونة على الإطلاق.. فمع الأسف كل ذلك يهدمه الموت في لحظة، حينها أيام السهر والمشقة حصادها لن يؤخذ في الدنيا.. حسرة تُصيب أهل المتوفى على نحوٍ استثنائي، ببساطة لأنه يُعد المستقبل بأكمله بالنسبة إليهم.. وهذا ما كان يهابه الريان، يخشى أن يفقد ابن أخته المتوفية.. فربما يغدر الزمن بالصغير، ويحثه على السعى نحو نهايته المجهول موعدها.. الدافع المعنوي ما جعل ريان يتوقع قرار حمزة دون إطلاع أحد قط على تصرفه، الأحداث التي ستصير تعتبر غامضة.. فالواقع ما سيوضحها خلال الأشهر المتبقية من عمر الاثنين، لكن هناك عوامل أخرى ستسبق الواقع وتُعلن عن حضورها أثناء نقاشهما الحصري.

دخل الريان الغرفة على ابن أخته في غضون الليل ليتساءل:

– أتمنى أن تجاوبني بالنفي، هل أنهيت مهمتك التي عارضت رجائي إليك لتجاهلها يا ولدي؟

ابتسم حمزة بعد أن ارتمى على مرقده:

– بلى، أنهيتها بالفعل.. وأظن أنها ستصبح عبئا ثقيلا عليَّ الأيام القادمة، فما توفيقي إلا بكرم **المجيب**

ابتلع الشيخ ريقه قبل أن ينحدر اللعاب من فمه:

– القادة بالأمس تقبلوا اشتراكك مع رفقاء التعبئة العسكرية في الجيش، أليس كذلك؟!

اعتدل الفتى:

– نعم، نعم يا خالي.. اختبروني بعناية، واستحققت الاختيار من بين العشرات.. سعيت لسنوات وها أنا الآن يتم تكريمي بالإنضمام إليهم

أكمل ريان في يأس:

– الفرصة متاحة أمامك بلا قيود، شعرت منذ لقائنا الأخير أنها لن تفلت من أصابعك

اقترب منه حمزة:

– لن أتهاون وقت رحيلي في التمتع باستغلالها، حتى لو كان الغدر ينتظر مواجهتي هناك كي يقبض روحي

– تريث، تفكر جيدا قبل أن يتهاوى جسدك بين السيوف والدروع.. أبلغهم أنك مرضت فجأة، أو قل لهم أنني أصبحت عاجزا وأنك لن تتمكن من تركي وحدي

– لو وضعت قدمي على متن السفينة سيصبح ذاك الحلم هو الواقع الذي سعيت خلف رؤيته مرارا منذ صغري

تمتم الكبير وهو يربت معصم الآخر:

– ولو تراجعت عن قرارِك وأجلت تنفيذ رغبتِك، بالتأكيد سينتفع من حولِك بعلمِك.. وأنا سأدعك تشرح للشبان بدلا مني

– يصعب عليَّ شرح الدروس التاريخية والدينية ببراعة مثلك، رغم كونها مهنة عفيفة أورثها الأنبياء إلينا.. لكنني أُفضل ما انتقيته

– تراجع، أستسمحك أن تتراجع.. الدموع ستتساقط على أنفي كلما أتشمم رائحتك فوق سريرِك

بدد الصغير اقتراحه:

– لو نفذت ما تدعوني لفعل إياه، سأندم بشدة.. وسأبكي أيضا بسبب تماطلي عن التمتع بمنحة الجهاد

قبله الخال باكيا:

– أرجوك لا تُعَرِض روحك للفناء، أنا عجوز وقلبي يحتاج إليك.. تذكر كلماتي جيدا، ولا تدعها تتطاير في الهواء

- وقلبك أغلى بالنسبة إليَّ من روحي المتهالكة، لا تنخرط في مشقة الأمور التي اعتدت على التغاضي عنها طوال عمرك

- طموحك لن يحميك لو هاجمك القدر بمفاجئاته، حينها سيختبيء كبريائك وستنحسر دوافع عزيمتك

احتضنه ابن الأخت برفق:

- سلاحي الأول هو دعوتك المستجابة **للجبار** حتى يحفظني، إياك ونسيانها أيها المعلم القدير

ألم، صراخ، دماء، احتضار، موت، خبر، بكاء، نحيب.. هذا هو التسلسل الهرمي إن أصاب الفتى مكروه وقت اشتباك فصيلته بساحة المعركة، يلازمه العديد من الفرسان.. جميعهم يتفادون الضربات الموجهة إليهم بسرعة هائلة، ولكنهم على استعداد تام لتقبل أي طعنات أخرى بإمكانها أن تؤذي أجساد إخوانهم.. الألم يحدث وقت غرز السيف في البدن، ليكون الصراخ أكبر دليل على نجاح تلك المهمة.. ثم يسقط الجندي على الأرض متألما وروحه تحاول ترك جسده في انتظار البرهة التي سيلفظ حينها بأقرب الجمل لقلبه عسى أن يستمع إليه أحد، لحظات وتنتهي الرحلة بتفاصيلها.. أيام ويعم الخبر، فيُصيب القهر من كانوا يوما الأعز لنفسه.. وتتعالى أصواتهم وهم يبكون كالأطفال، ليبقى عويلهم الداخلي حيا طوال فترة استعادة أذهانهم لذكرياتهم المُحببة معه.

الفصل الثاني والخمسون

الدعم المادي والمعنوي عاملان مؤثران في قاعدة الطرف الأضعف بالحرب، وسرعة الحصول عليهما دون مماطلة تُكسب صاحبها قيادة الوضع قبل أن تنقلب عليه الأحداث المتضاربة.. فانصب تركيز الأمراء مع ملكهم إبان الاجتماع على أن يستعيدوا قوتهم مرة ثانية مهما كانت التكاليف المنتظرة، ستكون باهظة وسيصعب عليهم تحملها وربما سيفشلوا.. هم الآن بلا خيار، وعليهم التصرف بلا تهاون كما مضى.. حصن ليماسول أعادوا تجهيزه للمرة الثانية، القرار كان مُكلفا لحدٍ تعجز ميزانية وطن بأكمله على تحمله.. جميعهم يقفون بأعلاه وينظرون للضياع المحيطة، وكل منهم يحاول ساكنا تخيل مشهد التحام جنودهم الدموي مع وحوش السلطان على بُعدٍ يمنحهم الفرصة للتواري عن القتل.

– حاولت بقدر الإمكان أن أحفظ روح كل من سكن في المدينة بأكملها، حتى أنني قد وصلت لأبواب الحصن الداخلية أثناء هجومهم عليه كي أمنح الجنود ثقة تحفيزية

بقى جانوس ناظرا لأركون لمدة دقيقة كاملة، والأخير عاجز عن التحرك أو إبعاد وجهه.. ثم أصابت الملك نوبة رهيبة من الضحك، ليقول بعدها:

– وهل منحتهم تلك الثقة التحفيزية بالفعل يا أركون، أم تطايرت الكلمات من ذهنك بعد أن ارتفعت أصوات صراخهم بجانب أذنيك؟! أرجوك أجبني

اقترب منه الأمير مرتعدا:

– لا يعلم أحد في مدينتنا كم الآلام التي أصابت جسدي ونفسي وقتما انهار الغطاء الأقوى لبلدتنا

وضع جانوس يده على رأس الآخر:

– لك قيمة لا بأس بها بين الجنو...

فتوقف عن الحديث فجأة ثم أكمل بسخرية:

– لا، معذرة.. كانت لك قيمة لا بأس بها بين الجنود، لهذا اخترتك لتتولى أمر المدينة.. وماذا فعلت حينها؟!!!

ظل أركون صامتا غير قادرٍ على تحمل عبء الرد، ليتفوه ملكه:

– الإجابة صعبة للغاية، أعرف.. لذلك سأُجيبك أنا، تركت المدينة ورجالك وهربت

– حاولت أن أُعيقهم أنا وحراسي ولكن فاضت أعدادهم بين كل فجوةٍ أخفيناها

– حراسك بليدون، لأنهم اتبعوا أميرا خاملا مثلك.. لم يحاولوا أن يطرحوا عليك خدعة لصد ذلك الانقضاض

تنهد الملك ثم قال ضاحكا للمرة الثانية:

– إنها حقا حرفة لا يُتقنها الكثيرون

أسرع أركون ليرد بامتعاض:

– لو كان أعظم حراسك في مثل موقعي آنذاك لهرب من الجزيرة بأكملها

– الآن أصبحت في نظر الجميع عجوز تقوس ظهره

– لقد أشرفت على إعادة ترميم الحصن وتزويده بال...

قاطع كلماته جانوس بعدما أزاح جسده بعيدا مستخدما ذراعه كي يكُف عن الحديث ويرحل، فتوقف الأمير عن التبرير ثم تحرك لأمتارٍ وهو يتمتم عباراتا بذيئة يلعن بها موضعه المخيب.. وبقى الملك بمركزه وهو يحاول أن يستبطن البهجة من لمعان السماء المليئة بالسُحب الشتوية كطفلٍ يشتاق للرقص تحت أمطارها، القادة يأتون ويُملون عليه أفكارهم.. يتحركون حوله مثل عشيرة النمل المُجتمعة أمام صرصار مقتول ليحملوه إلى مساكنهم، يود أن يقتلهم في التو واللحظة ولكن ليس إلا بعد أن يستمع إلى همهماتهم الكاملة.

***

– يوحنا الثامن، علاقتي به وطيدة.. لا أظن أنه سيبخل علينا بمساعدته

الأسقف أُعجب بهذا الاقتراح الذي طرحه رافاييل، لذلك أكد لهم مدى اقتناعه بإلزامية تنفيذه من خلال يوحنا إمبراطور القسطنطينية.. عاصمة الدولة البيزنطية، والتي كانت تعتبر حينها واحدة من أغنى مدن أوروبا.. نهيك عن دورها الأساسي في نهوض الديانة المسيحية على مر العصور، بدليل احتوائها على بعض من أقدم الآثار الصليبية بكنائسهم.

فأكمل هيو:

– تعلمنا الكثير من الأمور الدينية على أيدي أعظم الرهبان، كلانا كان يطمح لتعميم المحبة بين الخلق

قاطعه جانوس مستنفرا:

– لا تكن مملا يا هيو، لا أعتقد أن تعاليم المسيح التي تلقيتها مع ذاك الرجل ستنجدنا في هذه الظروف

يصيب الملك الاشمئزاز كلما استمع لاسم يوحنا الثامن، هو يعرف أن العلاقة بين دولة الأخير والسلطان جيدة.. إما في الجانب التجاري أو حتى السياسي، فلم تتخلل بينهما أي معضلات عسكرية بعد ويبدو أنها لن تتخلل مطلقا.

أردف يوچين:

– لقد جهزت ورقة مزخرفة ببعض العبارات التشريفية لسيادته، وسردت فيها أيضا حاجتنا لشفاعته لنا عند السلطان

رافاييل قال في امتعاض:

– لعل هذه الرسالة تمنحنا مزيدا من الوقت كي يتعافى عصب بنائنا الحربي

التفت إليه جانوس فجأة:

– بنائنا الحربي ضعيف بسببكم أنتم

تبعه هيو:

– ومنذ إصابة هنري أيضا وعزيمة الجنود تضائل قدرها

حاول أن يتشمم الملك نسيم الهواء المار من تحت أنفه، ثم استطرد:

– أتظن أنهم لا يثقون بمظهري كوني أعطيهم الأوامر بنفسي ؟!

لم يُجيب عليه الأسقف، فاقترب جانوس منه متربصا:

– هل تعني أنني لم أعُد أستطع السيطرة على الأمر الحالي؟

أراد أن يتدخل يوچين:

– بالطبع لم يكن الأسقف الشريف يقصد...

اسكته هيو بعد أن شاور له بيده اليمنى:

– دع الملك يضرب شقيقه، دعه يفعلها حتى يثبت لنفسه أنه ما زال على حق

فقد أعصابه، وفقد الحنكة التي منحته الخبرة إياها.. يُخفي ضعفه بالصراخ، غضبه أعلن عن عدم تمكنه من السيطرة على الوضع الحالي كما ذكر بنفسه.. تكذيب هذه الحقيقة لن ينجح أبدا، ببساطة لأنها الحقيقة بالفعل.. لم يعد التريث والتفكر يُجدي نفعا، ولم تعد المقترحات المطروحة ذات قيمة.. الأمر متروك للقدر، إما ينصفهم أمام الكوارث الفاجعة.. أو يتركهم يتحملون شدة النكبات القادمة وحدهم، لكن طالما أن الحرب لم تنتهي بعد فمن الممكن أن يكون الفوز قيد المستطاع.

الفصل الثالث والخمسون

الوحشة تدفع المسافر للحنين لما قرر أن يلتزم بمراعاة كيانه خاصة وإن كان غيابه الجسدي مستمر، كيان زوجته.. حبيبته الساحرة التي لم يمل يوما وهو ينظر لوجهها النقي من علة الظروف الحرجة، ظن قبل ربط قلبه بروحها أنه سيفعل مثلما أبلغه من سبقوه في تلك الخطوة.. كانوا يؤكدون له أن الفتور سيُصيبه بعد فترة وجيزة من إتمام العُرس، وأنه لن يتودد إليها بعدما يعود قرب غروب الشمس فور إنهاء مهامه اليومية لتوفير قوت بيتهما.. قالوا له ببساطة، أن الحياة ستكون مملة وتفتقر للإبداع.. الروتين سيقتل أحلامه وسيمنعه عن إثبات ذاته التي طغت من قبل على سيوف المعضلات الجارحة، بين اللحظة وأختها قرُب جاسم على تصديقهم ولكنه دوما يتراجع دون كلل وقتما يراها تسير أمامه بفناء البيت وتتظاهر بالمرض كي تجذب انتباهه.

راح يتابعها جالسا على أريكته ثم قال:

– من منحكِ كل هذا الجمال؟!

ثم ابتسم:

– عيونكِ تركع لها الجبال

ردت عليه ياقوت ساخرة:

– أتظن أن تلك القافية الشعرية الضعيفة ستُرضي كبريائي، لن ألتفت لمغازلتك حتى لو ظللت تُحدثني طوال الليل

تقرب إليها جاسم ليُمسك بيديها:

– بل ستلتفتي إليَّ في الحال وستُحدثيني بكل لباقة، كبريائكِ هذا سينهار أمامي.. وحينها، سأُقبلكِ أيضا

ابتعدت عنه قليلا لتقول في خجل:

– وأنا قبلت التحدي المحسوم، قبلته لأني سأفوز به.. ولن تتمكن من تقبيلي أو حتى إرضاخي لأهوائِك

– أتفنن في إثارة الغضب بصدر عدوي، هذا ما كان يفعله أباكِ معي أثناء حملة استطلاعنا الأولى

– حسنا، دافع عن منزلتِك كما أدافع أنا عن هيبتي.. والنتيجة ستنتهي بخسارتك المريرة كما هزمك أبي سابقا

رد الزوج متعجبا:

– لم يستطع، والدليل أنني فُزت بكِ أخيرا.. كيف ستُبهريني إذا؟!

دارت الساحرة في ثقة ثم قالت:

– قرأت بعض من مؤلفات بهاء الدين السبكي وأيضا كتابات محيي الدين بن عبد الظاهر.. ماذا تعرف أنت عنهما؟!

أخفى جاسم جهله بهويتهما، فتبعها:

– إنني لا أكترث بقراءة أبياتهم الشعرية هذه الأيام

أكملت الأخرى وهي تتهكم عليه:

– هم ليسوا بشعراءٍ، ينقصك الكثير لتعرفه عن علماء البلاغة التابعين للغتك الأصلية

شعر أنها تسخر من جهله بما سبقته في معرفته، فاستند على ظهرها مُحكما يده حول كتفيها ثم أردف غاضبا:

– لم تنشأ السيدة الماثلة أمامي بين حواري بلدتي، من أعلمك بأولئك الأشخاص وبإسهاماتهم أيتها الأجنبية؟

ابتسمت ياقوت وأفلتت منه متجهة نحو النافذة لتجلب قلة المياه:

– أنا لم أُولد هنا حقا، ولكني تربيت مثلك تماما.. فالجيران أعلموني بكل شيءٍ خاصة السيدات منهن، فأنا لا أعتبر نفسي غريبة عن طباعكم

استطرد المُحب عبارته:

- من يعيش بجُعبة المحروسة يجب أن يتشبع بطباع أهلها، وأنتِ الآن أصبحتِ واحدة من أجمل السيدات بأفرادها

ردت في عناد:

- بالتأكيد أنا هكذا

فاندفع نحوها مسرعا ليحتضنها، ثم حملها وارتما معا على السرير وهما يضحكان:

- ياقوت، أنتِ لستِ مثل بقية النساء.. أنتِ المليحة الراقصة بين النجوم، فلا تحجبي نورِك عن وجهي أبدا

يتحدث إليها بشغف وكأنها المرة الأولى التي يعترف خلالها بعشقه الصادق، يُغازلها كونها ليست عربية الأصل.. ولكنها كما ذكرت، تربت على أُسس البلاغة في الشعر منذ أن آتت لتعيش مع أبيها في مصر بعدما تركت أراضي الأناضول.. تنحني أمامه كالزهرة عندما تتخبطها الرياح، وتبتسم بين أسهم الضوء الخافت الذي يوضح ملامح وجهها الصافي دون أي شوائب.. تُخفِض حاجبيها وقتما تشعر أنه لا يكترث بأمرها، وحينها عليه أن يُقبل جبهتها ثلاثة مرات حتى تطمئن لدوام اهتمامه بهيئتها.. يود جاسم أن يُدفنا سويا حتى يُبعثا في الجنة معا، أما ياقوت تدعو **الله** أن يغرقهما في نعيمه النقي بدنياه وآخرته.. صلة لن تفرقها الساعات المتعاقبة، وإنما الجهاد وحده ما سيضع حدا لهذا الالتقاء الجسدي.

الفصل الرابع والخمسون

يتشاوران كي يشد الأقوى من أزر الأكثر رهبة، التيار شرس.. لم تكن موجة بحر أو برق لامع في السماء، من يسمعها يشعر أن غضب **الرب** قد حل ولن يُرفع.. عليهما أن يُعيدا حساباتهما مع قائدهم وأعوانه، ولكن قد فات الأوان.. ابتعدا عن أسوار المدينة وحدهما، كي يقفا عند ساحلها وهما يتمعنان طول البحر الممتد.. وكأنهما يترقبان ظهور البر الآخر، لعلهما يهربان مرة ثانية.. النجاة للأسرع، الأسرع في الركض.. وليس الأسرع في المجابهة، رافاييل القائد البحري الأبرز يعلم أن ليماسول أصبحت مأوي لأقدام أصحاب الغزوة.. ومدفنا لأهلها، وكبيرهم.. أو حاميهم، أركون.. بائسا، يشعر أن الخلاص في موته.. لا في هروبه، ولا في مبارزته لمن يُفزع بالوقوف أمامه حاملا سلاحه.

- الفائدة معدومة مما يحدث الآن، كان عليه اللجوء لاتفاقٍ دائم.. أو حتى لإقامة هدنة رسمية يشهد عليها كبار القادة منهم

تفوه أركون بهذه الجملة وهو ينظر لخطوات قدميه على الأرض، فبجانبه رد عليه رافاييل بفتور:

- حاول كثيرا مستخدما شتى الطرق لاستمالتهم، لكنه فشل كما توقع الجميع.. يرفضون المصالحة سعيا لهبة الانتقام
- كل المعلومات المتناقلة من أفواه التجار العائدين من بلاد السلطان تؤكد أنهم تأهبوا لتحقيق ما لم نترقبه أبدا
- أعرف هذا جيدا، لذلك أرسلت بضعة مراكب نحو مينائهم التجاري كي يُعرقلوا تقدمهم إن سنح لهم الحظ

التفت إليه أركون في دهشة:

- أي ميناء أيها المتهور، ذاك الذي يوجد في مصر بالمنطقة الساحلية أم ذاك الذي يتجهز بشمال بلاد الشام؟!
- كلا، إنني أنوه عن ذاك الكامن عند النهر العذب.. هم يفتقدون الرابط العسكري الذي يحفظ حدود تلك المدينة

- ولكن بسبب قرارك الطائش هذا ستُعرضهم لخطر الاصطياد من قِبل أسهم جنود برسباي

نظر إليه الثاني بكل هدوء:

- بإمكانهم التراجع وقتما يتيقنون من خطورة الوضع حولهم، ولا تنسى أن الملك جانوس على علم بكل خطوة يتخذها أي فرد من جنودي
- أشعر أن كل ما نفعله منذ شهور يُعد بلا منفعة
- لمَ تقول...

قاطعه حاكم ليماسول بامتعاضٍ:

- لأنهم أشداء، علمت أنهم هكذا بعدما اقتحموا أسواري المُصمتة بأسلوبٍ همجي لم أتوقعه حتى إبان منامي

ضحك رافاييل مستهزئا:

- أسوارك المصمتة!!! جانوس بنفسه من أمر ببنائها، انعكاساته الدفاعية أصابت أفكاره الهجومية بالشلل
- وأنا من سهرت الليالي مع الرجال وهم يُشيدونها، كنت أُتابعهم وأنا سقيم.. أحيانا كنت أنام بعيدا عن فراشي كي أُباشر تمام الإنجاز بنفسي
- ومع الأسف، الإنجاز قد انهار بين يديك وأمام رؤوسنا

في سخرية أردف أمير الحصن:

- بلى، انهار كهطول أوراق النخيل المتآكلة

الفصل الخامس والخمسون

لم تختلف المجموعة بل إزداد عددها، الأمر أصبح معتادًا وروتينيًا.. حتى شعر بعضهم أن اصطياد البط أصعب بكثير من بث الخوف في نفوس أتباع جانوس، يستلقط تيمور القائد بعض الأفراد البلهاء لمبارزتهم المنتهية بفوزه والعساكر أيضا يصطادون الحراس الراكضون للتخفي تحت الشُجيرات القصيرة.. الغدر لن يعوق تقدمهم، تعاهد الجميع على منع حضوره بأنفسهم.. هنا الغدر لا ينبع وقت التحيز مع العدو، وإنما ينبع حينما يقرر أحد الجنود أن يتراجع عن تنفيذ مهمته ويفضل العودة مرة أخرى لموطنه.. وهذا ما اعتبره الفارس المملوكي المعنى الحقيقي لهذه الكلمة، منذ أن ترعرعت العزة بين حُفف كيانه الفاخر.

***

محاولات الاستعطاف لم تتوقف، وصل لمقر قلعة برسباي رسول يوحنا الثامن.. رحلته مع رفاقه كانت شاقة، ولكنها شرف أصروا على أن يحظوا به حينما وطدت أقدامهم على رمال أرض مصر.. جميعهم كانوا يمشون في خشوع الرهبان المعتاد، وانحنائهم أضفى في قلب السلطان رحمة جعلته ينصت إلى كلماتهم كبكامل إرادته:

{من إمبراطور قسطنطينية العظمى، الأمير يوحنا الثامن باليولوج.. إلى السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباي الدقماقي الظاهري، حاكم الديار المصرية والشامية وبلاد الحجاز.. أستسمح كرامتِك الشريفة، أن تغفر لخطايا أحد أهم ملوك جزر البحر المتوسط.. الملك جانوس، ملك قبرص وحفيد سلالة عائلة غي دي لوزينيان الذي قد احتجزه منذ عدة عقود القائد العسكري والملك الناصر أبو المظفر صلاح الدين ثم أفرج عنه محافظا على أسس الرحمة التي اعتنق جوهرها.. ربما تكون هذه الفرصة المثالية لمحو الخلاف العرقي الناشىء بين الشعبين، وأنا على علمٍ بمدى تفشي صفة الكياسة بباطن قلبك كما ذكر مروجي الحكايات عن سيادتك على مر السنوات السابقة.....}

التكملة معهودة، خاصة بعدما قدم الرسول هدية من القماش الذهبي كي يرتديها الأشرف كعلامة على تبجيل ثقله بين حكام الأمم.. لأنها رسالة تشفُع من أجل عدم إزهاق روح الوضيع، احتفى بهم برسباي بكل بشاشة.. ثم أمر بإجلاسهم في غرف الاستراحة المخصصة للزائرين والكامن بداخلها أشهى أنواع الأطعمة التي يشتاق إليها المسافر وقتما يهجر بيته، ولكن وقت رحيلهم.. أعلمهم برفض قبول الطلب، نهائيا.. فقبل بضعة شهور قد سبق وصول رسل إمرة العلايا وأتباع جنوة للتبليغ عن أخطر الثغرات الغافلة عن أعين الأمراء التابعين لبرسباي نظرا لصعوبة توغلهم بين بلدان الجزيرة، والتي كانت تضم أهم المعدات والذخيرة المستخدمة لصناعة

السفن والأسلحة الحديدية.. عملية التحريض من هذين الطرفين كانت خبيثة ومنظمة لما حقا ستصبه تعاقباتها في جعبة مصالحهم من خيرٍ وقت إيذاء معارضهم الأوحد، جانوس.

***

فاجتمع الأسطول برمته بميناء العروس، وكأن صاحبوه يوفون بعهدهم نحو الإسكندرية للثأر من أولئك الأنجاس بعد أن اغتصبوا عفتها.. أكثر من مائة سفينة، وصل أغلبها من ميناء طرابلس وصور بلبنان وأيضا من ميناء جبلة بسوريا.. تحتوي برمتها على كل ما يمكن حصره من سلاحٍ ومؤن تكفي خلال المدة المتوقعة حتى وقت انتهاء الحرب، وكانت الأكثر استعمالا.. الشواني، تتخذ على متنها الأبراج المشيدة بعناية للصعود لأعلى قمة الحصن.. ومُجهزة بمخزنٍ يشمل الصناديق النفطية المستهلكة لإشعال عاصفة الانفجار، وأيضا مزودة بأعدادٍ من اللجام.. أي قطعة من الحديد رأسها طويل يتم قذفها على مراكب العدو كي تتفرق عن بعضها، بجانب الكلاليب أي الخطاطيف صلبة الصنع والتي دوما تُطرح على السفن المقابلة لإيقافها.

أما الحمالات -وهي أصناف لا تقف إلا بموقعٍ غزيرٍ بالماء لعظم حجمها- تم إحضارها لتحمل فوقها الأزواد والأخشاب والخيالة.. وكان الغليون، أرقى طراز صنع بهذا العصر في المقدمة.. لكونه ذات أربعة صواري - عمود رأسي طويل يدعم الأشرعة– ويحتوي على ساحتين للقتال بالجانب الأمامي والخلفي، فامتاز هذا النوع بارتفاع مؤخرة السفينة البارز.. أما بالنسبة للجنود فقد اندفع الكثير من الأناس ليشاركوهم في عملية التضحية الثمينة، أعدادهم كانت غفيرة.. آلاف يصعب حصر عددهم، لدرجة دفعت أمراء السلطان للاعتذار عن أخذ بعضهم بسبب عدم اتساع الأغربة لحمل المزيد من المشاركين.. وقبل سفر الجنود -الذي لم يخلو منهم عدد لا بأس به من الأعيان والفقهاء المُدربين رغم رفعة مكانتهم– لموضع الانطلاق أراد السلطان أن يشاهد استعراضا عسكريا منظما بحوش القلعة في القاهرة، تحركات تُطمئنه على سر ثباتهم وقت الجهاد حتى يكون على علمٍ مُمنهج يوضح مدى استعدادهم قبل أن يوزع نفقة السفر على الأمراء والقادة.

أقلعت الحملة من ميناء الإسكندرية في أواخر شعبان سنة ٨٢٩هـ/أوائل تموز ١٤٢٦م، ولسوء الحظ.. أصابت الرياح الحادة جميع السفن وجعلتها تصطدم ببعضها، حتى انكسرت أربعة منها.. ونتج عن ذلك التلاحم البشع وفاة عشرة من الرجال وغرق مئة من أعداد الفرس، فتعطلت المهمة أثناء اندلاعها.. الموقف صادم ولم يكن في الحسبان، في البداية وقت الحملة الأولى عندما هاجمتهم العاصفة.. تراجعت الأغربة إلى موضع إقلاعها ولم يتقلص عدد الرجال، فقط إصابات جسدية ما طرقت على حشدهم.. لا يعرفون إن كانت هذه المصيبة عطية من المولى أم غضبا يتبعه عقابا صارما، بل هم على يقين بضرورة التماسك أثناء اندلاع شرارة الوهن بقلب حامل السلاح حينما يوسوس له شيطانه كي يسخط على ما قد قُدر.

الفصل السادس والخمسون

آليات التخطيط ومراسم التجهيز تضع حدا لتوقع إما خبر نجاح الهجوم أو تراجع المختارين لإتمامه في الوقت السديد، العائقة آتية لا محالة.. لذا وجب أن يتم طرح بعض اللوائح الصارمة، فالسيطرة على الأمر فريضة ولو تطلب الموقف التضحية بالمرء من أجل طمس أسطورة كاذبة نُشرت بين البلدان.. هذه الأسطورة ذُكر بين سطورها أن وطن السلطان ضعيف وقد بُني على أُسس حضارة ستُطمس يوما ما، مروجي هذه الكذبة ارتعدوا بعدما تفطنوا من خلال أتباعهم أن هناك حملة هائلة قادمة نحو أكواخهم.. هائلة ومرعبة، جنودها وحوش مفترسة وقائديها عظام كما ذكرت المراسيل.

اقترب يشبك الساقي من برسباي راكضا:

- السفن يا قائدنا الجليل تصطف في حالةٍ حرجة، والتقارير المبعوثة من رجالنا عبر موانىء المدن توضح أن الوضع ليس على ما يرام

التفت إليه السلطان:

- تريث أيها الأمير وقف أمامي، ماذا حدث؟

أكمل الآخر وهو ينهج:

- هبت ريح باردة عليهم جميعا وأحدثت اضطرابات هائلة لم يتمكنوا من احتواء بعضها رغم محاولاتهم العصيبة

لحظات ثم توجه نحوهم قجق ليقول متلهفا:

- انكسرت بعض المراكب الكامنة على طول الشاطىء وغرقت عدة خيول كانت مُحملة عليها

فقال برسباي في غضب:

- دعموهم على الفور بعدة قوارب مصمتة الهيكل لحمل المصابين، وأبلغوهم بضرورة الحفاظ على جمع الخيول قدر الإمكان

ليردف الأتابك:

– سأُشرف بنفسي على بقية الرجال لإرسال ما قد تم صُنعه قريبا كي يتم تعويض الأسلحة التي تُلفت

تبعه أمير السلاح متوترا:

– وأنا سأحاول السفر إليهم في أسرع وقت رفقة كبار الأطباء، حتى أتأكد من سلامة الجميع

صرخ السلطان في حزم:

– هل هناك مصيبة إضافية يخشى أي منكم ذكرها ليَّ؟ هل يتطلب الأمر تجميد تحركاتهم وعدم استكمال المهمة؟!

مرت بضع ثوانٍ حتى هدأ برسباي، فقال حينها يشبك:

– لا، علينا أن ننتظر لعدة أيام فقط ثم نستكمل خطواتنا.. فلنتوسل **لله** حتى يُخمد حيرتنا المتشعبة، ويصرف تلك الرياح عنا

أكمل قجق في هدوء:

– نحتاج لفترةٍ زمنية قصيرة، أي قرابة اليومين لتعويض ما فقدناه.. إنه أنسب تقدير لهذا الوضع الحرِج، فتراجع الحملة وعودة الجنود دون أي محاولة لتفادي ذاك المأزق سيدفعهم للشعور بالهزيمة الوهمية

قاطعه السلطان:

– حاولوا أن تترقبوا الأحداث المُستجدة فجر كل يومٍ يهلّ علينا بمواقفه، ولكن كيف وصلتكم الأخبار بهذه السرعة؟

رد الأتابك:

– تواصلت مع الأمير آقبغا التمرازي نائب الإسكندرية حتى يرسل بعض من رجال البحارة خلف الحملة، وحين جدت المُعضلة بتعاقباتها أبلغنا على حين غرة

فقال أمير السلاح:

- أظن أن الجنود لديهم ما يكفي من إمداداتٍ ومؤنٍ حتى ينتفعوا بها طوال تلك الفترة المقبلة

ربت برسباي كتف الأخير، ثم تنهد:

- فلنرسل إليهم المزيد، ولا تتهاونوا في تجهيزها على أكمل وجه.. لعلهم يحتاجون إليها إن طالت مدة انتظارهم، رياح خادعة وإن لم يحذروا تأثيرها ربما سينقلب عليهم الأمر

ليس بمخيرٍ في تلك الأحيان العصيبة كبقية الخلق، يتابع ذهنه ما يحدث وقلبه يرتعش.. تمنى أن يملك القدرة على استعادة الزمن، أراد أن يحفظ الأنفس.. لا يعرف السلطان كيف لم يخطر على باله حتمية خسارة جزء من المحتويات اللازمة لدفن توق الانتقام في نفوس ذُباب جانوس الضعاف، فالأمر الآن لم يعُد يُجبره على اتخاذ أي قرارات جديدة.. ولا الحل يكمُن في جمع الأسلحة التي يحملها أولئك القادة، وإنما فترة الانتظار فقط هي ما عليهم احترام دقائقها.. لعل شرود الحملة بلا أي إعاقة كان سيُعطي للقبارصة الفرصة للتيقظ وصد توغلهم إن حدثت مصيبة كهذه مرة ثانية، ليظل التريث الزمني والمثابرة على إعداد الأغربة بكافة الإمكانات المُستحدثة ما يفصل الأسود عن التهام الفرائس وتملك أرضها.

الفصل السابع والخمسون

خلال دفعة التحرك مجددا تناثرت بعض الأخبار عن وصول عدة سفن قرصانية إلى السواحل المصرية، وبالأخص بين رشيد والإسكندرية.. فالعناية الإلهية صادفت خروج بعض المراكب التي كانت متجهة بالفعل إلى بحر العروس، ولما لاحظ المجاهدون اقتراب طليعة بعثة جانوس أرسلوا بطلب النجدة مِمَن تبقى على البر.. لم يكن الوقت كافيا للانتظار، لذلك اشتبكتا الجبهتان على عجلة.. وقد أظهر حمزة خلال النزاع شعوره بالخيفة وقت أن أعطاه قائده الأمر بإطلاق نيران المدفع صوب مجموعة من عسكر جانوس المستعدين بولعهم لتصويب أسهمهم النارية، ولكن الصيحات كانت حماسية.. التكبيرات المبجلة **لرب** السموات أعطته دافعا نبيلا ليصبح مغوارا كما تمنى، فأشعل فتيل ذخيرته متحليا بصميم شراسته.. لأول مرة يستغني عن جلباب التلميذ الذي اعتاد على ارتدائه، ولأول مرة أيضا ينتبه لذاك الزي العسكري المنمق الذي يحمله على جسده الآن.

وفور وصول النجدة الحربية، ولى الصليبيون هربا بعد أن غيروا مسارهم حتى قبل أن تحاصرهم المجموعة القادمة من الإسكندرية كما حدث معهم سابقا في بداية الحملة الثانية.. المفاجئة مروعة، ولكن على عكس ما هو مُرتقب بثت فيما بعد الطمأنينة بقلب السلطان.. وكأن **الله** يؤكد للجنود من خلال حصافته أنهم في معيته إلى أن يُدفنوا، فأصبح حينها موضع التقدم من ميناء رشيد.. اجتمعت فيها سفن العروس مع تلك الآتية من ساحل بولاق علي الشاطئ الشرقي للنيل، ليبلغ عددهم جميعا مائة وثمانين سفينة.. فأقلعت الحملة دون أي إعاقة جديدة مُدبرة من القراصنة حتى وصلت أخيرا في ٢٧ شعبان/أوائل تموز عند بقعة تُدعى ليفدان على شاطىء أفذيمة، وهي منطقة تقع بالقرب من مدينة ليماسول فقط ببضعة أميال.. وهناك نزلت القوات البرية حتى تتمركز بعتادها.

دفع الأمير المحمودي بقوة هائلة من الأمراء والجنود صوب ليماسول، ولكن القبارصة ظنوا أنهم فرضوا سيطرتهم على الساحة بعد إعمارهم للحصن مرة أخرى وحشدهم للرجال في جميع البؤر، وما كان يضمن لهم نجاح التصدي هو ذلك الخندق الذي حفروه حول الحصن حتى يتعثر المسلمين وقت العبور فوقه.. فأصر القادة على أن يتريثوا لبضعة أيام، لم يخطر على أذهانهم أن العدو سيُشيدون لجنودهم مصيدة كبيرة كهذه حتى يدفنوهم بداخلها.. لذلك قرروا ألا يُخاطروا بأرواحهم إلى أن ينتهي الرجال من صناعة أكثر من سلمٍ خشبيٍ عرضه شاسع كي يصعدوا من خلاله لتبة الحصن، فردموا الخندق في الليل وعبروا زاحفين حتى وصلوا لجدار المبنى.. وفي هذه اللحظة باغتهم القبارصة بصب قدور الزفت فوق المارين ثم أشعلوا النيران بأجسادهم، فلم ينتظر الأمراء كثيرا.. أمروا رجالهم بإطلاق المدافع نحو الفتحات المحصنة التي يختبىء خلفها

رجال جانوس، وفي ظرف دقائق دوي صوت الانفجارات العارمة بالمنطقة.. وفر الفرنجة دون تفكير، حتى ارتفعت هذه السلالم الخشبية على طول الجدار وفوقها العساكر صاعدين لتملك البرج الأول.

***

وأثناء فتح الحصن، اتجه المحمودي إلى قريةٍ مميزةٍ تُسمى **(اسكتية)** تقع أيضا بالقرب من ليماسول.. وقد كانت تحت حكم البنادقة، لا علاقة لأصحابها بأوامر جانوس أو حتى بسياسته.. فطلب كبيرها بعد أن بعث رسوله للمحمودي، بإعطاء كافة أهلها العهد بعدم التعرض إليهم مقابل العديد من المعلومات عن الحشد الذي كان يعتمد على صدده ملك قبرص البالغ عددهم خمسة آلاف فارس بمحاذاة سبعة آلاف رجل يُخفون جشعهم حول الراية الصليبية لمواجهة القوات الإسلامية.. كل هذا غير كم المعدات الحربية الثقيلة، لذا رفض الأمير أن ينقُض الاتفاق التطوعي بينه وبينهم فأمّن أهل القرية على ذويهم وحياتهم بصدرٍ رحب دون أي اعتراض.

الفصل الثامن والخمسون

الخطر ما زال يتراقص خياله أمام أرواحهم، وليالي الدهر فقط ما تفصلهم عن تلك النهاية المُرعبة التي تُرهب قلوبهم كلما شعروا باقترابها.. انعقاد المجلس ربما سيكون الأخير، فمنهم من سيستطيع الهروب متخفيا.. ومنهم من سيفقد الرغبة في العيش كأسيرٍ، فلو كان موضعهم بالحياة يتلخص في كونهم عساكر فقراء لتركوا أسلحتهم وفروا نحو إحدى تلك الدول –أي جنوة- التي حاولت بشتى الطرق أن تحافظ على علاقتها مع أبناء بلاد الجهل والغنى كما كانوا يطلقون عليهم من قبل.. أما الآن، نظرة القادة الثقافية تغيرت نحوهم بعد ظهور حصيلة ذاك التأثير الذي أصاب كيانهم.. تأثير جعل أفكار عباقرة وطنهم مشتتة، فالوسيلة المفردة والمتاحة لإخراجهم من ذلك الذُعر الدنيوي ستكون النقود.. بها سيضمن أفراد الكتيبة أنهم سيتقاضون أجورا مجزية مقابل ثباتهم بأرض المعركة، رغم أنهم على دراية بضعف موقفهم الحالي.

سهل خيروكيتا يقع بالقرب من العاصمة، يعتبرونها قرية نظرا لتُربتها المبللة.. و**(چورچيو)** صاحبها كان يجلس مع جانوس وحارسه ليشرح بالأخص لهما أهم مواقع القوة في تلك البقعة، نظرا لسوء حال الأمير هنري منذ إصابته الوخيمة:

– لو استطعنا اصطيادهم عند أطراف المنطقة سيتقهقر جيشهم قبل أن يصلوا إلى العاصمة، استغلال الوقت وتحديد المنطقة المناسبة.. سيُسهلا علينا إنجاح تفويضنا

التفت يوچين لچورچيو ثم سأله:

– هل أرسلت بعض من الجواسيس ليتفقدوا وضعهم العسكري هناك؟!

رد صاحب القرية في توتر:

– بالطبع، بالطبع أرسلتهم.. فأبلغوني أن قوات الجانب الآخر قد أصابهم الإرهاق بالرغم من تقدمهم العاجل

كان جانوس يقف بعيدا عن المنضدة التي يلتف حولها القادة والأمراء، مستندا بيده على النافذة ليتفكر في مجريات الموقف العصيب في سخرية تامة لكن دون أن يلحظ أحد هذا.. لحظات ثم قال:

– حسنا، فلنستغل الفرصة خلال تلك الأيام المُقبلة كي نهجم على معسكراتهم قبل أن يتعافى جنودهم

فتدخل هيو متحمسا:

– هذه الأخبار تعني أنهم سيُأجلون تحركهم، الوضع قابل للمضاهاة.. عُرف المحاربون ينص على أن يتم الاتفاق على حلٍ يحقن الدماء ويُرضي الطرف الأقوى على حساب من هو أضعف

ابتسم رافاييل باستهزاءٍ:

– حشدهم رهيب، أعظم مما توقعنا.. ولم يعُد أمامنا وقت نتمنى خلاله حدوث أمنيات لن تتحقق أبدا مجددا، حاول الملك أن يُخفي إنحنائه من فرط الإنهاك النفسي الذي أصابه.. ثم استكمل بحزم:

– لم تنتهي الحرب بعد، وهي لن تنتهي إلا حينما أُجزم بذلك.. سأتولى بنفسي قيادة الفرسان والمشاة، كم يبلغ عددهم الآن؟!

رد يوچين مندهشا:

– ما يقرب من ثلاثة وعشرين ألف جندي يا سيدي

فتعالى صوت ضحكة جانوس الكاذبة:

– ثلاثة وعشرون ألف جندي سيغلقون هذه الصفحة المتسخة من تاريخنا، حتى وإن ماتوا جميعا

ثوانٍ ثم تنهد قائد القوات البحرية:

– هذه المرة لن نهرب متقهقرين كما حدث سابقا، هنالك أربعة عشر سفينة مُحملة بكل ما يمكن أن يصمد أمام مدافعهم الثقيلة.. لو تراجعنا مجددا، سأطالب حينها من حضراتكم بإعدامي أمام شعبنا

سكتوا جميعا لوهلة، حتى دخل عليهم هنري محاولا الاستناد على بعض من تلك الكراسي الموضوعة كي لا يتعثر:

– ألم تنتهوا بعد من سرد قراراتكم الهزلية؟!

نظر إليه الجميع، وجمله تتمادى:

– النتيجة هي الهزيمة، في كل مرةٍ واقع هزيمتنا يُشبه جلدة السوط التي تكبح صلابة حواجزنا

يعلم بأنهم مُشتتون ومندهشون، لا مغير للأمر.. يلهثون خلف أي حلول طفيفة تمكنهم من الخروج من هذه الحفرة التي ربما سيُدفنوا بداخلها، وبالأخص الآن ثقتهم بعباراته قد ضعُفت لحدٍ مهين.. فجأة حدثت ضجة بخارج القصر، فوقف جانوس مسرعا لينظر من النافذة التي رأى من خلالها رجلا بصحبته بعض من العساكر العرب نزل من على فرسه واتجه خلف حرص القصر لموضع استقبال الرسل:

{عليك ألا تتعنت، إنها الفرصة الأخيرة بالنسبة إليك.. ذكرتها لجنودي قبل أن يأتوا إلى بلادكم، وأقولها أيضا إليك الآن.. بإمكاني أن أخرب ممتلكاتك وقصورك، وأن أقتل جندك فردا تلو الآخر بلا رحمة.. إلا إذا دخلت في طاعتي وأنهيت النزاع بكل سلم حفاظا على روح كل فردٍ من أهل بلدتِك وطأ بقدميه على هذه الأرض...}

ذكرها الرسول المملوكي بكل ثقة، ألقى على جانوس الأحرف بلغته الأم بينما كان أحد المترجمون يرددها بأحرفه لاتينية المنشأ.. أتى بكل نبل كي يعرض عليه تقبل فرض السلام وإحقاقه كما أمره قادته من المسلمين، ولكن هنري صرخ في وجه رجل السلطان بجنون.. ثم نادى على العساكر الماثلين خلفه:

– عذبوه ولا ترحموه، وعندما يُقضى نحبه بعد ذبحه تحت سيوفكم.. أحرقوا جثته وعلقوها على أبواب القصر، اجعلوه عبرة مسيئة لكل الأهالي.. هيا، افعلوها بضراوة

لم يخالفه الملك، ولا حتى الأسقف.. أرادوا أن يمنحوا الجنود حافزا يُنبض العزة بداخلهم حتى لا يفقدوا الأمل في لمحة النصر الغائبة منذ عامين، هيو لم يعارض هذا التصرف بقتل رسول بريء.. لم يكن هناك من سيستمع إليه إن رفض، ففور رؤيته لقدوم ذلك المُبلِغ تيقن أن أخاه سيُفقده روحه كداعٍ لبث العزيمة بنفوس فرسانه.. ولو كان في مثل موضعه لما وصل إلى هنا على الإطلاق، لا يعرف هل هي ببلاهة رجل شهم أم بشجاعة فارس شرقي؟! هنا أيضا درايته بموقف بقية المسؤولين واضحا، يعلم جيدا أنه عندما يُغلق أحدهم عينيه ليسترخي ولو للحظات سيرى جسده معلقا على أبواب القصر الشاهقة كي يُعذَب أمام العامة.. يخشى أن يكون هو الضحية كما ذكر له الشيطان بكابوس منامه، غفلة هؤلاء القادة ستُعلن عن تفتت رباطهم الكاذب وسيكون تشبيه الشعوب لهذا التصرف بالجريمة.. وهي التي أُقتُرفت بعدما كانت العجرفة تسوقهم جميعا، فعليهم أن يمنعوا انزلاق خرابها فوق عاتقهم الضعيف بعدما فقدوا الثقة الموروثة من لباقة معلميهم الذين حاولوا أن ينسبوا صفة الكبرياء لسمعتهم.

الفصل التاسع والخمسون

بلغ خبر قتل الرسول الجسور للمحمودي وأينال، فاتفقا معا دون تراجع بالزحف رفقة قواتهما منقسمين برا وبحرا كما تم التخطيط في مصر.. البحريون راحوا يشقون الأمواج مسرعين نحو لارنكا، بينما ظل المشاة مستكملين طريقهم بين حفوات الزرع حتى ظهر لهم جانوس -في يوم الأحد شهر رمضان/٧ تموز وقت الظهيرة- متقدما عن اصطفاف عساكره ببقعة **(خيروكيتا)**.. والتي تقع في جنوب الجزيرة بين الملاّحة وليماسول، فدارت المعركة التي كان ينتظرها حمزة بعد أن فقد رهبته التي لازمته وقت صعوده للسفن تاركا مآوه بداخل وحدات التدريب الحربي بعاصمة مسقطه.

شاهد بعينيه معركة عنيفة لا يشعر فيها الجندي بروح الإنسانية التي كان يُحدثه عنها الريان بمجلسه، وكلما اقترب منه عسكري قبرصي ليقتله.. صار السؤال المعتاد يُعكر عليه صفو تركيزه، حتى قبل أن يهم برفع السلاح:

– هل هذا الشخص الذي سأقتله على حق، وأنا الخسيس؟!

فأفلت من يد الأول وغرز السيف بين ضلوعه وتركه يسقط أمامه، ثم عاد يسأل نفسه مرة أخرى وهو يركض:

– هل كل هذا الكم من الفرسان مؤمنون بأحقيتهم في العيش بسلامٍ كما نرغب نحن؟!

انحنى حمزة بغتة ليصيب قدم الحصان الذي كاد أن يسقط عليه بفارسه، ثم لمح الأخير وهو يزحف نحو فأسه.. فانقض على ظهره كي يطعنه، ونفذها بالفعل:

– ماذا لو كانوا هم أهل الجنة؟!

تلعثمت فجأة قدمه بسبب بقعة من الطين وسقط أرضا، فحينها باغته جندي من الفرنج وأصاب فخذته بسهمٍ مسنون.. ليحتمي الشاب بقطعة من الأخشاب الواقية قد تركها أحد أصدقاؤه وهو ينطق الشهادة، فسمع صوت الأخير وهو يلهث قائلا:

– أرى مرقدي في الجنة معك يا **ربي**

لتثور العروق في جسد حمزة فارضة عليه حتمية تثبيت خطواته متجها لمالك السهم دون رهبة، حاول ذاك المحارب القبرصي من جديد أن يُصيب جثمان حمزة بالسيف لعدة مرات ولكن جميع المحاولات باتت بالفشل قبل أن يُخرج المصري سكينا صغيرا كي يمزق به أحشاء عدوه وهو يتبسم لمستقبلٍ معهود.. لم يكن يعلم الناشىء أن هذا الفارس الذي استطاع أن يُسقطه قتيلا هو كيان الأمير هنري الذي انجلت الأساطير عن شجاعته في ذبح الرؤوس المواجهة لسيفه الذهبي والذي رفض أيضا السكون بفراشه وفضّل أن يُكمل معركته رغم إصابته المريرة، رأى أمامه رجلا يحتضر محاولا إزاحة هذا الغشاء الموضوع على عينه الفارغة.. هُزم هنري وقضى نحبه، تلك كانت صدمة صارمة.. لأنها أضعفت من عزيمة بقية حراس جانوس طوال المعركة، وهكذا انهزمت أعداد القبارصة بعد عدة أيام من المقاومة المتخاذلة أمام شراسة حربية غريزية في نفس كل مقاتل تابع للسلطان.

ستة آلاف فرد قد لعنت أرواحهم مصير جانوس في السماء، شعر بحقيقة ذلك فور رؤيته لجثثهم ليس بساحة المعركة.. بل أمام بوابات قلعته، وهكذا بداخل قصره.. لم يُصدق ذلك المنظر الذي راح يُتابعه وهو يقف بالشرفة، مجموعة هائلة من الجنود يتقدمون نحو مدخل مقره.. يرتدون ملابس هيئتها تختلف بشكلٍ كامل عن هيئة جنوده، يراهم أشرس وأكثر عنفا مما قد ذكره رجاله من قبل.. هؤلاء من قتلوا أخيه، وهؤلاء من استولوا على مدن جزيرته.. يقتربون ويقتربون، ظن أن حراسه سيتصدون إليهم حتى الموت.. فنزل للساحة حتى يُشرف عليهم بنفسه ويشد من عزيمتهم، ولكن.. أين هم؟! تراجعوا، تضائل عددهم.. وبقيت مجموعة منظر احتشادها يُثير الضحك بصدر من يتابعهم وهم يتقهقرون، يقف كل منهم خلف زميله لعله يتلقى الطعنات بدلا منه.. يوچين كان أول الهاربين، جانوس يقف وحيدا وبلا سيف.. طفل تاه بعيدا عن والديه ويقف بمنتصف الطريق، ينتظر من يأتي ليُمسك بيده ويسحبه معه حتى يوجهه نحو سريره كي ينام.. رأى الأبدان تتساقط كصنمٍ لا يقوى على الدفاع عن نفسه، وباب الأسوار الخشبي الهائل ينهار كعصا صغيرة تهوى على الأرض دون أن يحملها أحد.. لم يتفوه بكلمة، ركض وتلعثم على السلالم الرخامية.. راح يدور بين أثاث القصر حتى وصل للقبو، ولكن قبل أن يدخله.. أمسكت بعبائته عدة أصابع، وراحت تسحبه للخلف مانعة جسده من الدخول.. وأصحاب هذه الأصابع وضعوا كفوفهم أيضا حول رقبته وعلى وجهه، كي يسحبوه معهم.. ليس لينام على سريره، ولكن ليجذبوه كالتيوس قبل أن تُذبح.. أمسك به عساكر برسباي وجردوه من ملابسه وهم يقفون عند الطرقة المؤدية للخارج، ثم أخذوه تجاه الساحة وربطوا أطراف جسده بالأحبال المُعلقة بجسد الخيول.. وراحوا يجُرونه إلى أن سلموه لقائدهم المحمودي، الذي بكى شوقا حينما وجده مُلقى أمامه يرتعش ويبكي.

لم يجد وصفا يناسب وضعه الحالي، جانوس هُزم...

جانوس الكاذب خسر...

جانوس القاتل تم أسره...

نجحت الحملة...

رُفع علم النصر فوق قلاعهم...

لا حامي اليوم لأرض الجزيرة...

قبرص تحت إمرة مصر وسلطانها...

***

فخلال هذه الفترة توجه الأمير يشبك الشاد مع سريته نحو جبل الصليب، أعلى جبل في المملكة.. والذي توجد على قمته كنيسة معلق على حائطها البارز صليب اللص الذي استشهد على الجانب الأيمن من السيد المسيح عليه السلام، فصار القائد إلى هناك سالما بين الديارات ليستولي على ما قد تبقى بمعقلها قبل هروب المقيمين فيها.. ثم أحضر بنفسه ذلك الرمز الذي طالما كانوا يعظمونه لدرجة الكذب حين أجزموا أنهم سيدافعون عنه حتى يلفظوا بأنفاسهم الأخيرة، وبكل حزم منع جنوده من تشويه الصليب أو حتى كسره.. بل وأرغمهم على الإبقاء عليه في منطقة مُؤمَّنة بالحراس للحفاظ على هيكله القدسي، وشدد على عدم تقرب أي فرد إليه وإلا عاقبه بالحبس وحرمه من الطعام.

وأينال في ذاك الوقت كان مستمرا في عملية إبحاره، فإذ بأسطولٍ مجهز في عرض البحر اقترب منه لشن الضربات على هيكل سفنه المنظمة قبل إعطائه الفرصة في التصدي إليهم.. فعلى حين غرة استغاث الأمير إلى رفيقه المحمودي كي يرسل إليه بأعدادٍ من العساكر مستخدما البركوشات الصغيرة حتى يصل الدعم الوافي لاحتياجهم في أسرع وقت، وقد كان على متن إحداها تيمور وجاسم معا.. فبالرغم من حنكتهما في المبارزة على البر إلا أنهما فضلا ألا يفوتا هذه الفرصة التي سينتهي كل شيء حينما يقتنصونها، وبالفعل دارت المعركة البحرية بالمدافع والأسهم أولا ثم اختلطت فيما بعد السفن المتقدمة ببعضها.

***

استمر اشتعال النيران وضوضاء صليل السيوف، هذا الصوت كان عذبا على أذني جاسم.. منذ التحاقه بالجيش وهو يتبع قائده، حتى لو كان كبار الأمراء من توجب عليه توجيه الطاعة إليهم.. يبقى عشقه لكينونة تيمور محفوظة، اكتشف في هيبته مثالا للقوة التي تمنى أن يكتسبها دوما.. لم يكن يعلم بحب هذا الرجل

لأمه، بركة عمره.. تيمور صاحب خبرة شاسعة، وجاسم تطور سريعا حتى صار بارعا.. الشاب أحيانا ينتابه الشعور بفرضية حمايته لوالد زوجته أثناء اشتباكهما كتفا لكتف، رغم عدم طلب الأخير لمساعدته قط.. ولكنه كان بحاجة إليها اليوم، أي بين نهار وليل يوم الأربعاء ٤ رمضان/١٠ تموز.

أبو الجميلة يتحرك بسرعة البرق، يلدغ منافسه في لحظة ثم يتجه نحو الآخر.. حمية مقاتل جعلته يغفل عن عسكريين تحركا نحوه من الخلف بأمرٍ من قائدهما، وحينها كان على جاسم التصدي لهما بكل ضراوة.. ظن أن استفادته من تسلية اللبخة سيجني حصادها طوال عمره، فاستمر في دفعهما بعيدا.. استمر في إنزال أيديهما ورفصهما بقدميه بعدما أفلت السيف من يديه ولم يستطع حمله مجددا، استمر في حماية جسده بدرعه النحاسي.. ولكن اللعبة أصبحت كابوسا، أو ربما رزقا لم يتوقع يوما أنه سيكون مالكه.. فالفاجعة بهذه الأونة آتية ولو بعد حين، والمتوقع حدوثه متعارف عليه لمن سلك طريق الجهاد.. طُعن سيف أحدهما في صدر الحبيب، زلزال ضرب قلبا كان يحمل بداخله ثنايا العشق لأجمل النفوس.. آلام جعلت ذراعيه يتصلبا تماما بلا حراك، شُلت مقدرته على استكمال اصطدامه الجريء.. دماء جاسم تناثرت على ملبسه العسكري الذي أشرق وجهه يوم أن رآه للمرة الأولى بعمره، ووقتما وضعه على جسده صارت الثقة تحُثه على السير بأريحيةٍ غير عابئٍ بمصائب الدنيا.. امتلىء فمه بسائلٍ أحمرٍ طاهر، وبدأت أطراف جثمانه بالارتعاش لا إراديا.. آهاته حفزت تيمور للإستفاقة من هول المنظر، حينما التفت إليهما ظل واقفا بموضعه محاولا استيعاب ما لم يتوقع ذهنه حدوثه أبدا.. التقط نظراته بعين جاسم صديقه، والذي لم تتهاوى الكلمات من لسانه.. لكن عيناه تحدثت باستفاضة، وكأنه يقول له اثبت وقاتل واستكمل.. فأجابه الأب على الفور منقضا على الصعلوكين لينزع روحيهما من جسدهما بسيفه، وفي لمح البصر سقطت جثتيهما هامدتين أمامه دون حراك.

– الله شاء، الله شاء

ناطقها يلفظ أخر أنفاسه الآن، تمتع بالحياة وشقائها.. رغم هذا لم ينسى آخرته أبدا، كان على اقتناع تام بما يفعله.. أحب كل من لازمه في هذه الدنيا، ولم يعبىء مطلقا بخلق العداوات بينه وبين من حوله.. أمنياته كانت بسيطة للغاية، رغبة واحدة تمناها دوما.. هي أن يموت بين ذراعي والدته العفيفة، أراد أن يُخبرها بحبه الصادق إليها.. فقط ود أن يمنح نفسها الشعور بالفخر الذي افتقدته منذ وفاة أبيه، يعشق روحها أكثر من نفسه ولو كلفه ذلك عمره الذي لم يتبقى فيه إلا لحظات.. وقت شروده كان يفكر في مصير ياقوت إن حدث إليه أي مكروه، فدعا **ربه** أن يتقابلا سويا في الجنة بأسرع وقت ممكن.. لن يطيق العيش بدونها، خاصةً أنها لن تكون الأنيس المقرب إليه في قبره.. ورغم كل هذه الأفكار التي تضاربت بذهنه لمدة ثلاثة سنوات،

جاسم يعرف أنه ليس بضحية.. إنه البطل، كما أراد أن تكون نفسه وهو صغير وكما أراد أن يصبح وهو كبير.

– الله شاء، الله شاء

مات صاحبها...

الفصل الستون

حاول من انقطع عنهم التواصل من القبارصة تحقيق أُكذوبة قدرتهم على الوقوف أمام شراسة قوات أينال البحرية، ظلوا يحاولوا لعدة أيامٍ قليلة إلى أن فرت بقية المراكب بعدما تم إرسال خطاب من الملك جانوس لرافاييل قائد أسطوله المنهزم يأمره فيه بالتراجع.. فقد أجبره المحمودي على فعل ذلك حتى يسلم الضئيل من توابع تحركات الجيش المملوكي الناجحة، وأخرها كانت زحفهم إلى العاصمة.. نيقوسيا، الكامنة في وسط الجزيرة.. تعتبر هي قلب قبرص بأكملها، لها تخطيط دائري.. حيث يعيش بداخلها أُناس من مختلف الأعراق، اليونانيون الأرثوذكوس والأقباط –من اعتنق المسيحية القديمة بشمال أفريقيا ومصر– والأرمن –التابعين لأول دولة تتبنى المسيحية كديانةٍ رسمية لها– وأيضا الكاثوليك واليهود أصحاب الأراضي التي نجحوا في شرائها من قبل باختلاف ترتيب ثقل –أهمية- كل طبقة عائلية ثرية تعيش على ضفاف نهر بيدالوس.

وللحفاظ على كل ما اشتملت عليه، وجد المسلمون على مشارفها أكابر ذاك المجتمع رفقة الأساقفة والقساوسة والرهبان حاملين الإنجيل في أيديهم متضرعين إلى الأمير المحمودي بمنحهم الأمان الذي تربوا على نشره.. وحينها رق قلب المسلم، وأول ما أمر به يوم الجمعة وقت أن دخل العاصمة.. بأن ينادي العساكر في جميع أنحاء الشوارع الرئيسية والأزقة على أهل البلدة لإفادتهم بدوام إلتزامه بعهده إليهم، فلا روح ستُزهق بعد قراره هذا.. ولكنه أكد للجميع أيضا أن النصر قد تحقق بعد أن طرب الجنود والقادة رفقة العصافير المغردة بصوت تكبيرات آذان صلاة الجمعة وهم يحفظون صوامع الكنائس، ليكون هذا خير دليل يُثبت أن الجزيرة أصبحت من جملة إشراف السلطان برسباي.

علاوة على خضوعهم اتفق بعض الأعيان بالعاصمة على جمع ما يكفي من أموالٍ نظير الهبة التي منحم إياها القائد التابع للسلطان وتعهدوا بعدم التعرض لأي فرد من القوات الإسلامية وقت مغادرتها، بل ومنحهم أيضا أغلب التجار العديد من البضائع والمؤن التي سيستنفعون بما اشتملت عليه خلال رحلة عودتهم.. تسلم أينال وقواته على طول السواحل الأسرى والغنائم ريثما ارتفعت أعدادهم، في حين كان الجنود يتبادلون أدوار الراحة التي اتخذونها في أرض الملاّحة لمدة سبعة أيام مقيمين خلالها الشعائر الروحانية الكاملة التي تصيب القلب بالرحمة خلال شهر **الله الكريم** أمام أعين ثلاثة آلاف وسبعمائة نفس من الأسرى.. ظل الشك يراود إينال والمحمودي خلال تلك الفترة عسى أن ينقُض أهل هذه الأرض كلمتهم المشروطة كما اعتادوا أن يفعلوا، حتى أرسل إليهم بعد طول انتظار كبير منطقة الماغوصة -فاماجوستا- هو الآخر طلبا بالحفاظ على أرواح المدنيين وعدم إرهاب قلوبهم المرتعشة مقابل كم من الأموال جمع قيمتها أقل مما قد منحه خلق نيقوسيا.. ولكنها

مُرضية إزاء كم الخسائر التي تضرر بسببها البواسل، فوافق الرفيقان على الفور حينما تيقنا تماما بأن قيادات الملك لن يُفرطوا في روح من صار حيا من رجالهم لاستكمال عملية المقاومة الفاشلة.

الفصل الواحد والستون

تصلب الجثمان على كتف تيمور، حمله وظل يطوف به لأميال غفيرة فوق منحنيات البر.. كان يبحث عن حفرةٍ مثالية، لا يعرف ما السبب وراء استبعاده لأكثر من تجويفٍ أرضي رقعته مناسبة.. فكلما اقترب من مكانٍ وقرر أن يضع فيه جسد جاسم الشريف تراجع، ربما لأنه كان يخشى بقاء الحبيب وحيدا بالموضع الذي سيُسأل فيه أمام الملائكة بغير سماع بكاء أمه.. عسى أن يكون عويل قلبها مغفرة لذنوبه، الآن هو يحتاج إلى شفيع يهون الكرب وضلاله.. أبو الزوجة عيناه دمعت، لم يختلف هذا البلاء عما قد حدث لزوجته من قبل.. فكلاهما ماتا بسببه، كلاهما ماتا من أجله.. كلاهما غفل بغير عمدٍ عن حمايتهما، رغم قوته التي كانت تفوقهما.

– سيدي، انتظر.. توقف عن السير واستمع إليَّ

لا مرد لهذا النداء:

– أيها القائد، توقف هنا للحظة.. لعل فكرتي البسيطة تُبعدك عن الكثير من هذه الخطوات الشاقة

فالتفت تيمور خلفه ليجد حمزة يركض نحوه قائلا:

– هل بإمكاني مساعدتك إن أردت؟!

تنهد القائد في ضعف:

– لا، لا.. لا داعي لقدومك الآن، دعني معه وشأني.. اذهب إلى قائدك وكُف عن التحدث إليَّ

ثم أكمل سيره، ليوقفه الفتى مرة ثانية:

– نستطيع أن ندفنه بجانب النهر، فالتنقيب بتلك البقعة أسهل بكثيرٍ من التنقيب في تلك المنطقة الخاربة التي نجلس فيها

قاطعه تيمور بحدة وهو يصرخ:

– ابتعد عن هنا، قلت لك لا داعي.. أنت الآن تُعطلني عن سداد الدَيْن الذي سأتحمل عاقبته يوم القيامة

ليسلُك الأخير الطريق وحده، ولكن تصرف تيمور لم يدع حمزة يكُف عن محاولاته لكسب ثواب حمل الشهيد.. فراح يسير خلفهما، ما زال الأب يحمل جسد زوج ابنته.. ما زال يبكي ولا يعرف أي حُجة عليه أن يُلقيها على نفس بركة المتلهفة لرؤيتهما فور انتهاء الرحلة، ساعات من المشي حتى فقد التواق قدرته على المُضي.. فوضع أعز صديقا لقلبه –جاسم- تحت شجره قصيرة الأفرع وجلس بجانبه كي يستند بظهره على خشبها، مستغلا هذه البرهة من السكون ليستريح بدنه قبل استكمال عملية الإنهاك.

حينها، اضطر حمزة التقدم نحوه لاستقطاب رضاه.. ولربما يوافق على تقبل عونه:

– معي الحل الذي سيُرضيك، فقم واصفعني على وجهي بعنف إن أخطأت في تقدير موقفك هذا

كاد أن يصرخ تيمور في وجه المتطوع، ولكن الشاب قاطعه مسرعا:

– سأصنع بيداي نعشا خشبيا لكي نفلح في وضع الجثة بباطنه، إن لم نفعل ذلك.. بعد يوم أو اثنين ستتحلل عظامه، وسيظهر ما في جوف بدنه

سكت الأمير للحظات ونظر في حسرةٍ على جسد جاسم، ثم احتضن رأسه وقبلها وهو يبكي عاجزا.. ليردف حمزة:

– صدقني، هكذا سنتمكن من الحفاظ على رائحته الطاهرة.. بالتأكيد سنُكرم جثمانه أثناء تحركنا لدفنه، لذا يجب أن نتحلى بالذكاء كي تطمئن روحه

أيام وأسابيع تتلاقى، عيون النصر تضحك في مجراها.. وتبقى الصدمة حارقة، صنعا الصندوق مع بعضهما.. بل وألهمت هذه الطفرة الربانية بقية العساكر، فصاروا يستقطبون قطع الأخشاب كي يضعوا بجوذتها بقية أجساد إخوانهم الشهداء.. حتى أينال والمحمودي كانا يشاركان جنودهما في صناعة النعوش وحملها على متن السفن، والصلاة الجامعة على الأرواح كانت مهيبة.. مهيبة لدرجة أن أهل القرى المحيطة بهذه الجزيرة انقبضت قلوبهم وقت سماع صوت التكبيرات، متعجبين من سرب الطيور المُحلقة فوق صفوف المُتعبدين.

الفصل الثاني والستون

كانت متلهفة بين الجمع، تقف على بُعد أميال بجانب زوجة فلذة كبدها.. ظلتا منتظرتين حتى قبل اشتداد حرارة الشمس على المدينة، عيناهما تُشع بالأمل.. كما حدث في المرة السابقة، تشابه الموقف وتشابهت المشاعر أيضا.. رؤية المنتصران هدفهما، أمامهما الآلاف من الخلائق متأهبين لاستقبال المجاهدين.. وبداخل مسجد الأشرف المُشيد بشارع المعز لدين **الله** الفاطمي والذي أُقيم بطليعته، أُعلن على منبره من قِبل كبار المشايخ خبر نجاح الحملة وموعد عودتها.. فعلى ساحل بولاق بعد إقامة صلاة الظهر وإنتظار موعد آذان العصر في ٧ شوال/منتصف آب، وصلت القوات المهللة باسم **خالقهم**.. حينها ارتفعت الأيادي وترعرعت المباركات، حُجبت الرؤية عن بركة وياقوت.. الموكب المتجه نحو قلعة السلطان كان حافلا بالأسرى والغنائم، الذهب كان يُسحب على ظهر ألف حمّال دونا عن المربط الموضوع فوق مئات الجمال.. وبفرضٍ أقره أينال والمحمودي معا، كان خواص القبرصي في المقدمة وخلفهم العساكر وفي ذيل أخر جندي تم وضع جانوس وهو أعوج -أي معطيا ظهره لرأس الحيوان- فوق بغلٍ صغير.. ها هو الكبرياء السطحي يُصَب كالبراز بين شتى النفايات، أكذوبة أقنع بها مُلاك الشعوب المتناثرة حول جزيرته أو ما قد كانت جزيرته التي رُفعت على بيوتها الآن الأعلام المُنكسة بالخيبة.

راح الأطفال رفقة أبائهم والنساء صحبة بناتهن يلقون على رؤوس هؤلاء الأخفاف والأحجار، وظلوا يهتفون طوال طريق الممشى:

– يا جاموس، يا جاموس

ساخرين من اسمه كحاكم، ومن صفته كبشري لم يعطي لعقله الحيز الكافي حتى يستغله قبل أن يتصرف.. حتى ولده الذي لم يُكمل الخامسة عشر بعد، قُبض عليه وأحضروه من فراشه كلبنٍ امتُص من ضرع بقرة.. وتم أيضا احتجاز حرس جانوس وابنته بصُحبة أخيه هيو تحت أنقاض القصر الملكي، فاللقاء كان متوقعا.. انتظره الكثيرون من متابعي الملحمة منذ ثلاثة سنوات وقت أن تم الهجوم على السفن التجارية، قرد متعال كان يُعادي تمساحا شرسا مُتقلب المذاج بسبب جوعه.. وأخيرا، جمعهما القدر سويا.. أدخله العساكر للقصر كي يُلقوه أمام كرسي السلطان الهائل ومعاونيه من أتابك جديد، وهو الأمير يشبك الساقي -عوضا عن الأمير قجق العيساوي بسبب وفاته الفُجائية، وقد أمر السلطان حينها بعدم الإفصاح عن الأمر كي لا تتأثر عزيمة الجنود إن تمكن أي من حاملي الإمدادات إيصال الخبر إليهم- وأمير السلاح وأمير المجلس وناظري

الدواوين وكبار القضاة والأمراء والنواب وعلى رأسهم جميعا بدر الدين المعلم اللبق.. ظلوا ساكنين وهم يتأملون ردة فعل الغربي، والذي سقط على الأرض ليُقبلها تحت قدمي برسباي بشكلٍ هيستيري.

ثوانٍ من الصراخ والولولة ثم انهار جانوس مغشيا عليه، فوقف السلطان بشموخٍ واقترب منه متهكما كي يدفعه بقدمه بعيدا عن غطاء السجاد الموضوع على طول بلاط الساحة:

– ألقوا به في الخرابة، وأعيدوا غسل هذا البساط الطاهر.. فقد دنسه القبرصي بتشبث أظافره النتنة، ولا تدعوه يرى الشمس بتاتا حتى آمر بجلبه راكعا أمامي مرة ثانية

فتحرك أحد الحراس نحو برسباي بتريثٍ ليعطيه خوذة جانوس الذهبية، فأمسك بها الأخير بعدما تسربت من فمه ضحكة خافتة:

– أهذا ما كان يحتمي به؟! علقوها إذا على أبواب المدرسة الأشرفية لتكون عبرة لكل زائر يسعى لمعاداة حظوتنا

وبأمرٍ من الأشرف الذي تجمل اليوم بخلعته التي يُباح للقوم النظر إليها كرداءٍ تشريفي إبان المناسبات الجوهرية، أخذوا المهزوم نحو سجن قذر خُصص له بداخل القلعة حتى لا يرى نور الحياة التي تعرى تحتها.. فقد تابع كل هذه الأحداث رسل ابن عثمان –أتباع الدولة العثمانية- وأمير مكة **(بركات بن حسن)** ورُسُل ملك تونس، وأيضا رُسُل أمير التركمان –قبائل بدوية استقرت بشمال فلسطين- وكثير من قصاد أمراء الشام.. بالأحرى هم لم يأتوا صدفة، راسلهم الأشرف كي يحضروا ذلك الاستعراض الواصف للمعنى الحرفي لكلمة الاستعباد.. بعثتهم تأكدت من صدق حاكم الأمة بعدما أقسم أنه سيُعطر قلب أخصامه بمذاق المهانة، وتفطموا أيضا لأسلوبه الاحترافي حينما ناقش حاشيته عن السُبُل الموزونة للتخطيط لمجريات المرحلة المقبلة.

الفصل الثالث والستون

لم يكن شرسا، أو ربما كان.. لا يعرف ما الذي ألقى به كالقذيفة النارية هنا، يتشمم رائحة قذرة رغما عنه.. فيحاول جاهدا الابتعاد عن هذا الرحيق، ولكنه يفشل.. لأنها في الأساس رائحته، فالمطاف لم ينتهي بعد.. جسده مُصفد على الأرض وكأنه قد ذُبح، مرت على ذهنه ابتسامة الحقد الجماعية النابعة من حاشية والده وقتما كان الأخير الملك.. راحوا ينظرون إلى جانوس بمقتٍ واضحٍ غير رضايين عن ذلك المشهد، ولي العهد الذي بلغ سن الفحولة للتو أباه يتفاخر به أمام الأمراء.. عليهم أن يتبسمون وينحنون إليه كي تتفاقم بهجته، منهم القادة وأصحاب الجاه.. خبرتهم تفوقه، وبالطبع طموحاتهم لم تخطر على باله.. رأى الخبث في أعينهم، واستدرك المكيدة في أفعالهم.. ولاحظ فضائح الكذب تتسرب من أقوالهم، فتوجب عليه أن يُصبح أسوء منهم.. وليصبح الأسوء، فاق طموحه رغباتهم.. افتقد لحظات المرح التي يستمتع بها الفتية وهم ما زالوا صغارا، لأن يداه قد انشغلت بحمل السيف الثقيل أثناء تعلمه لأساليب المبارزة من قِبل معلميه.. أراد أن يتفهم الطريقة السديدة لكبح دفاع منافسيه، تدرب دون إرهاق وتيقظ لأدهى أساليب المراوغة للحفاظ على كيانه من أي ضرر.

ففي جوف الليل دخل الجمقدار –الحرص الخاص للسلطان- بنفسه الزنزانة على جانوس، المنظر يدعو للسخرية.. الأساطير التي تناقلت عبر الأفواه كانت كاذبة، قيل أنه شجاع وذكي.. يعرف متى يتراجع ويطلع جيدا على الوقت المثالي للهجوم، بإمكانه إبادة من يواجهه فقط بخدعة بسيطة.. ولكن شموخه كان الخدعة الأصلية، التي انقلبت عليه بنهاية المطاف.

– حان وقت المحاكمة أيها الملعون، محاكمة انتظرتها ربة كل عائلة بعد مقتل زوجها هبائا خلال هجمات رجالك الوحشية.. هيا، تحرك معي أيها القذر

بصقة سال لُعابها على وجه جانوس بعد أن أمسكه الجمقدار من رقبته وزحف به على طول سلالم القصر حتى وصلا معا لغرفة برسباي، وهناك ارتمى الأخير على الأرض مرة أخرى تحت قدم السلطان الذي شاور لحارسه حتى يدعه مع المهزوم في حضور أحد المترجمين:

– أتعرف أنني كنت أفكر جديا في إعطاء الأمر بذبحك، وترك الجزء العلوي من جسدك معلقا على أبواب القلعة؟

انحنى الشاب حتى وصل لأذن جانوس شارحا له ما قاله برسباي، ليرد القبرصي مسرعا بعد أن أمسك بقميص الأول:

- أرجوك، فلتمنحني الفرصة للتحدث مع سيادتك عما سيحدث في المستقبل.. ولربما نُنهي الخلافات برمتها حتى تخفُت الصراعات بيننا للأبد

فور استماع السلطان لترجمة خادمه قال:

- لن تخفُت يا رجيم، لن تخفُت.. أتعرف كم رجلا فقد عمره بسببك؟ أتعرف كم طفلا يتيما صار يجوب الشوارع في بلادنا بسببك؟ أسمعت صرخات الأرامل وقت سماع خبر استشهاد أزواجهن؟

هو أيضا بثق لعابه على جبهة المأسور كما فعل جمقدار:

- خسئت أيها الداعر، خسئت

تنهد المذلول وزحف حتى أرجل سيده ثم قبلها للمرة الثانية كما فعل أثناء حضور جمع الضيوف بالقصر:

- قتلي لن يُجدي نفعلا لجلالتك، والكل يعيي ذلك جيدا.. على الأقل اترك ولدي چون يرحل إن أردت أن تُبقيني في السجن هنا

- وماذا لو قتلته بسيفي الذهبي؟ فلتُخبرني لمَ منعت أنا الجنود عن إيذائه حتى لحظتنا هذه، كان بإمكاني سفك دمائه أمام عينيك؟!

- منعتهم كي تضغط عليَّ وتدفعني لقبول شروطك، وبكل تأكيد أنا سأوافق على أحقية متطلباتك

ابتسم الأشرف باستهانةٍ:

- هكذا تربيت في جزيرتك، كنت متيقنا من حقيقة جهلك لسماحة أصول ديننا.. نحن لا نقتل الشيوخ والأطفال، حتى الصبية نعتقهم لوجه المتعال.. ولا نغتصب النساء أيضا، مبادىء يصعب عليك التحلي بها في بلادك

تفكر السلطان قليلا ثم قال:

– حسنا، مائتي ألف من الدنانير عليك أن تمنحهم إيانا.. وحينها سأُفكر إن كنت تستحق الرحيل عن سجني أم لا

أصاب المُكَبل نوبة من السعال بعد أن تفهم ما قيل، ليتمتم للمترجم راجيا:

– دعني يا سيد الأمراء أصل لمن هم أقرب لعرقي على هذه الأرض الطاهرة، عسى أن يستمع إليَّ أحدهم ويساعدني

أبعد برسباي عبائته حتى لا تتسخ بيد جانوس:

– سأرسل لك جنديا من عشيرتِك كي تُملي عليه كلماتك، ولو أني أعرف أنهم سيبخلون على حثالة مثلك بدنانيرهم

ثم تركه واتجه للخارج، عازما على أن يُعاود متابعته الأهم لأحوال العامة متفقدا كم الهبات التي سيمنحها بنفسه من أجل أهل الشهداء.. ورفعة على هذا التعويض الذي فُرض على ذاك المسجون، فقد أُلزم بدفع جزية سنوية لسمو السلطان في عُقر داره وقدرها عشرون ألف دينار.. فبالنسبة لبرسباي، هذا الخيار الأقيم.. هو يعرف أن أمر دفع المسجون للجزية المفروضة حتى يتمكن من الرحيل لن يتم خلال أيام، جميع أتباع جانوس بشرق قارته يكرهونه.. يرونه غبيا منذ أن تلاعب بأرواح جنوده دون قياسه للأضرار قبل المكاسب، انخدع بعظمة كيانه أمام أصحاب الديانة الساطعة.. لتمر عشرة أشهر بأكملها من تواصلٍ ونقاشات ومقابلات بين التجار القبارصة والأوروبيين في المدن الساحلية بالأرض المنبسطة والشام، حتى فلحوا بتجميع نصف الفدية المغصوبة على الملك العبد كما ذكره جبابرة الأمراء.. والنصف الآخر سيتم إرساله بعد إطلاق سراح ذلك الجاموس الغربي، فإنه رسميا سيصير نائبا عن السلطان هناك دون أدنى محاولة منه لإستشعار كابوسه مجددا.

وما قد سبق من اجتياح توسعي، يُصنف أعظم ما حققه السلطان بعمره.. ألا وهو فرد من سلاطين المماليك الجراكسة يُدعى -نسبة إلى الشركس، وهم مجموعة من شعوب كانت تسكن في مناطق جغرافية تقع بين حدود أوروبا وأسيا.. ولكن أهلها اعتادوا على هجرها نتيجة لحروب الإمبراطورية الروسية التوسعية القديمة، لذلك استغلهم ملوك البلدان المسافرين إليها حتى يصبحوا من جملة عساكرهم.. فمن منهم جُلب إلى الرقعة المحمية سكن حول برج قلعة القاهرة، فصار يطلق عليهم أيضا مماليك البرجية- برسباي، ملك البحرين كما شهدت أسماك البحر الأبيض والأحمر وملك الأرضين كما شهد الخلق بمصر والحجاز والشام.

الفصل الرابع والستون

بسرعة هائلة كان يتحرك بين حشد المهللين، ركض وكأنه يطير فوق الرؤوس.. يمر بجانب الكبير في حذر ويتافدى إيذاء الصغير بقدمه التي صارت تدُب على الأرض ريثما قد مر بها فوق الموتى بسيوفهم، لم يكن فارسا كما أراد.. ولكنه حقق الحُلم، حارب.. أقل ما تمناه قد تحقق بالفعل، ود المشاركة ولو ليومٍ واحدٍ كي يتباهى بانتصاره أمام أبنائه.. أبناء صبا التي ستلدهم بعدما يتزوجا، تلك الفتاة التي انتظرته لشهورٍ وهي تبكي بفراشها ليلا.. ترجت **ربها** أن يحفظ الغائب ولا يصبه مكروه يُعجزه لاحقا عن قول نفحات العشق لها، وها هو الغائب قد عاد من جديد وسط عزيزيه.

- أعتذر بشدة بسبب طول مدة تأخري، ولكن الفريضة العقائدية كانت شاقة أيتها الأنثى الفاتنة.. ولم يكن هناك سبيل تجاهي لتركها إلا موتي

تثبتت صبا في موقعها ثم التفتت إليه مبتسمة:

- تأخرت كثيرا عليَّ بالفعل، ولكني بقيت في انتظارِك وأنا أُعاني بسبب هجرك لي.. ولا تحدثني عن الموت الآن أرجوك

ضحك المغوار وقال:

- لم يغفل وجهكِ عن عيناي طيلة الأيام بصباحها ومسائها، وعدتكِ بالعودة.. ووفيت كما فرضتي عليَّ

تنهدت في خجل:

- وماذا عن خيالي الطفيف؟! هل شاهدته وقت الخلاء، أم أنك كنت منشغلا بالبحث عن تلك المرأة ذات الشعر الأشقر التي تحاكى عنها المسافرون إلى الجزيرة من قبل؟!
- ظهرتِ في أحلامي سبع مرات، ورأيتكِ جالسة فوق الشجرة وأنا أحارب أربع مرات.. وتابعتكِ وأنت تسبحين في المياه بجانب الحوت مرتين
- إنك كاذب، تخدعني بكلماتك العذبة حتى لا تُجيب على سؤالي

أمسك بكتفها وأردف:

– وأنتِ تبدين جذابة للغاية، والملائكة تشهد على ذلك

أفزعها مناداة العجوز الذي سقط أرضا وهو يركض في عجلةٍ نحوهما:

– حمزة الجندي عاد، حمزة ولدي قد عاد حيا.. حمزة الصغير لم يهجرني، احتضنني أولا كي يستقر قلبي بموضعه

فاتجه نحوه العائد مسرعا كي يعينه على الوقوف مجددا، محاولا تنظيف عبائته بكفيه:

– خالي العزيز، حاول أن تهدأ وتنفس جيدا.. ما وجب عليك أن تتسارع بخطواتك هكذا، ألا تشعر بأي آلام؟!

تغاضى الريان عن هبوط جسده ليحتضن الأخير باكيا:

– أشعر أن الحياة قد أعادت نورها الرباني لمسجونٍ كاد أن يموت من الخوف، لا تتركني أنام في بيتنا الصغير وحدي مرة ثانية

أكمل حمزة:

– كبير العلماء لم ولن يُسجن قط، وستبقى هيبة نفسه ما تبارك عمري.. ظلمة الحياة كادت أن تخطفني من بين ذراعيك ولكن شاء **ربي** أن أُرافقك هنا من جديد

ترجاه الخال في حماس:

– من التو واللحظة، فالتبدأ طريقَك دون حرب.. فلتسعد بحياتك وأنت تعيش بجانبي بعيدا عن كآبة مخاطر المعارك

ابتسم الفتى بثقته المُكتسبة:

– لا تخف يا كبيري، خوض الحرب بالنسبة إليَّ.. أصبح أسهل من مجابهة الظمأ خلال شهر الصوم الكريم

ولكنه لم يعد فتى بعد، يشعر أنه سيد من الرجال.. ومن حقه أن يُصنف قَدره في مقام الأمراء، الجيران التفوا حوله.. أطفال البقعة التي كان يعيش فيها صارت عيونهم تومض وقت رؤيته، اقتربوا منه وتلمسوا زيه العسكري الجذاب.. أمامهم شخص لمس بيديه نجمة العزة، ولو كانت احترقت لزاره ملك الموت.. حان وقت راحة الذهن، ستكُف الأبدان عن القتال رُبما لدقائقٍ أو ساعاتٍ أو أسابيع.. لا يعرف كم ستطول المدة، فعلى الأرجح هو على علمٍ بأنه سيكون متأهبا حينها.. لم ينتابه الغرور، فخُطوته القادمة سيصل من خلالها لذروة إيمانه.. إيمان صادق ولا تُذبذبه المخاوف، محظوظا لأنه لم يفقد الكثير حتى الآن.. فهل للغدر من أثير؟! حمزة ما زال يجهل الإجابة الصحيحة، على عكس خاله الذي اختار وجهته.. بإمكانه العودة للإسكندرية من جديد، الثأر شفى غليله.. لم يشارك بيديه ولا بسيفه، ولكنه دعا لسنوات أن يعود لمرقد مولده.. هناك الحياة، وهناك الجمال.. هناك سوق الأسماك وظلالات الجوامع المُطلعة على المياه الزرقاء، البحر.. تلك الرائحة المنبعثة من أمواجه لم تهرب من ثقبي أنفه يوما، فعليه أن يعود إليه مرفوع الرأس كما كان قبل رحيله وهو طفل صغير.. ذلك البحر الذي يستقبل أحبائه بأمواجه، ولا يعاتبهم على هجرهم إليه.

الفصل الخامس والستون

عادا لدار الحبيبين في انتظار البشائر، كانا يقفان على بابه وكأنهما يزينانه.. زحام شديد في الأسواق وأمام البيت، الطرقات تعم بالأناس.. والزغاريط تتعالى، تطرب الآذان بأصواتٍ مُشبعة برقائق السعادة.. رقصات شرقية تتمايل من خلالها الأبدان فرحا، دقات الطبول امتدت بين المتاجر والحواري.. الكل يزف الأبطال، الكل يزف القدر الباعث بترانيم الفخر.. ولكنه أيضا بعث بابتلاء للقلب المذعور، وهنا خفق قلب بركة حين رأت تيمور يقترب إليهما وحده.. كانت تقف مع ياقوت وهما مبتسمتان، وحينما ظهرت لمحة الانكسار علة وجه الأب ولمعة الدموع في عينيه.. ركضت الأم نحوه، لعل الخير يتخفي بغيبته.. لعله يستر مفاجأة ولا يود أن يُفصح عنها، إلا على لسان ابنها.

– أين جاسم؟! أين ولدي أيها الأمير؟!

اقتربت منه ياقوت أيضا في شغف:

– الحمد كل الحمد **للجبار** لعودتِك سليما، ولكن لمَ أتيت وحدك يا أبي؟! أين جاسم؟!

بقى كما كان، بلا حديث.. لم يُحرك حتى يديه ليتلمس وجه ابنته التي كررت سؤالها مرة أخرى بتلهفٍ:

– أجبني، لمَ عُدت وحدك يا أبي؟!

أمسكت بركة بقميصه وهي ترتعد:

– أبلغني بما حدث، **وربك** لا تصمت هكذا.. لمَ تأخر، لمَ لم يأتي معك؟!

تبعتها ياقوت متربصة:

– أبلغنا أرجوك، ولا تدع الشك يقتل بهجتنا المكبوتة منذ رحيلكما

أُجهش في البكاء للمرة الثالثة في عمره، لم يتمكن من تمالك هيبته الصارمة التي اعتاد على إظهارها للجميع.. بكى للمرة الأولى إبان حادثة وفاة زوجته، وفي الثانية حينما جلس بجانب جسد جاسم تحت الشجرة.. وها هي الثالثة وهو يقف أمام عيني ابنته ضعيفا، غير قادرٍ على وصف هذا الابتلاء الذي حل عليهم.

- الجُثمان سيُدفن في المقابر المخصصة للأهالي والجنود بجانب جامع الأشرف الشاهق، طلبت من حفاري القبور ألا يفعلوا ذلك إلا في حضور أهل صاحبي كل روحٍ استعادها خالقها من جديد

فصرخت بركة، صرخت فاهتزت الأرض.. صرخت، فغادرت الطيور مساكنها خوفا.. صرخت، فتأرجحت بوابات الديار.. طُعن السكين بفؤادها، أو ربما انتزعه أحدهم.. لم تعرف إن كان القدر من فعل ذلك، أم المصير.. الفارق بينهما غريب، ومؤلم.. لمَ هو، لمَ أنا؟! لمَ أنا، لمَ هو؟! سؤالان ترددا في ذهنها، لمَ يموت الشاب وهي تحيا؟! لمَ لا تموت هي ويحيا الشاب؟! اعتراض روحاني تطلعت إليه الملائكة لتخبره **بمولاها** حتى يرحم تلك العبدة، فهو **السميع** يعلم أنها لم تقنت من قضاءه.. وإنما جُرح قلبها المسلوب بلا رحمة، ليسكن بجانب صغيرها في قبره.

دُفن المُجل قبل أن يعرف البُشرة المنتظرة، أراده من الدنيا.. تضرع **لخالقه** كثيرا حتى يتمادى نسله، فاستُجيب له.. ياقوت تحمل بين أحشائها الجنين، جنين بإمكانه إكمال المسيرة.. لو كانت تعرف أن جاسم سيموت، لأمسكت في جلده والتصقت بجسده كي يُقتلوا الثلاثة معا.. عيناها تراقب وجه أبيها، تلومه بلا كلمات.. سقطت على ركبتيها، والأرض من تحتها تتجهز لابتلاعها.. دموعها نهرا يروي ظمأ الهائم، وتنظر للأمير لتُعاتبه.

- كيف لم تدافع عن حبيبي أيها الأب؟!
- كيف لم تستغل مقدار الشراسة التي فضلك **الله** (ﷻ) بها دونا عن غيرك لكي تحمي عشقي الأول من هول الحرب التي تتلذذ دوما بحضورها؟!

عتاب، ولوم.. هي أيضا لا تعرف الفارق بينهما، ولكنها كانت تعرف الفارق بين عقدة القدر وحُكم المصير.. فالأولى تعني أن صاحب الفاجعة يعلم مقادير البلاء بخيره وشره، رغم أن موعد حدوثه يباغت الذات وإن كانت متأهبة.. والثانية تعني أن غاية الأمر ونهايته لن يتمكن المرء من تغييرهما مهما حدث، إنه قضاء مفروض على عاتقه مهما ثقُل حِمله.

تمت بحمد الله

صور لبعض المقتنيات والأماكن والأحداث الحقيقية المذكورة

خوزة السلطان برسباي الخاصة العملة الأشرفية المصنوعة من الذهب

خريطة جزيرة قُبرص والتي أعاد نشرها النحات الإيطالي فيرناندو بيرتلي في روما عام ١٥٦٢ بعدما نقش أطراف خطوطها الرسام الروماني ماريوس كارتارو

(Book → Crusading, Society, and Politics in the Eastern Mediterranean in the Age of King Peter I of Cyprus)

رسمة تاريخية تُظهر أعمال العنف التي قام بها بطرس الأول وجنوده أثناء اقتحام الإسكندرية عام (٧٦٧هـ - ١٣٦٥م)

(كتاب المُصوَّر في التاريخ، تأليف شفيق جحا وبهيج عثمان ومنير البعلبكي)

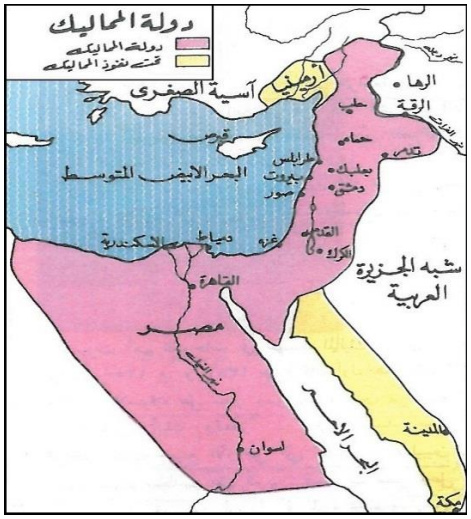

خريطة توضح اتساعات دولة المماليك

(كتاب مدرسة الأشرف برسباي، المجلس الأعلى للآثار)

- مسجد برسباي حاليا (المدرسة الأشرفية في عهد المماليك)

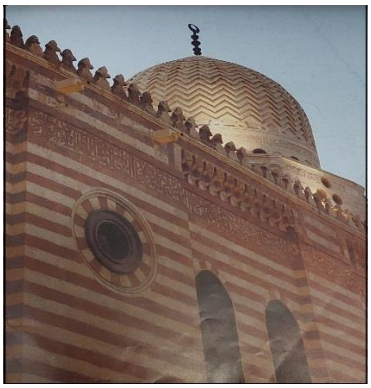

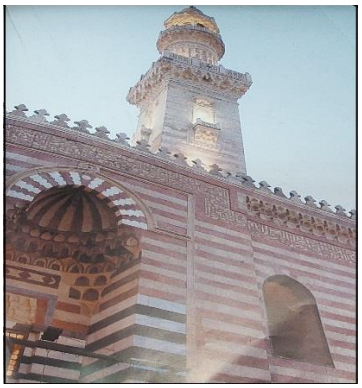

- بابه المنحوت بأسلوب جمالي وحنايا قبلته

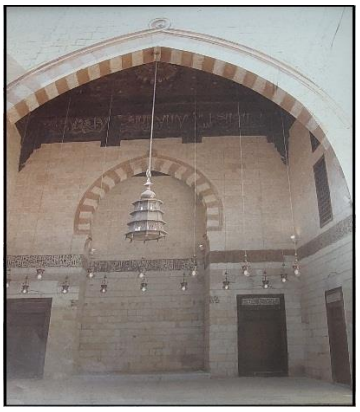

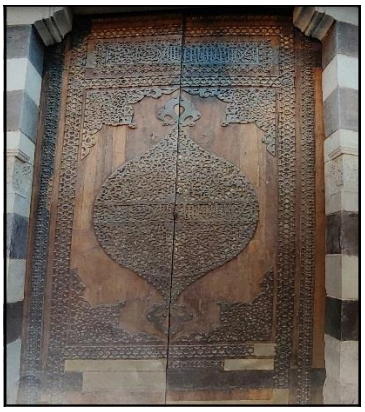

(Crusader castles of Cyprus, the fortifications of Cyprus under the lusignans: ١١٩١ – ١٤٨٩ by Ja٧mes Petre)

- **قلعة فاماجوستا**

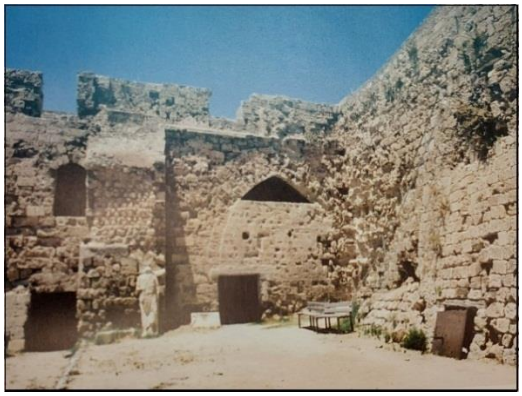

مستوى الأرض من الداخل، البرج الجنوبي الغربي مدخل خاص مُجهز لرماة الأسهم

الفناء من الجهة الغربية

- **مدينة لارنكا الساحلية**

الجدار الشرقي من اتجاه البحر

- مدينة بافوس الساحلية

الجدران الداخلية للطابق الأول في الحصن الواقع باتجاه البحر

- قلعة مدينة ليماسول الدفاعية

- قلعة نهر نيقوسيا، عاصمة قبرص

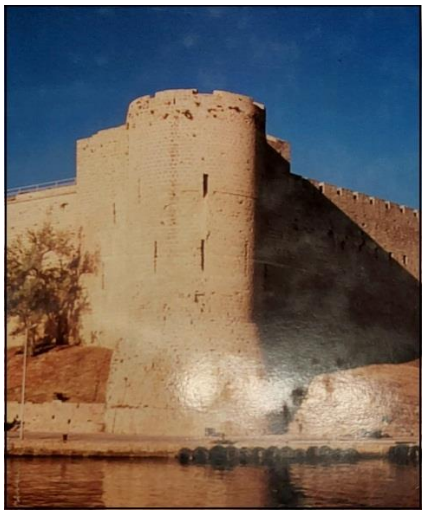

(كتاب أسواق مصر في عصر السلاطين المماليك، د/ قاسم عبده قاسم)

- الطابع العام للحياة آنذاك في عصر المماليك

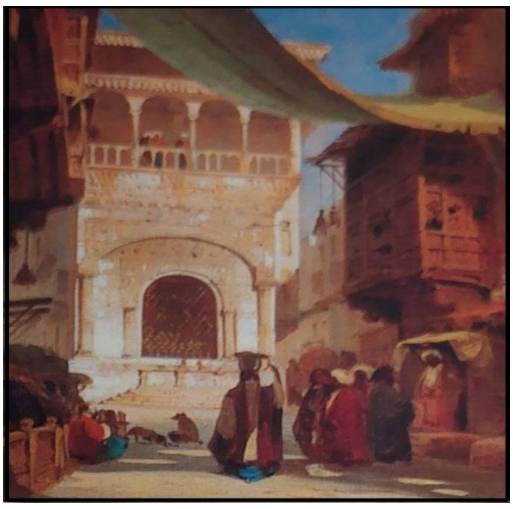

(كتاب أطلس تاريخ العصر المملوكي، تأليف وتصميم سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث)

- المدخل الرئيس لقلعة حلب، وسورها الشاهق الذي يبلُغ ارتفاعه ٥٠ متر

- قلعة دمشق الكبرى

- قلعة مدينة طرابلس في لبنان ومدخلها أيضا

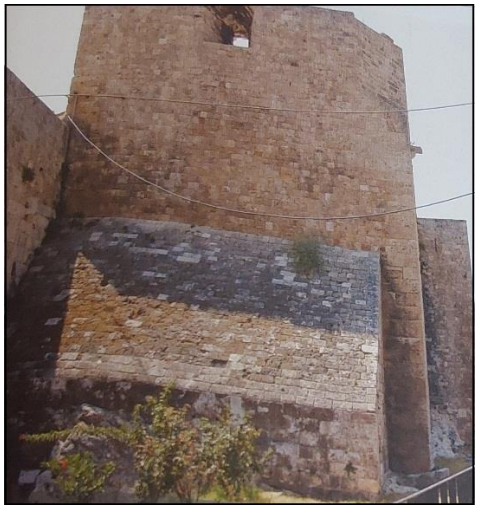

- مسجد أثري بجزيرة قبرص

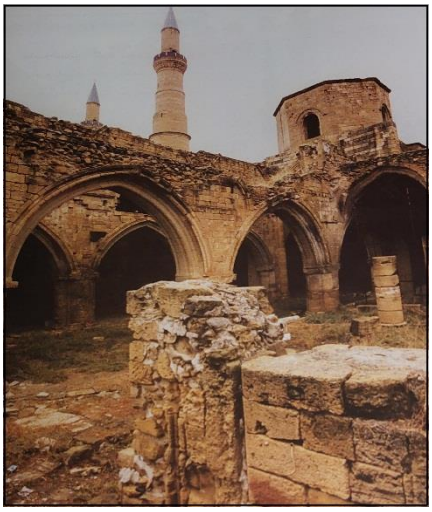

(كتاب المدفعية المصرية، الابتكار والتطور من العصر المملوكي إلى عصر محمد علي.. تقديم إسماعيل سراج الدين، وإعداد المصطفى محمد الخراط)

- اعتماد المماليك على فكرة الفتيل المشتعِل، والأسهم الأكثر انتشارا بالعهد المملوكي

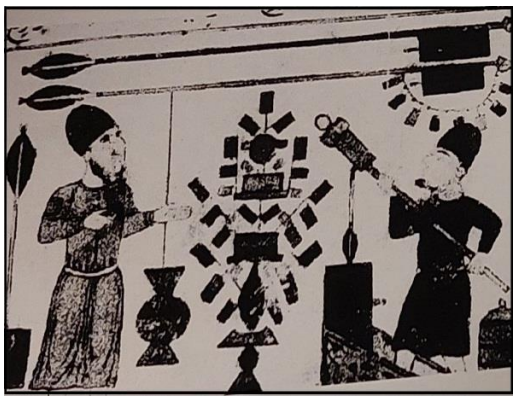

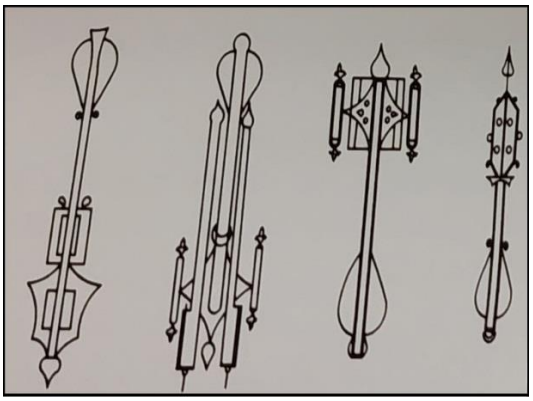

- المقذوفات المُستخدمة حينها لإحداث الاشتعال والحريق، وأنواع مختلفة من المدفع اليدوي

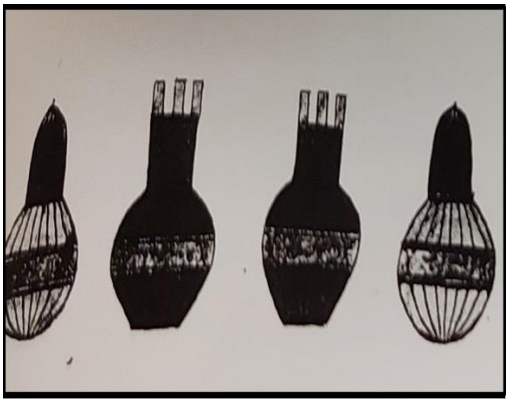

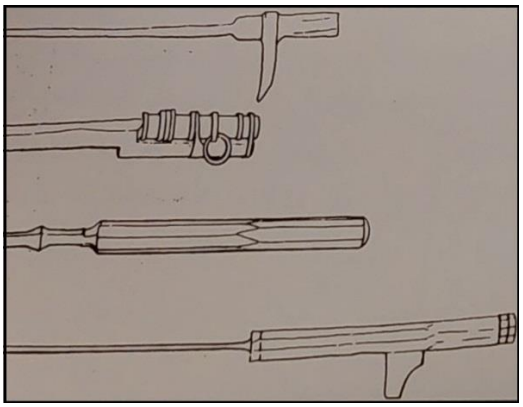

المراجع:

- الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية - تأليف سهيل زكار
- أطلس تاريخ العصر المملوكي – تأليف سامي بن عبد الله بن أحمد المغلوث
- كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك - تأليف غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى
- أعلام الجغرافيين – تأليف الدكتور عبد الرحمن حميده
- كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور الجزء الثاني – تأليف محمد بن أحمد بن إياس بن الحنفي
- كتاب مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك – تأليف عزمي عبد أبو عليان
- كتاب دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك – تأليف الدكتور حمدي عبد المنعم محمد حسين
- الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي – تأليف الدكتور محمد ماهر حمادة
- في تاريخ الأيوبيين والمماليك – تأليف الدكتور أحمد مختار العبادي
- العصر الماليكي في مصر والشام – تأليف الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور (أستاذ كرسي تاريخ العصور الوسطى)
- مدن إسلامية في عهد المماليك – تأليف ايرا م.لابيدوس (أستاذ فخري في الشرق الأوسط والتاريخ الإسلامي في جامعة كاليفورنيا في بيركلي)
- صور من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك – تأليف الدكتور حياة ناصر الحجي
- مجلة الرسالة/العدد ٨١٧/القوة الحربية لمصر والشام في عصر الحروب – للأستاذ أحمد أحمد بدوي، بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول
- النشاط البحري لدولة المماليك في البحر المتوسط – للأستاذ محمود خالد السخني، رسالة ماچستير كلية الآداب جامعة دمشق ٢٠١٢
- كتاب قبرص.. تاريخ وحضارة – للأستاذ الدكتور بدر عبد العزيز بدر
- موسوعة التاريخ الإسلامي: العصر المملوكي (٦٤٨، ٩٢٣م/ ١٢٥٨، ١٥١٧م) – تأليف الأستاذ الدكتور مُفيد الزَيدي

- مصر في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي (كما رآها بيلوتي الكريتي) – دراسة د/محاسن محمد الوقاد جامعة عين شمس، مصر
- الملحمة المصرية، عصر المماليك الجراكسة ورد الاعتبار في عهد برسباي (٧٦٧، ٨٢٩ هـ/١٣٦٥، ١٤٢٦م) – دكتور محمد عبد الغني الأشقر

كم لديك من السطور الجميلة التى أخذت منك الكثير من المجهود والاعتناء لكى تكون أفضل ما يمكن لتعبر بها عن شعور داخلى لم تستطع أن تشاركه مع أحد غيرك.

مهما كانت سطورك

قصص... روايات... أشعار... مقالات

باللغة العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية

تواصل معنا

لتشارك سطورك مع العالم

٠١١٢٢٣٨٠٤٤٣